الكسندر بينينجسن

شانتال لومير سييه - كيلكجى



سلطان غالييف

أبو الثورة فى العالم الثالث

ترجمة : سوزان خليل

كتاب العالم الثالث



سُلطان غالييف

أبو الثورة فى العالم الثالث

سُلطان غالييف

أبو الثورة فى العالم الثالث

الطبعة العربية الأولى

١٩٩٢

الناشر: دار العالم الثالث

ت: ٣٥٥٥٥٠٢٠/ ٣٩٢٢٨٨٠

فاكس: ٣٥٥٠٨٧١

هذه ترجمة لكتاب:

SULTAN GALIEV
Le père de la révolution
tiers- mondiste

تأليف:

Alexander Bennigsen
Chantal Lemercier - Quelque lquejay

الناشر:

Édition FAYARD,1986



صدر هذا الكتاب بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة - القاهرة

الجمع: بوحدة الماكنتوش

بدار العالم الثالث

صف: ماجدة حنفى

الكسندر بينينجسن
شانتال لوميرسييه - كيلجى

سلـــــطان غاليـــف
أبو الثورة فى العالم الثالث

ترجمة: ســــوزان خليل

دار العـــــالم الثالث

«مجهولون فى ذاكرة التاريخ»

مجموعة من تأليف «جان مونتالبيتى»

أولئك الذين أغفلهم التاريخ ..من يكونون؟ إنهم ليسوا أبطاله الذين ذاع صيتهم وجاوزت شهرتهم الآفاق حتى أصبحوا كأبطال الأساطير. وإنما هم من كانوا مصدرا للإبداع، بل تجسيداً حياً لأحد التيارات الفكرية، أو الإكتشافات العلمية، أوالتحولات الإجتماعية، أو الأحداث السياسية. لقد تجاوزوا حدودهم الذاتية ليصبحوا شهوداً على العصر، فقدموا للمؤرخين المعاصرين نهجاً جديداً لدراسة التاريخ.

لقد كانت البداية الأولى لهذه المجموعة المبتكرة من أعمال «جان مونتالبيتى» والتى تحمل عنوان «مجهولون فى ذاكرة التاريخ» على موجات إذاعة فرنسا بإعتبارها الجهة المنتجة لهذه الحلقات : حيث أذيعت مائة وثلاث وعشرون حلقة بإذاعة (فرانس كلتور) ، فى الفترة مابين شهرى أكتوبر ١٩٨١وإبريل ١٩٨٤.وقد طلبنا من مجموعة من خيرة المؤرخين المعاصرين متابعة سيرة أولئك «المجهولين فى ذاكرة التاريخ» فمن خلال السرد الأخاذ للتجارب الفردية يكون هؤلاء الشهود هم الأداة المثلى التى لا تنتج التعرف على العصر الذى عاشوا فيه فحسب، بل وكذلك فهم الحاضر بصورة أفضل على ضوء الماضى المتجدد دوماً.

صدر فى هذه المجموعة

* جورج ديبى، المارشال جييوم، أو خيرة فرسان العالم.
* هنرى هـ. مولاريه وجلاكين بروسوليه، ألكسندر يرسين، أوقاهر الشر.
* جان ميترون، بول ديليسال، فوضوى من العصر الذهبى.
* جان تولار، جوزيف فيفيه، المستشار السرى لنابليون.
* جاك جودشوه، الكونت دانتريج، جاسوس فى المهجر الأوروبى.

مقدمة

أصبح اسم مير ـ سيد سلطان غالييف فى الاتحاد السوفياتى مرادفا للقب كبير الخونة، أو البورجوازى المناهض للثورة، أو عميل الامبريالية، بعد نجاحه من خلال مناورات ماكيافيللية فى دخول الحزب الشيوعى البلشفيكى حيث أرسى قواعد حركة منشقة تحمل اسمه: «الحركة الغالييفية» («سلطان غالييفشينا»). غير أن هذا الرجل الذى اتهمه القادة السوفيات منذ أكثر من نصف قرن بأنه مثال «للمسلم التروتسكوى»، يكتنفه الكثير من الغموض، فلا أحد يعرف شيئا عن حياته الخاصة، بل إننا نجهل حتى اسم والديه، أو ما اذا كان قد تزوج من عدمه، وهل أنجب أطفالا أم لا، وماذا كانت ميوله ... كما أننا لا نعرف شيئا عن تاريخ وفاته أو الظروف التى أحاطت بذلك. هل لقى حتفه رميا بالرصاص فى غياهب أحد السجون، أم قضى نحبه من جراء سوء الأحوال بأحد معسكرات الإبادة فى متاهات شمال سيبيريا ؟ لا أحد يعلم على وجه التحديد.

ومع كونه من أوائل الذين تصدوا لمعارضة ستالين علانية ووضع نظريات جريئة وتنبؤية تحظى باهتمام متزايد فى الوقت الحالى داخل بلدان العالم الثالث قاطبة، إلا أن سلطان غالييف لا يزال فى الواقع «مجهولا فى ذاكرة التاريخ». ومن ثم، فإن هذه الدراسة لسيرته الذاتية تفتقر الى الكمال بدرجة كبيرة، ولن يتسنى سد هذه الثغرات العديدة إلا إذا جاء ذلك اليوم الذى تفتح فيه أجهزة المخابرات السوفياتية وثائقها لتكون تحت تصرف الباحثين، وهو يوم جد بعيد ولا ريب.

وليس بوسعنا فى الوقت الراهن أن نصور حياة تلك الشخصية ومعتقداتها فيما يتعلق بالدور التاريخى الحتمى إلا من «الظاهر»، وإلى حد ما على غرار مؤرخى العصر القديم قبل شامبوليون الذين طالبوا بإعادة كتابة تاريخ مصر الفرعونية استنادا إلى نصوص التوراة وكتابات هيرودوت دون سواها.

الفصل الأول
المجتمع التترى عشية الثورة

الفصل الأول
المجتمع التترى عشية الثورة

سلطان غاليـيف ... تلك الشخصية متعددة الأبعاد. كان مسلما ولا ريب، داعياً الى القومية، ثورياً، ماركسياً بلشفيا، ثائرا على الامبريالية الروسية والبيروقراطية السوفياتية، تنبأ بانتفاضة البلدان المستعمَرة للثأر من الغرب، غير أنه كان تترياً في المقام الأول. عاش حياته بين كازان وموسكو. إلا أنه حتى يتسنى لنا فهم هذه الشخصية، علينا أن نضعه فى إطاره الوطنى.

لنلق الضوء إذن على الأوضاع السائدة فى ذلك المجتمع التترى فى مطلع القرن العشرين. هم طائفة من المسلمين تعرضوا للغزو والاستعمار على يد الروس منذ عام ١٥٥٢، وكانوا أول من بادر، قبل سائر بلدان العالم الإسلامى بنصف قرن، إلى وضع نظريات سياسية تنبىء بانتقام العالم الثالث من مستعمريه.

وُلد مير سيد سلطان غاليـيف عام ١٨٨٠ على وجه التقريب فى إحدى القرى التترية الصغيرة النائية التى تقع وسط ملتقى قمم جبال أورال، فى الإقليم الذى يعرف حالياً باسم جمهورية بشكير. بلدة غريبة يقطنها رجال غرباء الأطوار هى تلك المستعمرة القديمة حيث تجاور المستعمِرون المسيحيون جنباً إلى جنب مع المستعمَرين المسلمين منذ أكثر من ثلاثة قرون دون أى تجانس فيما بينهم، يتجاهل كل طرف الآخر فى احتقار متبادل وكراهية واسعة وإن كانت مكظومة، تغذيها تراكمات من العنف والمجازر والقمع على مدى أجيال بأكملها. ولنقل إنها الأندلس ولم يتخل عنها المغاربة، أو الجزائر وقد تعرضت للغزو فى القرن السادس عشر ووُضعت تحت الإدارة الفرنسية منذ عهد فرانسوا الأول ...

والواقع أن الجيوش الموسكوية التابعة للقيصر إيفان الرهيب قد قامت عام ١٥٥٢، الذى شهد فى كافة أرجاء أوروبا الوسطى وآسيا وأفريقيا السوداء اندحار «الكفرة» فى مواجهة تيار الفتح الإسلامى، باقتحام قازان، ذلك المنافس العتيد لموسكو منذ أكثر من قرن ونصف القرن والذى قُدرت له الغلبة فى كثير من الأحيان، عاصمة خان التتر، ووريث عشيرة الذهب. وكان

هذا السقوط إيذاناً ببدء التوسع الروسى فى آسيا. ومنذ ذلك الحين، شرع الروس، تحركهم النزعة الانتقامية من سادتهم القدماء، فى السيطرة على الأتراك المسلمين. كانت قازان مدينة زاهرة ومركزاً ثقافياً على جانب من الأهمية. إلا أن التراث الذى تجمع هناك عبر القرون اندثر بالكامل؛ ولم يقتصر ذلك على الثروة المادية فحسب، بل امتد ليشمل جانباً كبيراً من التراث الروحى. فقد اختفت الثروات ومعها الرجال بعد أن أبادتهم المجازر.

واستتبع الغزو احتلال منظم. فباستثناء أولئك الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية فى جيوش القيصر والذين كان بوسعهم الإقامة فى «الضاحية التترية» بقازان [Tatarskaia sloboda]، تم ترحيل المسلمين من المدينة وحُظر عليهم الإقامة على بعد ثلاثين فرستا[*] حول العاصمة القديمة. أما الأراضى المميزة - الواقعة فى وديان الأنهار، على طول الطرق الرئيسية للمواصلات وحول المدن - فقد صودرت من الإقطاعيين ومن الفلاحين التتر ثم أعيد توزيعها على ملاك الأراضى من النبلاء الروس، وعلى دور العبادة العديدة وأبرشية قازان التى أنشئت عام ١٥٥٥ وكانت تمتلك وحدها أكثر من أربعمائة قرية.

وفى أعقاب هذه الموجة الأولى التى استمرت طوال القرن السابع عشر تتابع الفلاحون الروس، واستقروا فى الأراضى الأكثر خصوبة، لا سيما فى وديان الفولجا والكاما. وأخيراً، وحتى يتسنى الحفاظ على النظام الداخلى وصد هجمات خانات كريميه، الذين ادعوا حق السيادة على قازان، فضلا عن التصدى لغارات البدو فى الفيافى - النوغاى أو الكازاخستانيين - تمت تغطية بلاد التتر بشبكة من القلاع التى أعدت لإقامة التجار وأرباب الحرف الذين اقتيدوا عنوة من المدن التى رفعت راية العصيان على السلطة فى موسكو. وبفضل هذه الجهود المبذولة منذ نهاية القرن السادس عشر، أى فى أقل من نصف قرن، تميز الإقليم بالتنوع السكانى حيث لم تتجاوز نسبة المواطنين المسلمين أو الوثنيين نصف هذا العدد. واستؤنف الاستعمار الروسى، الذى توقف خلال ما يعرف باسم «حقبة الاضطرابات» فى مستهل القرن السابع عشر، فى عهد الرعيل الأول من أسرة رومانوف، بل ونشطت هذه الحركة فى النصف الأول من القرن الثامن عشر، فى عهد الملك بيير الأول. واستقر المهاجرون الجدد فى الأراضى التى هجرها الفلاحون التتر الأحرار الذين فروا جماعات فى اتجاه الأورال وسيبيريا وتركستان والقوقاز.

(*) مقياس روسى للطول يساوى ١٠٦٧ متراً (المترجمة).

وفى نهاية القرن الثامن عشر، كانت الغالبية العظمى من سكان الأراضى التترية من الروس. وعندما ولد سلطان غاليـيف عام ١٨٨٠، لم يكن السكان الأصليون من المسلمين يشكلون سوى أقلية قوامها نحو ٤٠٪ من السكان.

وكان لهذا الوضع الديموغرافى أثره الحاسم على مصير التتر. ففى منتصف القرن التاسع عشر، كان أكثر من نصف هذا الشعب يعيش خارج إقليم قازان. وفضلاً عن ذلك، فإن النزعة القومية التترية كانت لتسعى دوماً إلى تجاوز الإطار الضيق لفولجا الوسطى، الوطن الأم. فهذه النزعة قد اتسمت دائما بطابع «الجامعة الإسلامية» أو «الجامعة التركية»، مع إيلاء الاهتمام بدرجة أكبر لشعوب روسيا من المسلمين والأتراك على وجه الإجمال، بل وحتى مجموع الأتراك فى أنحاء العالم، من البلقان إلى الصين، لا مجرد الأمة التترية بالمعنى الضيق للكلمة.

ولم يكن إيفان الرهيب والرعيل الأول من أسرة رومانوف ينتهجون «سياسة وطنية» محددة، فضلا عن عدم اهتمامهم بإقامة الصلات اللائقة مع الشعوب المحتلة. وبعد إدماج الخان التترى مع المملكة الموسكوية، أضاف قيصر موسكو إلى ذلك اللقب لقب «قيصر قازان»، ثم أعقبه بعد ذلك بوقت قصير بلقب «قيصر أستراخان» عام ١٥٥٦، ولقب «قيصر سيبيريا» عام ١٥٨٥. وكان السكان الخاضعون يعاملون معاملة الرعايا الروس فى الواقع، ولكن من الدرجة الثانية، إذ لم تكن لهم نفس الحقوق التى يتمتع بها المسيحيون. وفيما يتعلق بالمبادىء المنظمة للسياسة الروسية تجاه المسلمين، فكانت مبادىء محددة بدقة.

كان على النبلاء المسلمين الاختيار: إما التعاون، مع اعتناق المسيحية أو بغير ذلك، وإما الهلاك، أو التصفية الجسدية، أو الهجرة الجماعية. غير أن أقرب البلدان الإسلامية كانت جد بعيدة ... فبخلاف المغاربة بالأندلس الذين لم يكن عليهم سوى عبور مضيق جبل طارق، كان قدر التتر، كما حدث للفرنسيين فى كندا، هو البقاء والاستمرار.

إلا أن الدين الإسلامى واجه حملة شرسة، حيث دُمرت المساجد، وطُرد الملات خارج المدن؛ وكان الخطر الذى يتهدد الإسلام هو أن يتحول إلى دين للفلاحين.

كما خضعت جموع المسلمين ذاتها لعملية دمج دينى لا وطنى. إلا أنه بدءاً من عام ١٩٥٥، تم انتهاج سياسة تحولات نشطة وفريدة من نوعها. وتمتع المعتنقون المحدثون للمسيحية بنفس مركز باقى رعايا القيصر المسيحيين، دون أن يتحولوا الى روس: فقد احتفظوا بهويتهم التترية واستخدامهم للغتهم الخاصة. كما تُرجمت الطقوس الأرثوذكسية إلى اللغة

التترية لأغراض الاستخدام. وأثارت السياسة الروسية ـ التى كانت تسعى إلى حل هذه المشكلة الوطنية الأولى التى اعترضت طريقها ـ ردود فعل متباينة بين المسلمين.

وقد قبلت أسر تترية من النبلاء عملية الاندماج. وبلغ عدد هذه الأسر حداً أمكن معه تقدير نسبة النبلاء الموسكويين من أصل تترى بنحو الثلث، كما تنم عن ذلك أسماء مثل تورغينييف، وأكساكوف، وكارامزان، ويوسوبوف، غودونوف، وسوفوروف، وفيلياميناوف (من والى أمين) الخ. إلا أن البعض الآخر، إزاء ما تعرضوا له من إبادة وحرمان من الحقوق، رفضوا أن يصبحوا روساً بدافع الثأر لأنفسهم. ومنذ نهاية القرن السادس عشر، بدأ تحول طبقة النبلاء التتر من ملاك الأراضى إلى طبقة جديدة هى «النبلاء التجار»، وهى التى تحولت فى القرن التالى إلى طبقة البورجوازية التجارية. ونشأ عن سكان الحضر والريف التتر، المطرودين من مدنهم ومن وديان الأنهار الخصيبة، شتات يضم عدة تجمعات انتشر فى جميع أنحاء آسيا، لا سيما فى الأورال، وفى فيافى كازاخستان وتركستان. وفضلا عن ذلك، فقد أثارت حالات اعتناق المسيحية، وكانت عديدة للغاية، شعورا قوياً بالحقد والكراهية لروسيا والروس لدى أولئك الذين استمروا على عقيدتهم الإسلامية. أما «رجال الدين» المسلمون، أو الملات الذين أجبروا على مغادرة المدن، فقد اندمجوا فى الأوساط الريفية، وتوطدت أواصرهم داخل تجمعات الفلاحين ومستعمرات التجار.

وطوال القرن السابع عشر، ازدادت سياسة التنصير المتبعة حدة، حيث وُضعت الأجهزة الإدارية والشرطية التابعة للامبراطورية الروسية منذ ذلك الوقت تحت تصرف السلطات الكنسية المكلفة بتحويل المسلمين عن دينهم. وتُعتبر فترة حكم الامبراطورة آنا، منذ عام ١٧٣٨ وحتى عام ١٧٥٥، من أكثر العهود فظاعة بالنسبة للمسلمين. فقد أغلقت جميع المساجد التترية الواقعة فى فولجا الوسطى، كما تم تحويل ممتلكات الأوقاف (الأموال المرصودة التى تخصص عائداتها للأعمال الخيرية ولأغراض التعليم) إلى ممتلكات مدنية ونُقلت إلى الدولة. ولأول مرة فى تاريخ العالم الإسلامى، انهارت دعائم رجال الدين حتى شُلت أيديهم. وهنا ظهر تطور غريب. فبعد انتفاء دور الملات التتر كعناصر محافظة، أصبحوا مهيئين لتزعم الحركات الإصلاحية المختلفة. وهكذا ظهر هؤلاء فى مستهل القرن العشرين فى جميع التجمعات الثورية، بل وحتى وسط البلاشفة.

إلا أن حملة الإدماج التى كانت تستهدف إيجاد حل دائم لمشكلة المسلمين فى روسيا كان

لها تأثير مغاير تماماً. فقدأثارت هذه الحملة سلسلة من الثورات بين التتر والبشكيريين، تجمعت رغم كثرة عددها لتلتقى فى تمرد بوجاتشيف الدموى الذى اجتاح أرجاء الفولجا فى عهد الامبراطورة كاترين الثانية.

وكانت حقبة الاضطهاد أحد الآثار الثانوية الأخرى. إذ اختلط مفهوم الإسلام لدى تتر الفولجا فى القرن الثامن عشر مع فكرة قوميتهم الخاصة أو ما يسمى بالملة. وأصبح الذود عن العقيدة مرادفاً لبقاء وحدتهم الوطنية، وظل الحال على ذلك حتى نشوب ثورة عام ١٩١٧.

وحققت التوسعات الروسية فى عهد الامبراطورة كاترين الثانية أعلى معدلات لها فى البقاع الإسلامية. إذ وصل الروس إلى فيافى البحر الأسود، من دنييستر إلى كوبان، واستقروا بها. كما دُمِّر خان كريميه عام١٧٨٣ وضُمَّت أراضيه إلى الامبراطورية، كما أخذت الجيوش الروسية تتغلغل فى جبال القوقاز للمرة الأولى.غير أن الامبراطورة كاترين الكبرى كانت تنظر إلى الإسلام بعين الاحترام، حيثُ اعتبرته «ديناً حكيماً»، يفوق المسيحية الأرثوذكسية فى قدرته على «الارتقاء» بآسيا. فقد كانت تميل إلى رعاياها التتر - والبون شاسع بينهم وبين رعاياها الروس - لما يتمتعون به من دأب فى العمل. وقناعة، وفطنة، وقدرة على المبادرة. وإزاء ما اتسمت به هذه الطائفة من أهمية، فقد كانت الأولى، بل الوحيدة، بين الحكام الروس من حيث انتهاج سياسة إسلامية حقيقية. كما دأبت، خلافاً لأسلافها، على كسب ود رعاياها المسلمين فى الأقاليم التترية بالفولجا. فقد أوقفت عمليات التنصير القسرية تماماً، وأغلقت المدارس الخاصة بأبناء المرتدين، كما صارت حرية العبادة مكفولة لجميع المسلمين من أبناء الامبراطورية. بل وسُمح للتتر بتشييد المساجد ومدارس تحفيظ القرآن فى مدينة قازان وغيرها من مدن روسيا الشرقية.

وفى عام ١٧٨٢، قامت الامبراطورة كاترين الثانية بإنشاء المجلس الروحى الإسلامى فى أورنبورج، والذى انتقل فى وقت لاحق إلى أوفا. وكانت جميع المستعمرات الإسلامية التترية والبشكيرية فى روسيا الأوروبية وسيبيريا تخضع لاختصاص المفتى، وهو رئيس هذه الجمعية المعينة من قبل وزير الداخلية، باستثناء إقليم خان كريميه القديم وفيافى كازاخستان. إلا أن إنشاء إدارة مركزية جاء ليضع نهاية للسلطة الروحية التى كان يمارسها السلطان - خليفة اسطنبول على المسلمين من أبناء الامبراطورية الروسية. وكان ذلك إيذاناً ببدء النهضة الدينية والفكرية لتتر الفولجا، فضلاً عما أتاحه ذلك لحكومة سان بطر سبورج من أداة فعالة للسيطرة

على حياة رعاياها المسلمين. وكان لتلك السياسة نتائجها البارزة فيما يتعلق بطبقة التجار التتر. فقد حذت الامبراطورة حذو سلفها الامبراطور بيير الأكبر من حيث تقدير أهمية العامل الاقتصادى، فبادرت إلى رفع جميع القيود المفروضة على التجارة. ومن ثم، فقد أصبح بوسع تتر الفولجا مزاولة التجارة فى بشكيريا وسيبيريا وفيافى كازاخستان بحرية تامة. كما شهد الشتات التترى فى عهدها ازدهاراً اقتصادياً غير مسبوق، وظهر التتر، الخاضعون للسلطات الروسية، فى آسيا الوسطى باعتبارهم الوسطاء، أو بالأحرى من يعزى إليهم فضل «إدخال» الرأسمالية الروسية الناشئة إلى تركستان وسينكيانج، تلك الأقاليم الإسلامية التى كانت لا تزال تتمتع بالاستقلال. غير أن التجار التتر كانوا يتصرفون كمبشرين بالإسلام حيثما حلوا. فقد قاموا، من خلال المساعدات المقدمة من الدولة الروسية وبالاستعانة بأموالها، ببناء المساجد ومدارس تحفيظ القرآن. وعلى ذلك، فقد أصبح تتر الفولجا فى عهد الامبراطورة كاترين الثانية، بزعامة طبقة التجار والملات منهم، هم رواد الإسلام فى روسيا دون منازع، حيث اتخذ منذ ذلك العهد شكل ما أصبح يعرف بالقطع، بعد انقضاء قرن، باسم «الملة»، أى الأمة الإسلامية التركية ـ التترية.

وقد استمرت فترة ازدهار التعاون بين الدولة الروسية والبورجوازية التترية على هذا النحو من القوة قرابة قرن، حتى حوالى عام ١٨٧٦، عندما أكملت الجيوش الروسية غزو تركستان، التى كانت محظورة فيما مضى على «الكفرة» وحكراً خاصاً للتجار التتر.

وترتب على غزو آسيا الوسطى وانفتاح ذلك الإقليم الشاسع أمام الرأسمالية الروسية تغيير جذرى فى العلاقات بين الروس والمسلمين. إذ لم تعد الرأسمالية الروسية بحاجة إلى وسطاء من التتر فى تركستان بعد أن عاد إليها السلام. وأصبحت الطبقتان البورجوازيتان، الروسية والتترية، بعد أن كانت حليفتين وشريكتين فيما مضى، فى وضع خصمين متنافسين بل وظهرت الطبقة الثانية، وهى الأضعف، وقد اتجهت إليها أصابع الاتهام إن آجلاً أو عاجلاً كما أخذ التهديد الاقتصادى يزداد خطورة إلى الحد الذى استوجب تقديم المساعدات آنذاك فى داخل بلاد التتر ذاتها، امتداداً لسياسة الدمج الدينى والثقافى التى بدت أكثر مرونة وفعالية من ذى قبل، إلى السكان الأصليين الذين جرى استقطابهم إلى المسيحية من خلال جرعة دعائية وتعليمية مكثفة. وكانت السياسة الجديدة تستهدف خلق طبقة من المثقفين يدينون بالديانة الأرثوذكسية مع الانتماء إلى الثقافة التترية. إلا أن أولئك الذين ظلوا على اعتناقهم للإسلام

من التتر كانوا على وعى تام بالمخاطر التى تنطوى عليها عملية الدمج الدينى. وهكذا فقد جند الصفوة من هؤلاء أنفسهم فى مواجهة روسيا لدرء خطر الدمج الجاثم على المجتمع التترى بأبعاده الثلاثة: لغوياً واقتصادياً ودينياً، كما دعوا إلى تنظيم حركة إصلاحية كبرى تحت رعاية البورجوازية التجارية.

كان للمجتمع التترى خصائصه المميزة فى نهاية القرن التاسع عشر، تلك السمات التى جعلت منه حالة فريدة فى العالم الإسلامى. أول هذه الخصائص أنه كان الوحيد بين الشعوب الإسلامية من حيث العيش فى الشتات. إذ عاش أكثر من نصف هذا الشعب خارج مسقط رأسه فى فولجا الوسطى. كما وُجدت مستعمرات تترية فى فيافى كازاخستان، وفى تركستان، وسيبيريا، ومنشوريا، والقوقاز، بل وكذلك فى أوكرانيا، وفى عموم أوروبا الوسطى والغربية، بل وحتى فى أمريكا، حيث احتكر التتر تجارة الفراء فى نيويورك فى بداية القرن العشرين. وقد استند هذا الطابع المميز لذلك «الشعب المهاجر»، كما هو الحال بالنسبة للأرمن واليونانيين وأبناء الطائفة الاسماعيلية، إلى دينامية فريدة من نوعها، وهو ما يمكن أن يفسر ميلهم إلى «الجامعة الإسلامية». كما أدرك التتر أنه حتى يمكنهم مواجهة الضغوط الاقتصادية والثقافية من جانب الروس، تلزمهم مؤازرة جميع شعوب الامبراطورية من الأتراك والمسلمين، وأن بقاءهم رهن بفرض هيمنتهم الاقتصادية والثقافية على عموم شعوب روسيا الإسلامية، وحمل لواء الإسلام فى روسيا، مع الإفادة من وشائج اللغة والوحدة الدينية من أجل نشر الأفكار الموالية للجامعتين التركية والإسلامية على نطاق واسع. وهكذا اكتسب التجار التتر بعد استقرارهم بين الكازاخستانيين أو البشكيريين صفتهم المزدوجة كمعلمين وملات. وبينما تغلغل التتر فى الأورال، وفى فيافى كازاخستان، وسيبيريا، ووسط الشعوب الفلندية فى الفولجا، فإنهم لم يحملوا فى الوقت ذاته إلى الشعوب الداعية أو شبه الداعية للثورة، مجرد منتجاتهم فحسب بل الديانة والحضارة الإسلامية كذلك. ولعله من المفارقات الغريبة أن امتداد الإدارة الروسية تجاه الشرق والجنوب الشرقى لم يصحبه ترويس هذه المناطق، وانما أدى إلى اكتساب الشعوب الدخيلة للطابعين الإسلامى و «التترى».

وثمة خاصية ثانية ميزت تتر الفولجا. فقد نجحت طبقة البورجوازية منذ القرن التاسع عشر فى تجاوز حدود الطبقة الأرستقراطية المالكة لأرض لكى تصبح هى الطبقة الحاكمة للأمة، طبقة مزدهرة، ديناميكية وعدوانية، مهيأة تماماً للتصدى للخصم الروسى المنافس، وذات عقلية

متفتحة تماماً لاستيعاب الأفكار والبرامج السياسية والأساليب الواردة من الخارج. ومن ثم فإن «النهضة التترية» التى شهدناها أواخر القرن التاسع عشر كانت نتاجاً للبورجوازية. وقد اتسمت هذه النهضة فى البداية بطابع اقتصادى إزاء ما تميزت به من البحث عن أسواق جديدة، واستحداث مناهج تجارية حديثة، وزيادة الاهتمام بالصناعة. كانت حقبة حافلة بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية، أو لعلها فترة تحول. فقد كان تتر كازان هم أول من بادروا فى العالم الإسلامى إلى الانضمام لركب الرأسمالية منذ القرن التاسع عشر. وكان المنطق يقضى بأن يستتبع إحلال طبقة البورجوازية الرأسمالية محل الإقطاعيين ملاك الأرض باعتبارها الطبقة الحاكمة، «تحرير»، الأيديولوجية الدينية القديمة. إلا أن سيطرة البورجوازية التترية واكبتها نهضة شهدها الإسلام فى أكثر صوره نزوعاً إلى التقليدية والمحافظة.

وثمة أسباب عديدة تُعزى إليها تلك الظاهرة التى شهدتها بلدان أخرى مستعَمرة. إذ ليس من المستغرب، إزاء الشعور بالكراهية تجاه كل ما هو روسى، والذكريات الأليمة لعمليات الاضطهاد الدينى فى بداية القرن الثامن عشر، ورد الفعل الدفاعى الطبيعى فى مواجهة سيل الأفكار المسيحية والليبرالية، أن نشهد تلك العودة إلى نزعة المحافظة الدينية، وهو ما يمكن تفسيره كذلك على ضوء اتجاهات التجارة التترية. والواقع أنه، فى الوقت الذى أصدرت فيه الامبراطورة كاترين الثانية أوامرها بنشر المرسوم الذى يقضى بالحرية الدينية كانت المنشآت المدرسية القليلة فى قازان تشهد حالة من التأخر التام، كما اعتادت الطبقات التترية ميسورة الحال إيفاد أبنائها لاستكمال دراساتهم بمدارس بخارى، ذلك المركز التعليمى الإسلامى الشهير، وإن كان قد نزل من عليائه ليصبح، خلال القرن التاسع عشر، ملاذاً للإسلام بعد أن اعتراه الوهن والجمود والتمسك بالشكليات. وهكذا لم يعد بوسع التجار التتر أن يطمحوا إلى الحفاظ على نفوذهم، لاسيما فى آسيا الوسطى، إلا إذا ما توافرت لهم حضارة ترقى إلى نفس مستوى الحضارة السائدة هناك، مع الإحاطة بلغة وعادات أهل كازاخستان وأوزبكستان وطاجيكستان. إذ كان من غير المنطقى أن يعمد رجال التجارة أو الصناعة التتر الذين يصدرون إلى آسيا الوسطى الأزياء الإسلامية، بالإضافة إلى مئات الآلاف من نسخ القرآن الكريم، وكتب الصلاة، والكتيبات الدراسية الخاصة بالمدارس، ودواوين الشعر الصوفى، إلى تشجيع مذاهب وعادات فى داخل قازان تخالف ما يدين به عملاؤهم.

تعاظم النفوذ الروحى والثقافى لآسيا الوسطى على قازان طوال القرن التاسع عشر؛

واتضح ذلك من استحداث الأزياء ذات الطراز التركستانى، وارتداء السيدات للحجاب، مع قرار الزوجات فى بيوتهن، والالتزام الصارم بأداء الشعائر الدينية. أما فى حقل التعليم، فقدأدى ذلك النفوذ إلى فتح عدد كبير من المدارس الإسلامية ذات الطابع الأكثر نزوعاً إلى المحافظة، وهى الكتاتيب المستوحاة من النموذج البخارى، وكان القائمون بالتدريس فى هذه المدارس غالباً من التركستانيين الذين يقدمون خدماتهم التعليمية بصورة تقليدية تجمدت عند القرون الوسطى، فعجزت عن مواكبة احتياجات الطبقة البورجوازية الناشئة.

وكان للنزعة الشرقية المحافظة أثرها الدائم على التتر الذين ظلوا، حتى اندلاع الثورة، متمسكين بالإسلام فى أكثر صوره نزوعاً إلى التقليدية. فرغم الانتصار الذى أحرزته الحركة الإصلاحية فى نهاية القرن التاسع عشر، إلا أن دعاة التحديث الأكثر إقداماً بل وحتى الثوريين منهم ظلوا دائما مسلمين مؤمنين وملتزمين بأداء واجباتهم الدينية. وربما كان هؤلاء، بعد عام ١٩١٧ وإلى اليوم، من أكثر شعوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تمسكاً بالدين.

أما السمة الأخيرة للتتر فهى أنهم: «شعب مَنْسِىّ»؛ أغفلته الإدارة الروسية: فلم تشر اليه من قريب أو بعيد منذ ثوراته العظمى خلال القرن الثامن عشر. غير أن التجاهل قد جاءهم على وجه الخصوص من سائر العالم الإسلامى. وحتى يتسنى لنا فهم هذه المفارقة، ينبغى الإشارة إلى المفهوم القانونى الإسلامى القديم المعروف باسم «دار الحرب»: ومؤداه أنه عند سقوط إقليم ما تحت سيطرة «الكفرة»، يتعين على المسلمين القاطنين فيه مغادرته على الفور للاعتصام بأحد الأقاليم المكونة لما يعرف بدار الإسلام. وهكذا كان الحال مع مغاربة الأندلس الذين لجأوا إلى شمال أفريقيا. أما التتر فإنهم قد لبثوا فى أماكنهم لم يبرحوها، إما لبعد المسافات، أو لجهل مجتمعات الفلاحين بأحكام الشريعة. ولم يعد المجتمع الإسلامى يلقى بالاً لمصير هؤلاء. بل إن مشكلة بقائهم أصبحت، منذ عام ١٥٥٢، مسألة تنحصر مسؤولية تسويتها بينهم وبين سادتهم الروس.

شهدت الامبراطورية الروسية، فى عهد القيصر رائد الإصلاح ومحرر العبيد ألكسندر الثانى (١٨٥٥ ـ ١٨٨١)، تحولاً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً عميقاً قادها أخيراً إلى أعتاب القرن التاسع عشر الغربى. وأعقبت امبراطورية نيقولاس الأول (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) ذات الطابع البيروقراطى والعسكرى والأرستقراطى، والتى كان لا يزال يحكمها الألمان من بلاد البلطيق ـ وكانوا تابعين مخلصين للقيصر رغم عدم مبالاتهم بالشعب الروسى فضلاً عن كونهم

من الأرثوذكس المتعصبين ـ امبراطورية بيروقراطية بنفس الدرجة، وإن كان حكامها من الروس، قُدر للبورجوازية الرأسمالية الناشئة أن تلعب فيها دوراً متزايد الأهمية. ولم تأخذ تلك الملكية المطلقة ذات الحق الإلهى، من وجهة النظر الأوروبية، طريقها إلى التطور فى اتجاه ليبرالى قط، لا سيما منذ تولى الامبراطور الكسندر الثالث عام ١٨٨١، ولكن الاختلاف كان واضحاً بصورة جلية أمام الشعوب الدخيلة على الامبراطورية، بين روسيا العسكريين والموظفين فى عصر نيقولاس الأول، وروسيا الرأسماليين وأرباب الصناعة فى عهد ألكسندر الثالث. إلا أن التغيير لم يكن فى صالحهم، فقد أضيف إلى عنصر الولاء تجاه الحاكم، أحد الأسس الجوهرية التى قامت عليها الامبراطورية، عامل كان مجهولاً فيما مضى: وهو النزعة القومية الروسية، بقاعدتها المزدوجة: العرقية («الشعب الروسى»)، والدينية («العقيدة الأرثوذكسية»). ومنذ ذلك الحين، أصبح غير السلاف أو غير الأرثوذكس، ـ من البولونيين أو الليتوانيين الكاثوليك، والبلطيق اللوثريين، واليهود، والمسلمين بصفة خاصة ـ ليسوا مواطنين يُشتبه فى أمرهم فحسب، وإنما رعايا من الدرجة الثانية. ومن ثم، فقد أدرك الحكام الجدد أن سياسة الدمج هى أحد الشروط الجوهرية لترابط الامبراطورية وقدرتها على البقاء.

وكانت المحاولة المنظمة الأخيرة لدمج الدخلاء المسلمين فى عهد ألكسندر الثانى، زهاء عام ١٨٦٠، عندما عادت السلطات إلى انتهاج سياسة التنصير التى أحجمت عنها كاترين الثانية، ولكن باستخدام أساليب أكثر مرونة وفعالية من خلال السعى إلى اجتذاب التتر وغيرهم من الدخلاء ـ من المسلمين أو الدعاة ـ لاعتناق المسيحية بالوسائل التعليمية والدعائية. وقام نيقولاس إيلمينسكى، المستشرق الشهير والأستاذ بأكاديمية قازان للعلوم الدينية، باستحداث سياسة دراسية جديدة، حيث أسس عام ١٨٠٣ دار المعلمين المركزية للتتر المرتدين فى قازان Tsentralnaïa Krechtcheno-Tatarskaïa outchitelskaïa chkola وأعقبها مباشرة إنشاء عدة مدارس أخرى تترية وفنلندية وتشوفاشية. وكان التدريس يتم فى هذه المدارس باللغات القومية الى وضع لها إيلمينسكى أبجديات تستند إلى أشكال الخط السيريلى(*). وقد استهدف نظام إيلمينسكى، الذى اعتُمد رسمياً بصدور «لائحة تعليم المسيحيين الأجانب» عام ١٨٧٠، تحقيق غرض مزدوج. من جهة، تكوين طبقة من الإنتلجنتسيا الأهلية المثقفة على الطراز الأوروبى وإن كان تتألف من المرتدين وحدهم، إذ كان المحرك الأول لهذه الطبقة يرى أنه «ليس ثمة من هو أكثر خطورة على روسيا من مسلم مثقف».

(*) سيريلى (ذو علاقة بأبجدية سلافية قديمة يقال إن مخترعها القديس سيريل) (المترجمة).

وكان على تلك الإنتلجنتسيا الأهلية - رغم اعتناقها للمسيحية - الاضطلاع بالعمل التبشيرى تجاه إخوانهم الذين ظلوا على دين الإسلام. كما اقتضى الأمر كذلك استحداث لغات أدبية لاستخدامات الشعوب الإسلامية أو شبه الإسلامية الأخرى (وكان إيلمينسكى يقصد الكازاخستانيين بصفة خاصة)، تستند إلى أشكال الخط السيريلى، بغية انتزاعهم من قبضة النفوذ الثقافى للتتر وإبعادهم عن التقاليد الإسلامية.

وفى الوقت ذاته، عاودت السلطات الأرثوذكسية فى قازان الهجوم على الدين الإسلامى. وعُهد بذلك إلى إدارة الإرساليات بأبرشية قازان، وكانت تتبع السلطتين الكنسية والمدنية فى آنٍ واحد. حيث كُلفت تلك الإدارة بالتصدى للإسلام وتحويل الأجانب عن دينهم، كما هو الحال فى عدة جمعيات، مثل جمعية إخوة القديس جورى فى قازان، المنشأة عام ١٨٦٧، أو جمعية القديس ميشيل الطهور فى أورونبورج، وكانت مهمتها بصفة خاصة تثبيت العقيدة لدى أولئك الذين اعتنقوا الديانة حديثا من خلال نشر النصوص الأرثوذكسية باللغات الوطنية.

وقد أحرزت تلك السياسة نجاحاً باهراً حتى عام ١٩٠٣. فقد تحول زهاء ٢٠٠٠٠٠ تترى إلى الدين المسيحى خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، بينهم ١٣٠٠٠٠ من «حكومة» قازان وحدها. وشكلت عمليات التحول الجماعية هذه خطراً داهماً على وجود المجتمع التترى الإسلامى ذاته، إذ نشأت هوة عميقة، يتعذر تخطيها على ما يبدو، بين التتر المسلمين والمسيحيين، إلى الحد الذى انتهى الأمر معه بأولئك المسيحيين إلى تكوين قومية حقيقية لهم تميزهم عن سائر الشعب التترى.

وعندما تضاءل نشاط الإرساليات الأرثوذكسية بشكل ملحوظ بعد عام ١٩٠٥، أدى ذلك إلى عودة التتر المسيحيين إلى الإسلام. وكان لابد لتلك الظاهرة، التى أشار إليها جميع الكتاب فى فترة ما قبل الثورة بما فيهم السوفيات، أن تنتهى باستيعاب الأمة التترية للطائفة المسيحية بعد عام ١٩٢٦. ومن ثم فإن التعداد السوفياتى للسكان الذى أجرى عام ١٩٣٩ لم يميز بين هؤلاء وسائر التتر. إلا أن سياسة الدمج الدينى والثقافى المنتهجة فى الفترة من عام ١٨٦٠ وحتى عام ١٩٠٥ كان لها أثرها العميق على العلاقات بين الروس والمسلمين. فقد بدا التهديد بالترويس خطراً داهماً يحدق بالأمة التترية ويفوق فى خطورته المنافسة الاقتصادية، مما أثار النخبة المسلمة ضد روسيا. ويعرض غاليمجان إبراجيموف، وهو مؤرخ سوفياتى تترى، عواقب ذلك بإيجاز بقوله: «إن سياسة الحكم المطلق القيصرى قد أدت إلى نتائج تتعارض

تماماً مع ما كان متوقعاً منها على كافة الأصعدة. وبدلاً من أن تنجح تلك السياسة فى دمج التتر، أثارت فى نفوس هؤلاء شعوراً عميقاً بالكراهية تجاه كل ما هو روسى.»

ولم يلبث رد الفعل من جانب البورجوازية التترية، المهددة فى وجودها ذاته، طويلاً حتى بدأ يأخذ طريقه إلى حيز الوجود. إذ ظهرت، منذ شهر أغسطس عام ١٨٨٣، الحركة الإصلاحية الإسلامية التى تحمل اسم «حركة التجديد» ـ وكان ذلك بعد مولد سلطان غالييف بثلاثة أعوام ـ والواقع أنه فى الوقت الذى كان يُحتفل فيه فى روسيا بالذكرى المئوية لفتح خان كريميه، فى الأول من أغسطس عام ١٨٨٣، قام أحد المفكرين التتر الشبان من كريميه، ويُدعى اسماعيل بك جاسبرينسكى، بإصدار العدد الأول من صحيفة (الترجمان) فى باغتشيساراى، العاصمة القديمة للخان. وقد لعب جاسبرينسكى، رغم أن حياته لم تحظ باهتمام حقيقى من جانب معاصريه، روساً كانوا أم غربيين، دوراً تاريخيا عظيم الشأن. فهو لم «ينبه» المجتمع الإسلامى فى روسيا من غفلته بالمعنى الحرفى للكلمة فحسب، بل أعاد الصلات الفكرية والسياسية بين التتر وسائر العالم الإسلامى، وهى الصلات التى انقطعت أواصرها عام ١٥٥٢ بعد سقوط قازان. وقد اختيرت لحظة صدور (الترجمان) بعناية فائقة، غداة الحرب الروسية ـ التركية عامى ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨. وكانت الامبراطورية العثمانية قد شهدت بالفعل حتى ذلك الوقت، ولا ريب، بعض الانتكاسات، إلا أن التقهقر البطىء لجيوشها، والذى بدأ أمام فيينا فى القرن السابع عشر، لم يصل إلى الأراضى الإسلامية فى الامبراطورية. إذ كان الاعتقاد لا يزال سائداً حول المنعة التى تتمتع بها الجيوش الإسلامية والطابع الراسخ المميز للخلافة. إلا أن الروس الظافرين تقدموا، عام ١٨٧٨، حتى بلغوا إرزوروم، فى قلب الأناضول ذاتها، وضربت طلائعهم الخيام فى سان ستيفانو بالقرب من بيشيل ـ كوى الحالية، فى مواجهة أسوار اسطنبول. وذاع صيت العثمانيين المدوى باعتبارهم جيشاً لا يقهر، فى حين انكشف ضعف الإسلام للعيان فى مواجهة الغرب «الكافر».

أثارت مرارة الهزيمة صحوة داخل العالم الإسلامى. فمشاكل الإصلاح تتضاءل أهميتها بالطبع أمام استمرار الجيوش العثمانية فى السيطرة على ميادين القتال. وعلى ذلك فقد أيقن المسلمون، أتراك تركيا وأتراك روسيا، من البسفور وحتى حدود الصين، بعد عام ١٨٧٨، أنه لا أمل فى العالم الإسلامى فى مجموعه دون تحول جذرى فى المجتمع، يواكبه انقلاب شامل فى العقليات. فقد نشر جاسبرينسكى فى أحد الأعداد الأولى من صحيفة (الترجمان) رسماً

كاريكاتورياً ساخراً يمثل مقبرة ضخمة تحمل فيها شواهد القبور أسماء الدول الإسلامية وتاريخ غزوها أو ضمها على يد إحدى القوى الكافرة: بخارى، وداغستان، وشيرفان، والجزائر، وتونس، ومصر، وحيفا، وليبيا، والهند، وجاوة ... وكانت الشواهد الخاصة بالامبراطورية العثمانية وايران، وهى القوى «شبه المستعمَرة»، محجوبة حتى المنتصف؛ ومن قبيل السخرية التاريخية اللاذعة، ظهرت أفغانستان بوصفها أحدث البلدان الإسلامية المستقلة.

كان اسماعيل بك جاسبرينسكى (جاسبرالى باللغة التترية) من النبلاء، تأثر فى رؤيته العالمية(*) Weltanschauung بنشأته الريفية، وتعليمه الدينى بإحدى مدارس تحفيظ القرآن فى كريميه، والتدريب العسكرى الذى تلقاه بإحدى الكليات البحرية فى موسكو، كما تأثر كذلك برحلاته إلى الخارج، فى كل من تركيا وفرنسا: حيث أمضى عامين فى باريس، فأجاد اللغة الفرنسية التى كان يتحدثها بطلاقة. كان من كبار السادة الإقطاعيين المؤيدين للملكية،وأحد رعايا رومانوف المخلصين، ورغم اتجاهاته الليبرالية والمعتدلة فى مجال السياسة، واقتناعه بالحركة التجديدية، إلا أنه كان من المؤمنين الصادقين. كما نظر بعين الاهتمام إلى المشاكل التى أرقت مضجع المسلمين آنذاك ولا تزال مثاراً لقلقهم فى وقتنا الحالى. خاض جاسبرينسكى طوال حياته ككاتب، ومؤرخ، وصحفى، وعالم فى أصول السلالات البشرية، وتربوى، ورجل سياسة فى آن واحد، كفاحاً متقداً من أجل نهضة الإسلام وإحياء الحركة التركية. والواقع أنه هو الذى أسس كريميه، وهى من البلدان التى تتمتع بمناخ قريب من مناخ البحر المتوسط، أو هى «كوت دازور روسيا» التى استعمرها الروس بصورة مكثفة. وقد تضاءل عدد المواطنين المسلمين فيها، منذ نهاية القرن الثامن عشر، حتى صاروا مجرد أقلية ضئيلة معزولة وسط الروس، لا تتجاوز نسبتها ٢٥٪ من العدد الإجمالى للسكان، ولا أمل لها فى البقاء إلا من خلال الارتباط الوثيق بالجماعات التركية الأخرى فى الامبراطورية. وقد بدا جاسبرينسكى، بتنقله مذاهب السلافوفيل إلى الإطار الإسلامى، داعياً مخلصاً إلى الجامعة التركية، يهتم بمسلمى روسيا فى مجموعهم أكثر من اهتمامه بالتتر مواطنى كريميه على وجه الخصوص. فعلى مدى خمسة وعشرين عاما، كان يعرض فى صحيفته (الترجمان) لمذهب يلخص شعار: (وحدة اللغة والفكر والعمل "Dilde, Fikirde, iste bir-lik"، وينادى بوحدة جميع الشعوب التركية فى روسيا تحت ظل الرعاية الروحية لتركيا، تجمعها

(*) رؤية عالمية (نظرة ميتافيزيقية للعالم مرتبطة بمفهوم الحياة، وقد اشتهر بها الفلاسفة الألمان الرومانسيون). (المترجمة).

لغة مشتركة (اللغة التترية المستخدمة فى كريميه بعد إدخال التعديلات الضرورية عليها)، وثقافة إسلامية مجددة من خلال اتصالها بالغرب - عبر النموذج التركى لا الروسى. وقد أدرك جاسبرينسكى استحالة قيام نهضة قومية دونما إصلاح جذرى للنظام التعليمى، لا سيما استحداث نظام صوتى للقراءة وتدريس المواد العلمانية. وتركزت جهوده الأساسية على إنشاء مدارس جديدة، وإعادة تنظيم المنشآت القديمة. وكانت تلك النظريات الخاصة بالجامعة التركية تتفق إلى حد كبير مع تطلعات البورجوازية التجارية فى قازان، حيث قدمت لها الأساس الأيديولوجى الذى تستند إليه فى تصديها للمنافسة الروسية. ومن هنا كان تحمسها لتبنى ذلك البرنامج الذى وضعه لإصلاح النظام التعليمى والذى أحرز نجاحاً تاماً.

وهكذا أصبح هناك فى روسيا، عام ١٩١٦، أكثر من ٥٠٠٠ مدرسة جديدة معدلة، بخلاف المنشآت ذات الطابع التقليدى (القديمة). وكان فى قازان وحدها عشر مدارس ثانوية، بالاضافة إلى أحد عشر كُتّاباً أو مدرسة ابتدائية، وأربع عشرة مدرسة روسية - تترية. واشتهرت بعض المدارس الجديدة مثل المدرسة «الحسينية» فى قازان، و «المحمدية» فى أورونبورج، و«العلية» فى أوفا، و «الرسولية» فى ترويتسك، بما تقدمه من تعليم «علمانى»، باعتبارها من أفضل المنشآت التعليمية فى العالم الإسلامى. وأدت هذه الجهود غير العادية، التى شاركت فيها بفعالية الغالبية العظمى من الطبقة البورجوازية ورجال الدين، إلى الارتقاء بالمستوى الثقافى للشعب التترى بشكل ملحوظ. ففى عام ١٨٩٧، بلغت النسبة المئوية للتتر الملمين بالقراءة والكتابة فى «حكومة» قازان ٢٠,٤٪، فى مقابل ١٨,٣٪ فقط عند الروس. وفضلاً عن ذلك، فقد أصبحت قازان بعد عام ١٩٠٥، ورغم تضاؤل دورها الاقتصادى، عاصمة الفكر الحقيقية للإسلام فى روسيا، لتنافس بذلك اسطنبول والقاهرة وبيروت؛ وامتد إشعاعها الثقافى خارج حدود بلاد التتر ليصل إلى الأقاليم الإسلامية فى الامبراطورية قاطبة.

وسرعان ما تجاوزت حركة الإصلاح التعليمى الإطار الضيق للعملية التعليمية لتحدث أثرها العميق على جميع مناحى الحياة: حيث شملت الدين، والعادات والتقاليد، وتحرير المرأة، والأدب. وعلى الرغم من الموقف العدائى الذى اتخذته السلطات الروسية فى بلاد التتر، والمقاومة الضارية من جانب المحافظين، إلا أن النصر كان حليف التجديد. إذ لم يعد دعاة التمسك بالقديم يمثلون أية قوة سياسية عشية ثورة فبراير ١٩١٧. بيد أن حركة الإصلاح لم تكن سوى الجانب الدفاعى لرد الفعل الإسلامى فى مواجهة الضغوط الروسية. وأدركت

البورجوازية التترية أن لجاحها فى المقاومة يقتضى منها مواجهة «الامبريالية» الروسية بنوع آخر من «الامبريالية». وكان عليها أن تتجاوز حدود بلاد التتر لتبسط نفوذها على جميع الشعوب التركية فى روسيا من خلال الاستحواذ على الأسواق الإسلامية. والواقع أنها لم تكن تملك، فى مواجهة منافسيها الروس، سوى وسيلة واحدة، هى وشائج اللغة ووحدة العقيدة. ولعل هذا هو السبب الذى يعزى إليه اهتمامها البالغ أكثر من أى وقت مضى، بدءاً من عام ١٨٨٠ وما بعده، بنشر أيديولوجية الجامعة التركية بين المسلمين فى روسيا، وتشجيع النهضة الإسلامية الشاملة. ولم يحدث تعارض بين التيارين، الجامعة التركية والجامعة الإسلامية، على نحو ما حدث فى تركيا، نظراً لما يربطهما من صلات وثيقة.

وإلى جانب إصلاح النظام التعليمى، تصدى دعاة التجديد للهجوم على مصدرين آخرين لتخلف الإسلام، وهما المدارس الفلسفية الشهيرة التى انتهجت نهج العصور الوسطى فى التدريس، وكانت تفرض على المؤمنين الطاعة العمياء لسلطة الأكبر سناً، والطابع القديم المهجور للغات الأدبية التركية التى لا يمكن سوى للمثقفين الذين يجيدون اللغتين العربية والفارسية سبر أغوارها. كما سعى الإصلاح الدينى، فى مرحلته الثانية، إلى مقاطعة الحركة التقليدية المحافظة وإلى إكساب الإسلام القدرة على البقاء فى عالم تسيطر عليه التقنية الحديثة. وقد عكف رواد هذا الإصلاح، علماء اللاهوت التتر شهاب الدين مرجانى ١٨١٨-١٨٩٩، وعبد القيوم ناصرى (١٨٢٥ ـ ١٩٠٢)، وموسى جار الله بيجى (١٨٧٥ ـ ١٩٤٩)، على مشكلة التخلف الفكرى للإسلام، وسعوا إلى علاج ذلك بالعودة إلى الليبرالية الفكرية. واستندت جهودهم بصفة رئيسية إلى دحض مذهب اليقينية(*) والنزعة الظلامية،(**) والتنديد بالانقياد الأعمى للسلطات التقليدية. وكانوا من بين المفكرين المسلمين الأوائل الذين نادوا بحق كل مؤمن فى البحث فى القرآن والأحاديث عن إجابة لما يدور فى ذهنه من أسئلة فى المجالات السياسية أو الاجتماعية أو الدينية. كما أثروا تأثيراً بالغاً على تطوير الحركة الوطنية. إذ يعُزى إلى هذه الحركة، غير المعروفة فى الغرب والتى يجهلها المؤرخون المسلمون أنفسهم، الفضل فى أن الحركة العلمية الإسلامية لم تعد تشكل عقبة تعترض طريق التقدم، بل أصبح الطريق ممهداً أمام الإصلاحات فى ميادين أخرى، مثل اللغة والثقافة

(*) يقينية (مذهب فلسفى قائل بأن قوى الإنسان العقلية قادرة على بلوغ الحقيقة اذا اعتمد على هذه القوى بطريقة منهجية) (المترجمة).

(**) ظلامية (نزعة إلى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة (المترجمة).

والتعليم، والتنظيم السياسى فيما بعد.

وجر الإصلاح السياسى وراءه حملات جدلية عنيفة، كما أدى فى بداية القرن العشرين، إلى إحداث انشقاق عميق فى المجتمع الإسلامى، وسرعان ما تحول ذلك الانشقاق، الذى اقتصر فى البداية على الجانب الروحى وحده، إلى صدع سياسى قسّم رجال الدين المسلمين إلى معسكرين معاديين، الجناح الليبرالى من جهة، وهو الجناح التجديدى المحبذ لإجراء إصلاحات والذى ضم فيما بعد تكتلات سياسية تقدمية أو ثورية، والتقليديون القدماء الذين رفعوا راية الجهاد فى منظمات اليمين المحافظة من جهة أخرى.

وكانت المرحلة الثالثة التى تحققت بفضل الإصلاح الدينى محاولة لإحداث تحول جذرى فى الثقافة الإسلامية التقليدية. وقد بدأت بإصلاح اللغات الأدبية المستخدمة من قبل المسلمين فى الامبراطورية الروسية. فحتى منتصف القرن التاسع عشر، كان هؤلاء يستخدمون اللغة العربية والفارسية، إلى جانب لغة معقدة ومصطنعة، هى خليط من التشاغاتاى واللغة التترية لأهل قازان؛ لم يكن يجيدها سوى نخبة من المثقفين. ومن ثم، فإن قوام الإصلاح كان جعل الثقافة فى متناول عامة الشعب عن طريق استحداث لغات أدبية حديثة تستند إلى لهجات حية. فقد ظهرت، حوالى عام ١٨٧٥ وفى وقت متزامن تقريباً، اللغات الأدبية التترية والأذرية والكازاخستانية بفضل جهود كوكبة من علماء اللغة والمهتمين بالأدب، مثل عبد القيوم ناصرى فى بلاد التتر، وحسن ما ليكوف زربادى فى أذربيجان، وإبراى التنصارين وأبى كنعانبييف فى فيافى كازاخستان. وكان الإنجاز الذى تحقق عظيماً، فقد شهدت الأعوام الأولى من القرن العشرين ظهور أدب إسلامى حديث يختلف عن الأدب التقليدى، أطلق عليه اسم «الأزاهير والبلابل»، استُخدم بلا تردد وجاء تلبية لرغبات واحتياجات الإنتلجنتسيا الناشئة الجديدة، التى كانت تناضل من أجل الحرية الدينية، والإصلاحات الاجتماعية، والمساواة مع الروس فى الحقوق وتحرير المرأة المسلمة، ثم الحكم الذاتى أو الاستقلال السياسى اعتباراً من عام ١٩٠٥.

أما المرحلة الرابعة للمذهب للإصلاحى الجديد، وهى أقلها حظاً من حيث النجاح، فقد كانت محاولة لإصلاح السياسى. إذ نشأت النزعة القومية السياسية، فى روسيا كما فى غيرها من بلدان العالم الإسلامى، عن الرغبة فى استرداد السلطة المفقودة، وتحقيق المساواة مع الأوروبيين فى الحقوق الفردية، تمهيدا للحصول على الحكم الذاتى أو الاستقلال فى نهاية المطاف.

وكانت الأمة الإسلامية فى روسيا تستند إلى أساس مزدوج: دينى عرقى ـ وإسلامى تركى. وخلافاً للأوضاع السائدة آنذاك فى تركيا والبلدان العربية، لم يكن ثمة صراع قائم بين الجانبين الدينى والقومى. فقد ضمت «الأمة الإسلامية» جميع الأتراك المسلمين جنباً إلى جنب مع المسلمين غير الأتراك، وإن كان تأثرهم عميقاً بالثقافة واللغات التركية، مثل أهل طاجيكستان فى آسيا الوسطى، أو الداغستانيين فى شمال القوقاز. إلا أنه قد استُثنى من ذلك الأتراك غير المسلمين، مثل التشوفاشيين أو الياقوتيين.

كانت البورجوازية التترية فى الفولجا هى أول من بادر إلى إنشاء حركة سياسية؛ غير أن التتر قد اهتموا، من منطلق سعيهم إلى توحيد المجتمع الإسلامى داخل امبراطورية القياصرة كأمة واحدة، بإضفاء صبغة الجامعة الإسلامية على هذه الحركة. وفى حين كانت الأيديولوجية الدافعة لتلك الحركة ذات طابع ليبرالى، فإن أهدافها ومناهجها قد اتسمت بالاعتدال. وكان التتر يدركون أن الإسلام أضعف من أن يمكنه الوقوف أمام امبراطورية القياصرة فى مواجهة سافرة. ومن ثم فقد أظهر زعماء الحركة، وهم إسماعيل جاسبرينسكى من كريميه، وزملاؤه التتر صدرى مقصودى، ويوسف أكتشوراوغلو، وعبد الرشيد إبراجيموف، وماردان توبتشيباشى من أزير، حتى عام ١٩٠٥ على الأقل، الاعتدال والولاء تجاه الدولةالروسية. وكان الأمل يراودهم فى حل جميع مشاكلهم فى إطار النظام الملكى بالتعاون مع الإدارة القيصرية تارة، ومع الأحزاب السياسية الروسية التى تميل إلى الاعتدال تارة أخرى. ولم تتجاوز مطالبهم السياسية المساواة مع الروس فى الحقوق الشخصية، ومع اعتقادهم بأن مقاطعة امبراطورية القياصرة لن تؤدى إلا إلى الإضرار بالمسلمين، فإنهم كانوا يؤمنون فى المقابل بأن التعاون الصادق والدائم بين روسيا والعالم الإسلامى من شأنه أن يحقق صالح الإسلام.

إلا أن الموقف قد تبدل تماماً بهزيمة روسيا عام ١٩٠٥. فقد أحدث انتصار اليابان، وهى قوة آسيوية، هزة نفسية عنيفة فى أرجاء الامبراطورية، حيث أثبت أن روسيا ليست بالدولة التى لا تقهر. ومن ثم فقد هبت الشعوب الخاضعة للامبراطورية، بما فيها الشعوب الإسلامية، يحدوها الأمل فى الثأر والتحرر. وهكذا فقد شهد ذلك العام، عام ١٩٠٥، البداية الحقيقية للحياة السياسية لدى المسلمين فى روسيا، كما ظهرت فيه للمرة الأولى المطالب الوطنية على نطاق جماعى، وإن كانت لم تزل متواضعة بعد، وتعاقبت المؤتمرات الواحد تلو الآخر. فقد انعقد سراً فى نيجنى ـ نوفجورود فى شهر أغسطس من ذلك العام المؤتمر الأول للمسلمين، وشارك فيه

بضع مئات من المندوبين التتر. وناقش المؤتمر مطالب تتعلق بالحقوق المدنية الفردية، والمساواة المدنية مع الروس، إلى جانب عرض بالتعاون مع الأحزاب الليبرالية الروسية، المعروفة باسم أنصار أكتوبر. وقد قرر المؤتمر عقد «اتفاق إسلامى»، يُفتح باب الانضمام إليه أمام المسلمين من جميع أنحاء الامبراطورية. وفى ١٣ يناير ١٩٠٦، انعقد مؤتمر إسلامى ثانٍ، فى إطار من السرية كذلك، فى مدينة سان بيترسبورج، حضره نحو مائة من ممثلى التتر وأهالى كريميه والقوقاز وكازاخستان. وتقرر فى ذلك المؤتمر التعاون فى المجال السياسى مع حزب الدستوريين الديمقراطيين، وكان أكثر ميلاً نحو اليسار إلى حد ما من حزب أنصار أكتوبر المؤلف من ممثلى البورجوازية الروسية الراقية. وفى أغسطس من عام ١٩٠٦، جرى تنظيم مؤتمر ثالث، رسمى هذه المرة، فى نيجنى ـ نوفجورود. واشترك فى هذا المؤتمر مائتان من المندوبين. وقد ناقش المؤتمر مطالب تتعلق بالحرية الدينية وحرية التعليم. كما تقرر كذلك تحويل الاتفاق الإسلامى إلى حزب سياسى. إلا أن وحدة الأمة قد تزعزعت أركانها بظهور اليسار الإسلامى.

كان إنشاء الاتفاق الإسلامى هو المحاولة الوحيدة لتوحيد الشعوب الإسلامية فى روسيا تحت لواء التتر. واستند نجاح ذلك الاتفاق إلى التعاون بين البورجوازية الإسلامية والبورجوازية الليبرالية الروسية ممثلة فى حزب الدستوريين الديمقراطيين. إلا أن المؤسف أن الإدارة القيصرية، وكذلك الليبراليين الروس، لم تحاول الاستجابة للطلبات المقدمة من جانب المسلمين، ومن هنا كان الانهيار المأساوى السريع للاتفاق. إذ لم يؤخذ أى من الطلبات المقدمة من مندوبيه فى الدوما (*) بعين الاعتبار، وفى عام ١٩٠٨، قررت اللجنة المركزية للاتفاق حل الحزب. وتخلى المعتدلون بدورهم، من منطلق اقتناعهم باستحالة تحقيق أية إصلاحات بالوسائل القانونية فى إطار النظام القيصرى، عن كل أمل فى الاتفاق مع الجناح الليبرالى الروسى. ومن ثم فقد هاجروا بأعداد كبيرة إلى تركيا. وفى روسيا ذاتها، انتقلت إدارة التكتلات السياسية إلى أيدى عناصر شابة، أكثر عداءً لروسيا وللروس، وتنادى بالشعارات الاشتراكية. إلا أنه لم يتم التخلى تماماً عن حلم إنشاء حركة موحدة للجامعتين الإسلامية والتركية. إذ ظهر ذلك الحلم من جديد، عام ١٩١٧ فى أعقاب سقوط النظام الملكى، فى البرامج الخاصة بواضعى نظرية الشيوعية الوطنية الإسلامية.

لم يكن المذهب الإصلاحى المعتدل الجديد، ولعله كان أشهر ردود الفعل من جانب الصفوة

(*) دوما (جمعية وطنية فى عهد القيصر نقولا الثانى) (المترجمة).

الإسلامية الليبرالية فى مواجهة سيطرة الغرب ممثلة فى روسيا، هو الوحيد من نوعه. فقد ظهرت مذاهب أخرى إلى حيز الوجود، انبثقت من المحافظين والأصوليين، وبتعميم أكبر من جميع أولئك الذين أدركوا أن التواطؤ مع سلطة «الكفرة» أياً كانوا، لا يمكن أن يؤدى، فى نهاية المطاف، إلا إلى القضاء على الإسلام. ويمكن القول إن روح الله خومينى كان له فى القوقاز وفى تركستان آباء روحيون لم يكونوا لينكروا عليه ثورته.

بدأت المقاومة المسلحة للغزاة الروس باسم الدفاع عن العقيدة منذ عهد قديم. وتعددت محاولات المسلمين فى بلاد التتر وبشكيريا وكازاخستان لرفع راية التمرد. ولم تلق الثورات التى تزعمها قادة تقليديون، ـ كانوا فى كثير من الأحيان ينحدرون من الملوك التشانجيسيد الذين سُلبوا ملكهم وكانوا يسعون إلى استرداد نفوذهم الشخصى ـ تأييداً شعبياً، بل تعرضت للقمع بعنف وشدة لا مثيل لهما.

وفى نهاية القرن الثامن عشر، واجه الروس شكلاً جديداً تماماً من أشكال المقاومة، فى صورة حركة شعبية تزعمتها الطرق الصوفية التى كانت تناضل لإرساء دعائم ملك الله على الأرض. وتمثلت المرحلة الأولى من هذه الحركة فى الجهاد المقدس، أو الغزوات التى أعدت فى مواجهة سيطرة «الكفار» وضعاف النفوس من المسلمين الذين سولت لهم أنفسهم التواطؤ معهم. وكانت الطرق الصوفية التى ظهرت فى العصور الوسطى (ولا تزال حتى وقتنا هذا) مجتمعات مغلقة، شبه سرية، تقوم على مبدأ المسارة(*)، ويستند هيكلها إلى تنظيم دقيق، يقضى بالخضوع والإذعان التام من جانب المريدين تجاه معلميهم من الشيوخ أو المرشدين. واتسمت الحرب التى خاضوها ضد الغرباء، أى الانجليز فى شمال الهند، والفرنسيين فى الجزائر، والهولنديين فى جاوة، والصينيين فى سنكيانغ، والروس فى القوقاز، بروح شعبية صارمة، ومناهضة للإقطاع فى كثير من الأحيان طالما نجح الغزاة الأوربيون فى اختيار طبقة النبلاء من ملاك الأراضى الوطنيين. وكانت تلك الحرب أكثر تنظيماً إلى حد كبير من الثورات الفوضوية للسادة الإقطاعيين فى القرون الماضية.

وفى القوقاز، نشأ تقليد الحرب المقدسة فى بلاد تشيتشان منذ نهاية القرن الثامن عشر وامتد دونما توقف تقريباً حتى سقوط نظام حكم آل رومانوف، على يد طريقتين هما الطريقة النقشبندية والطريقة القادرية، وكانتا تناضلان، فى ذات الوقت، ضد الصينيين، والانجليز فى

(*) المسارة (احتفالات كانت تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة) (المترجمة).

الهند والهولنديين فى جاوة. وكان أول شيوخ الصوفية الذين نادوا بالجهاد ضد الروس من النقشبنديين فى تشيتشان، وهو الإمام منصور عشرمة. إذ نجح المقاتلون من أتباعه، عام ١٧٨٥، فى تطويق لواء روسى وإبادته بالكامل فى مضايق نهر سونجا، فألحقوا بجيوش الامبراطورة كاترين الثانية التى كانت لا تقهر حتى ذلك الوقت أسوأ هزيمة عرفتها فى تاريخها. وسرعان ما اجتاحت الحرب المقدسة التى أعلنها الإمام منصور جميع أنحاء شمال القوقاز، واستغرق إخمادها ستة أعوام. إلا أن الروس نجحوا أخيرا فى أسره عام ١٧٩١ بميناء «عنابة» العثمانى، على نهر «الكوبان». وقضى نحبه فى العام التالى، بعد أن أدين بتهمة التمرد والخيانة وحُكم عليه بالسجن المؤبد، فى سرداب بحصن «شلوسلبورج». أما فى شمال القوقاز، التى كانت واقعة تحت السيطرة الروسية آنذاك، فقد تعرضت الطرق الصوفية لحملة قمع شرسة، اختفت على أثرها الطريقة النقشبندية من خريطة القوقاز على مدى ثلاثين عاماً. وكانت هذه هى نهاية تلك الحرب المقدسة الأولى ضد الامبراطورية الروسية.

إلا أن الجهاد المقدس استئونف مرة أخرى عام ١٨٢٤ على يد الطريقة النقشبندية. فقد امتد ليشمل أنحاء شمال القوقاز واستمر حتى عام ١٨٥٩، عندما اضطر الشيخ شامل، ثالث الأئمة النقشبنديين، إلى الاستسلام فى نهاية الأمر مع آخر مجموعة من مريديه البالغ عددهم مائتين. وكانت هذه هى أطول مقاومة يبديها المسلمون فى مواجهة الغزاة الروس، كما مثل فتح ذلك الإقليم المحدود نسبياً عبئاً لا قبل لامبراطورية القياصرة به، فقد ألحق الدمار بالبلاد اقتصادياً وكان بمثابة الضربة القاضية التى قضت على هيبة النظام. كما كان الجهاد الذى اجتاح منطقة القوقاز دليلاً أثبت لجميع مسلمى الامبراطورية وللشعوب الأخرى التابعة لها - من بولندا وفنلندا بل وحتى أوكرانيا - إمكانية المقاومة المسلحة لسلطة تلك الامبراطورية الضخمة التى كان الاعتقاد السائد حتى ذلك الوقت هو أنها لا تُقهر. وفى أعقاب الهزيمة التى مُنى بها الشيخ شامل، احتل الروس شمال القوقاز بأكمله، ودخل النقشبنديون فى حالة بيات شتوى. فقد تم ترحيل بعض شيوخهم إلى سيبيريا، وهاجر البعض الآخر إلى الامبراطورية العثمانية، بينما احتمى آخرون بالجبال حيث أصبحوا من الأبارك أو اللصوص الشرفاء، فى نقطة وسط بين روبين هود وقطاع الطرق، يسطون على «الكفرة»، ويناوشون ويبتزون «المسلمين المنافقين» الذين سلموا بالنظام الجديد للإدارة الروسية. وبنهاية ذلك القرن، أصبحت ظاهرة الأبارك هذه وباءً حقيقياً استشرى فى القوقاز.

إلا أنه ثمة طريقة صوفية أخرى، وهى القادرية، ضربت بجذورها فى بلاد تشيتشان بوسط القوقاز، بعد أن لحقت الهزيمة بالشيخ شامل ودانت السيطرة «للكفرة» الروس. وبدا القادريون، على أية حال، أكثر زهداً فى متاع الدنيا من النقشبنديين وأكثر اهتماماً بالسعى على طريق الصوفية حباً فى الله من اهتمامهم بإقامة دولة ثيوقراطية أو بالجهاد المقدس، إلا أنه سرعان ما أجبرتهم الإدارة الروسية، بكل ما شابها من تشدد وفساد واستبداد، على تبنى نهج أكثر تطرفاً.

وبعد الاعلان عن هذه الطريقة باعتبارها من الطرق غير المشروعة عام ١٨٦٠ تم إلقاء القبض على زعميها كونتا الحاج كيتشييف وإيداعه إحدى المصحات النفسية (ويا للعجب!)، تحولت الطريقة إلى منظمة سرية حيث أصبح التأمل الصوفى مرادفاً غريباً، وإن كان منطقياً، للإرهاب الفردى. وفى عامى ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨، وحد أتباع الطريقتين صفوفهم من خلال دورهم الفعال فى الثورة الكبرى التى نشبت فى داغستان. ومرة أخرى، كما فى عامى ١٧٩١ و١٨٥٩، اشتد القمع ضراوة على نحو غير مسبوق واكتظت السجون فى سيبيريا بالشيوخ والمريدين الصوفيين. ولم يقدر للبعض منهم، مثل الشيخ النقشبندى أذن حاج، الخروج منها إلا عام ١٩١٧ حيث بدأوا من جديد «الجولة الثالثة» من الجهاد المقدس ضد الروس، فى مواجهة متزامنة مع جيوش «دينيكين» البيضاء والجيش الأحمر. ولم ينجح البلاشفة فى إغراق تلك الثورة الأخيرة فى حمامات الدم إلا عام ١٩٢٣.

وفى آسيا الوسطى، تصدت الطرق الصوفية للغزو الروسى، فكانت هذه هى المقاومة الوحيدة التى واجهتها جيوش القيصر ألكسندر الثانى فى طريقها. وتزعم ثورة المسلمين فى وادى «تشيرتشيك» عام ١٨٧١ أحد الشيوخ النقشبنديين، وهو الخوجة إيشان من كولكارا؛ فى حين كان على رأس المقاومة التى أظهرتها القبائل التركمانية حول جوك ـ تيب فيما بين عامى ١٨٧٩ ـ ١٨٨١ أحد الشيوخ النقشبنديين، وهو كربان مورات، وفى عام ١٨٩٦، كان زعيم الثورة فى أنديجان بوادى الفرغانة، وهو الإيشان محمد على من مينتوب الذى شنقه الروس، من الشيوخ النقشبنديين كذلك.

إلا أنه عشية انهيار الملكية الروسية، كانت الثورة التى انضوت تحت لواء الجهاد قد باءت جميعها بالفشل. وهكذا انتهى الحل الذى وضعه الأصوليون، وهو انتزاع الاستقلال بالقوة المسلحة، إلى فشل ذريع، وإن كان وقتياً فحسب، حيث استؤنف من جديد غداة انتصار البلاشفة فى القوقاز وفى تركستان.

غير أن روسيا الامبريالية كانت، عشية الثورة، أقوى كثيراً من أن يتم مهاجمتها وجهاً لوجه. وفى الوقت ذاته، أى عام ١٩١٤، وإزاء مشاعر الاستخفاف العدائى من جانب الروس، تخلت البورجوازية الليبرالية الإسلامية عن آمالها فى التوصل إلى تسوية، على أساس تقاسم السلطة إما مع الإدارة أو مع أحزاب المعارضة الروسية المعتدلة. ولم يعد أمام أولئك المسلمين الذين يفكرون فى البقاء الجماعى لأمتهم سوى الحل الثالث، أى الثورة.

كان المسلمون فى روسيا هم أول من بادر إلى اكتشاف الماركسية وإلى التحمس لها، قبل الأتراك والإيرانيين والعرب بأعوام طويلة. وكان التتر فى الفولجا والأذريون هم الذين أرشدوهم إلى الطريق. غير أن تاريخ الجماعات الماركسية الإسلامية لا يزال فيه الكثير مما يتعين كتابته. ومن شأن ذلك أن يثير اهتماماً بالغاً، إذ أن زعماء تلك الجماعات قد سعوا، منذ البداية، إلى غرس الأفكار والبرامج الماركسية الأوروبية - سواء كانت فرنسية أو ألمانية - فى مجتمعهم بدلاً من نظيرتها الروسية. ولعل فى ذلك ما يفسر لنا بسهولة لماذا تحاشى المؤرخون السوفيات دائماً الإشارة من قريب أو بعيد لتلك الجماعات.

تأسست أول جماعة ماركسية إسلامية فى «باكو» عام ١٩٠٤، حيث قام بعض المثقفين الشبان من أصل أرستقراطى أو من المنتمين للطبقة البورجوازية الراقية، فى وقت سابق على ظهور البورجوازية الوطنية المعتدلة، بإنشاء حلقة للدراسات السياسية. وكان من بين هؤلاء محمد أمين رسول زاد الذى انشق فى وقت لاحق على الاشتراكية وأصبح، عام ١٩١٩ - ١٩٢٠، رئيسا لجمهورية أذربيجان المستقلة؛ وناريمان بك ناريمانوف، الذى أصبح فيما بعد الأمين الأول للحزب الشيوعى فى أذربيجان وتوفى على فراشه بهدوء عام ١٩٣٢، رغم وصفه بلقب «عدو الشعب» بعد وفاته؛ ومشادى عزيز بكوف، الذى مات رمياً بالرصاص على يد الانجليز عام ١٩١٨؛ والسلطان مجيد أفنديف وداداش بنية زاد، اللذان تعرضا للتصفية الجسدية فى عهد ستالين عام ١٩٣٨، وآخرون غيرهم. وكانت هذه الجماعة تتبع تنظيم «باكو» التابع بدوره لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى المعروف باتجاهه البلشفى. وإبان ثورة عام ١٩٠٥، تحولت تلك الحلقة الدراسية إلى حزب سياسى، وهو الحزب الاشتراكى الديمقراطى الإسلامى المعروف باسم «الهمة» والذى كان يضم بين صفوفه بعض العمال الشرفاء. وظل حزب «الهمة» حتى عام ١٩١٢، وهو التاريخ الذى أوقف فيه عن ممارسة نشاطه بقرار من الشرطة، يحتل مكانة هامة فى حياة المجتمع الإسلامى فيما وراء القوقاز، بما كان ينظمه من إضرابات وما كان

يصدره من صحف عديدة، تنشر أفكاراً ثورية تدعو إلى الماركسية بدرجة أو بأخرى، إما وسط التجمعات العمالية فى مجال الصناعات البترولية، أو بين أوساط المثقفين على أقل تقدير. كما لعب المجاهدون من هذا الحزب دوراً لا يستهان به فى ثورة عام ١٩٠٨-١٩١١ التى فجرت حمامات الدماء فى تبريز، عاصمة أذربيجان الإيرانية.

يُعتبر حزب «الهمة»، الذى كانت عضويته قاصرة على المسلمين وحدهم، أحد الاستثناءات بل والمفارقات فى تاريخ الحركة الاشتراكية فى روسيا. إذ كان التصريح بإنشائه من جانب البلاشفة الروس يعنى، للمرة الأولى بل وربما الأخيرة، التسليم بوجود تنظيم ماركسى يستند إلى أساس وطنى بل وحتى دينى. إذ لم يسمح هؤلاء بعد ذلك مطلقاً بإقامة مثل هذه التنظيمات التى يتعارض وجودها ذاته مع جميع مبادىء الحركة الدولية البروليتارية، تلك المبادىء ذات القدسية الخاصة. فعندما تقدم الماركسيون اليهود فى «بوند» بطلب مماثل، أى إنشاء حزب ماركسى تقتصر عضويته على اليهود وحدهم، رفض لينين، يؤيده فى ذلك جميع رفاقه، تلك المزاعم وقابلها بسخط شديد. إذ لم يُسمح بظهور حزب «الهمة» إلى حيز الوجود إلا بسبب الهيمنة التامة للأرمن على الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى فيما وراء القوقاز. وإزاء العداء التقليدى بين المسلمين الأتراك والأرمن، كان المسلمون الأتراك يميلون إلى الخلط - أياً كانت الأسباب الداعية إلى ذلك - بين الاشتراكية الماركسية من جانب والنزعة القومية الأرمنية من جانب آخر. ومن هنا فإن المبرر الوحيد لوجود حزب «الهمة» كان اجتذاب المسلمين إلى المذهب الاشتراكى. ورغم اضطلاع الحزب بدوره على هذا النحو، إلا أن النجاح الذى أحرزه ذلك الحزب الاشتراكى الإسلامى الأول من نوعه قد أثار الشكوك من حوله، رغم ما كان يتسم به برنامجه وأساليب عمله من التزام رسمى صارم بالماركسية. إذ كان السواد الأعظم من زعمائه ومجاهديه من أصل غير بروليتارى بل بورجوازى أو أرستقراطى، هذا من جانب، والأهم من ذلك هو أنهم كانوا يسلكون دائماً مسلك الجناح اليسارى الماركسى المتطرف من الحركة القومية الأذرية، وليس باعتبارهم طليعة للماركسية الدولانية(*) فى المعسكر الوطنى.

ومنذ عام ١٩٠٥، شهدنا فى «باكو» تلك المعضلة التى لم تجد لها حلاً، والتى تمزق أوصال الحركة الشيوعية الدولية منذ ستين عاماً، وهى التساؤل المطروح: عندما تتحالف الماركسية والقومية: «من يدخل فى عباءة الآخر؟»، أو «من يهيمن على الآخر؟» أو بالأحرى

(*) دولانى (نصير الدولانية وهى مذهب يسمو إلى تجاوز حدود الدول وإقامة اتحاد بين الشعوب والأمم) (المترجمة).

«من هو المستفيد، فى المقام الأخير، مــن هذا التحالف المخالف للطبيعــة؟». لقد نجح حـزب «الهمة» فى نشر الأفكار اللينينية داخل الأوساط الراديكالية فى «باكو»، كما أتاح «إصابة» الثوريين المسلمين بعدوى الأفكار القومية الداعية إلى الجامعة التركية. وفضلاً عن ذلك، فإنه على الرغم من هجوم أعضاء حزب «الهمة» على رجال الدين الشيعة وعلى «الرجعيين الكهنوتيين»، إلا أنهم لم يستبيحوا لأنفسهم على الإطلاق التهجم على الإسلام بأى شكل من الأشكال، فضلاً عن رفضهم الانفصال التام عن الحركة القومية.

ولعل الطابع المتقلب الذى كان يتسم به حزب «الهمة» يفسر لنا ما تعرض له جميع الزعماء الذين أرسوا، فى عام ١٩٢٠، دعامة الحزب الشيوعى فى أذربيجان، بإستثناء واحد وهو «ناريمان ناريمانوف»، من تصفية جسدية على يد ستالين خلال حملات التطهير الدامية فى أعوام الثلاثينات باعتبارهم «قوميين بورجوازيين».

والأعجب من ذلك هو انتشار الأفكار الاشتراكية فى إقليم فولجا الوسطى التترى. فقد تخرج من المدارس الثانوية الجديدة، ومن مدرسة المعلمين التترية، المعروفة باسمTatarskaïa outchitel,skaïa chkola ، التى أنشئت فى كازان عام ١٨٧٦، وكانت مراكز للحياة السياسية الإسلامية، جميع رؤساء الأحزاب السياسية الوطنية تقريباً، سواء كانت ليبرالية أواشتراكية. وقد جمعت الدائرة السياسية التترية الأولى، التى تألفت زهاء عام ١٨٨٥ على يد طلبة مدرسة المعلمين، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد من الزعماء الليبراليين أو المثقفين الشبان الثوريين من أصل بورجوازى، مثل صدرى مقصودى، والاشتراكيين الثوريين فؤاد توكتار، وآياز إسحاقى، وش. محمد ياروف، وأ. دافلتشان و أ. فاهرتدان، والاشتراكيين الديمقراطيين ياما شيف وكولاهميتوف، وكلاهما بلشفى، وتيريجولوف، وهو من المناشفة. وقد قام هذا الأخير خلال بضعة أعوام بإصدار صحيفه سرية تحمل عنوان (الترقى)، وكانت تنشر الأوامر الصادرة عن الحركة القومية المتطرفة والراديكالية الثورية. وتحولت هذه الدائرة، فى عام ١٩٠١، إلى تجمع يعمل من أجل إصلاح المدارس، وهو الذى انطلقت منه الحركة الإصلاحية بما خلفته من بصمات ثابتة على تطور الفكر السياسى والثقافى التترى بأكمله.

نشأت الحركة الإصلاحية (التى تستمد اسمها من اللفظ عربى الأصل «الإصلاح») عام ١٩٠٤ بين طلبة المدرسة «المحمدية» فى قازان، وانتشرت فى معظم المدارس الأخرى فى قازان وأورونبورج وترويتسك وأوفا. والشبه كبير إلى حد العجب بين حركة الإصلاح و «ثورة»

الحى اللاتينى التى نشبت فى مايو ١٩٦٨. فقد بدأت هذه الحركة بطلبات متواضعة ومعقولة نسبياً تدعو إلى مراجعة المناهج الدراسية، وانتهت بنداءات متفرقة ومطلقة العنان من أجل تغيير المجتمع الإسلامى واتخاذ إجراء مباشر ضد الإدارة القيصرية، والمسلمين المتحفظين، بل وحتى الإصلاحيين الذين رفضوا أن يكونوا من أتباعهم. وكان الكفاح من أجل تحقيق الإصلاحات الثقافية، من وجهة نظر الطلبة الإصلاحيين، جزءاً لا يتجزأ من النضال لنيل الحريات السياسية، وسرعان ما تحولت دعاواهم إلى حركة قومية واشتراكية، مناهضة بشدة لكل ما هو روسى ومتحفظ، وكانت هذه، على حد قول المؤرخ التترى «إبراجيموف»، «أكثر مظاهر الحركة الإصلاحية راديكالية وثورية». وواقع الأمر أن «الإصلاحيين» كانوا هم الورثة الشرعيين لدعاة التجديد الذين ظهروا فى منتصف القرن التاسع عشر، إذ لم يكن عليهم سوى تطوير تلك النظريات بنقلها إلى المجال السياسى. وعلى ذلك، فإنهم لم يرتبطوا عضوياً بأى من الحركات الثورية الروسية، وإنما استلهموا منها على الصعيد التكتيكى. إلا أنهم لما لم يجدوا فى كتابات من سبقوهم من المجددين حججاً ثورية تبرر ما كانوا يطمحون إليه من إحداث انقلاب شامل فى المجتمع، اتجهوا إلى الماركسيين الروس والأجانب. وهكذا كانوا أول من بادر من المسلمين إلى نشر الأفكار الاشتراكية بين التجمعات التترية، وإلى محاولة القيام بعمل ثورى حقيقى يدعو إلى الإضراب، والتظاهر الجماعى، بل وحتى الإرهاب. وعندما لم تتحقق لهم النتائج المرجوة على نحو ملموس، تقوضت أركان حركتهم بعد عام ١٩٠٨ وبدأت تفقد طابعها السياسى بالتدريج. إلا أن هذه المحاولة لتحقيق صيغة مركبة تجمع بين التجديد والاشتراكية قد تركت آثاراً غائرة على الحركة القومية التترية. فقد كانت مصدراً مباشراً استلهمت منه التجمعات الاشتراكية الإسلامية غير الماركسية الأولى، مثل «بيريك» أو «تانجتشى»، على نحو مباشر بدرجة أو بأخرى، وهى التجمعات التى ظهرت عام ١٩٠٦ وكانت ذات اتجاه اشتراكى ثورى وفوضوى. والأهم من ذلك أخيراً هو أن الغالبية العظمى من رؤساء اللجنة الاشتراكية فى قازان التى تأسست بعد فبراير عام ١٩١٧ - والتى أصبحت لجنة الحزب الشيوعى التترى فيما بعد - كانوا من المجاهدين الإصلاحيين القدامى. وعلى ذلك، فإن تأثرهم بالأيديولوجية القومية فاق أى تأثير للماركسية الاشتراكية الديمقراطية الروسية.

كان الحزب الاشتراكى الديمقراطى الماركسى الأرثوذكسى آخر الأحزاب التى ظهرت عند التتر. وشاب تطوره شىء من البطء، إذ اصطدم بسلبية البروليتاريا المحلية من جانب، ومناقسة

المذاهب الثورية التى بدا تأثيرها طاغياً فى البداية على الإنتلجنتسيا الناشئة من جانب آخر. وخلافاً لما يؤكده بعض المؤرخين السوفيات، فإن الدور الذى لعبته البروليتاريا التترية فى قازان فى الحركة الثورية الاشتراكية الديمقراطية كان متواضعاً إلى حد كبير. إذ لم تضطلع هذه البروليتاريا إلا بدور طفيف فى الاضطرابات العمالية التى نشبت فيما بين أعوام ١٩٠٥-١٩٠٧، باستثناء مصانع «ألافوزوف» للمنسوجات التى كانت تضم آنذاك عدداً من العمال الأجانب على قدر من الأهمية النسبية. ولما كان العمال التتر لم ينجحوا فى إنشاء تنظيم مهنى مستقل، فإن تمثيلهم فى الحركة النقابية التى بدأت فى الانتشار فى قازان بعد عام ١٨٩٨ قد جاء ضعيفاً، إن لم يحدث ذلك على الإطلاق، اللهم إلا فى الجماعات السياسية اليسارية، رغم الجهود المبذولة من جانب تنظيم قازان التابع للحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى والذى اهتم، منذ عام ١٩٠٢، ببث الدعاية الثورية فى أوساط المسلمين.

إلا أن أول من بادر من التتر إلى الانضمام لصفوف الحزب الاشتراكى الديمقراطى كان من العمال، وهو «ظريف غاليف»، عضو بإحدى الدوائر الماركسية الروسية فى مصنع «ألافوزوف» فى الفترة من عام ١٨٩٣ وحتى ١٨٩٥. بيد أن أحداً لم يحذ حذو ذلك الرائد. إذ استغرق الأمر حتى عام ١٩٠٣ قبل أن تنشأ دائرة ماركسية بين عمال الطبع التتر فى قازان، وطال بنا الانتظار إلى عام ١٩٠٥ حتى تشكلت خلية تترية خالصة تتبع حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى البلشفى فى مصنع «ألافوزوف». كما اشترك عدد ضئيل من العمال التتر فى نشاط الخلايا الاشتراكية الديمقراطية الروسية داخل بعض المصانع فى قازان، إلا أن دورهم قد انطمس كذلك. وكان المشتغلون بالتجارة هم وحدهم من تمكنوا، عام ١٩٠٥، من إنشاء تنظيم مهنى محلى، وهو التنظيم المعروف باسم «رابطة المشتغلين بالتجارة»، وكان سرياً فى البداية، ثم اعتُرف به رسمياً فى ١٨ نوفمبر ١٩٠٦؛ وقد أسهم إسهاماً فعالاً، بما أضافه من شعارات ذات طابع سياسى إلى قائمة مطالبه المهنية، فى الحركة الثورية التى ظهرت فى الأعوام ١٩٠٥-١٩٠٧. إلا أنه على الرغم مما بذله الاشتراكيون الديمقراطيون البلاشفة من محاولات للسيطرة على مقاليد القيادة فيه، ظلت سلطاته فى يد الاشتراكيين المعتدلين. وبدءاً من عام ١٩٠٧، تقوضت أركان تلك الحركة حتى اختفت تماماً قرابة عام ١٩١٤.

جاء التحام الإنتلجنتسيا الإسلامية بالاشتراكية الديمقراطية متأخراً إلى حد كبير. إذ لم ينضم المثقفون التتر إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى إلا بعد إنشاء لجنة قازان التابعة لحزب

العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى فى ديسمبر عام ١٩٠٢. وكان أول هؤلاء أحد الطلبة القدامى بمدارس قازان، اضطلع بتنظيم الدعاية داخل أوساط المسلمين، وهو «إبراهيم أهتاموف»، الذى تحول، عام ١٩٠٥، ليصبح منشفياً ثم «مناهضاً للثورة» بعد أكتوبر ١٩١٧. وقد أدخل «أهتاموف» فى التنظيم صديقه «حسين ياما شيف»، سليل أسرة من التجار الأثرياء فى قازان وخريج المدرسة المحمدية ومدرسة المعلمين التترية. وكان «ياما شيف» أكثر رواد الماركسية التترية نشاطاً وأجدرهم بالاهتمام، بل كان الوحيد الذى اضطلع داخل الحزب بدور تنظيمى، حيث عهد إليه على وجه الخصوص، بعد رحيل «أهتاموف»، بمهمة الدعاية، والترجمة إلى اللغة التترية ونشر الأدب الماركسى، وأخيراً تنظيم الخلايا العمالية الإسلامية.

كان التنظيم الاشتراكى الديمقراطى فى قازان فى أوج عنفوانه عام ١٩٠٥ يضم ٢٥٠ من الأعضاء منهم بضعة عشرات فقط من التتر الذين ينتمى معظمهم إلى أوساط المثقفين من أصل بورجوازى، ظلوا جنوداً مجهولين على مدى تاريخ الحركة الثورية. ويشير جميع المؤلفين الذين تناولوا بالدراسة أصول الشيوعية لدى المسلمين فى روسيا إلى أنه ثمة عقبات عديدة أعاقت تطور هذه الحركة حتى عام ١٩١٧. إذ أدى ضعف البروليتاريا بوجه عام والبروليتاريا التترية على وجه الخصوص، فضلاً عن صعوبات الاتصال، إلى عرقلة عمل الحزب البلشفى. وعلى الرغم من أن بعض الأفراد المنعزلين، داخل أوساط العمال والإنتلجنتسيا التترية، كانوا يعدون أنفسهم للعمل الثورى، إلا أن هذه النواة من البلاشفة المسلمين القدامى لم يتجاوز عددهم ستة أشخاص. وفى ديسمبر ١٩٠٥، بعد إسقاط التنظيم الاشتراكى الديمقراطى فى قازان على يد الشرطة، تفرقت تلك القلة النادرة من الماركسيين التتر. وهكذا تلاشت كل الجهود المبذولة من جانب الحزب الروسى بغية بسط نفوذه على التجمعات الإسلامية.

بيد أنه كانت هناك محاولة أخيرة، عام ١٩٠٧، لإنشاء تنظيم ماركسى تترى. فقد أسس «ياما شيف» ومعه بعض زملائه، ومن بينهم «ج.سيف الدينوف»، مجموعة اشتراكية ديمقراطية شرعية، عرفت باسم «أورال تشيلار»، وكانت تضم البلاشفة والمناشفة على حد سواء. إلا أن الشرطة قامت بمصادرة الجريدة التى كانت تصدرها المجموعة باللغة التترية تحت اسم «أورال» (صدر العدد الأول منها فى ٤ يناير ١٩٠٧)، فى شهر أبريل من نفس العام بعد صدور ثلاثين عدداً منها. وتفرق العاملون بالجريدة بين موسكو والدونيتز وباكو. وبعد وفاة «ياما شيف» عام ١٩١٢، لم يكن التنظيم البلشفى فى قازان يضم، لحظة اندلاع ثورة فبراير

١٩١٧، يضم إلا الروس، باستثناء بعض القائمين بأدوار هامشية. وكان لذلك أهميته فى تاريخ الشيوعية الإسلامية بعد عام ١٩١٧. ولم يكن لزعمائه، سلطان «غالييف»، و «ملا نور فاهيتوف»، ورفاقهم، رغم كونه من التنظيمات الماركسية، صلات تنظيمية بالبلاشفة الروس، بل بالحركات الثورية القومية التترية وحدها. فقد أصبحوا الورثة الشرعيين للحركة الإصلاحية الجديدة، ولم تفلح الماركسية اللينينية الروسية التى اعتنقوها عام ١٩١٧ فى محو ذكريات القومية التركية من نفوسهم.

وهكذا لم يكن هناك، عشية الثورة البلشفية، فى الامبراطورية بأكملها سوى بضعة عشرات من المسلمين المقيدين بانتظام فى الحزب البلشفى. وظلت هذه الشخصيات ضعيفة باهته دون تأثير يُذكر على مدى الأعوام الحاسمة التى حددت مصير شعوبهم. ولم يظهر أى من الذين صاروا فيما بعد زعماءً للأحزاب الشيوعية الإسلامية، لا سلطان غالييف ولا رفاقه، بين مجموعة البلاشفة القدامى.

ورغم قلة عدد المسلمين الماركسيين، إلا أن الأفكار الاشتراكية انتشرت انتشاراً كبيراً لتتغلغل فى جميع أوساط الإسلام الروسى. فقد أقبل الجميع، بما فى ذلك المحافظون المتشددون، على استخدام مصطلحات ثورية، والحديث عن «الصراع الطبقى» و «ديكتاتورية البروليتاريا»، بل والرغبة فى اعتناق الماركسية دون الاهتمام كثيراً بالمعنى الحقيقى للكلمة، ودونما معرفة بذلك الرجل الأسطورى رغم ذيوع شهرته، كارل ماركس (أو كاريل ماركيس كما تُنطق باللغة التترية).

وفضلاً عن ذلك، فقد كان البحث بين المسلمين فى روسيا عن ماركسيين ملتزمين بحق أمراً عديم الجدوى، لما كان يتسم به كفاحهم من طابع وطنى بحت بعيداً عن الجوانب الإجتماعية. إذ كان الهدف الذى يسعون إليه هو التحرر من سيطرة إحدى القوى الأجنبية - أى الروس - ، لا محاربة عدو ينتمى إلى إحدى الطبقات الوطنية - أى التتر. فقد كان ذلك، بالنسبة للصفوة الإسلامية التقدمية التى كانت على استعداد، منذ تلك الفترة، لتقبل الاشتراكية، نموذجاً من نماذج التنظيم قبل أى شىء آخر، وليس مجموعة من النظريات القادرة على إعادة تنظيم المجتمع وفقاً لمبادىء الدولانية البروليتارية. إلا أنه ثمة جوانب عديدة للماركسية بدت لهم ذات جاذبية خاصة.

الجانب الأول هو استخدام «التحرك المباشر» وأسلوب العمل التآمرى السرى. فبحلول

عام ١٩١٧، كانت الحركات الاشتراكية الروسية قد أثبتت فعاليتها التنظيمية بالفعل. وقد بدا التحرك المباشر والعمل التآمرى، بالنسبة للتجمعات الإسلامية الثورية ذات الاتجاهات التى تميل إلى الفوضوية أكثر من الماركسية، أدوات رئيسية فى سبيل الاشتراكية، رغم لجوئها جميعاً إلى استخدام تلك الوسائل من قبيل الحفاظ على الهيبة والاحترام. إذ لم يكن هناك من مذهب سياسى آخر فى هذه الفترة يمكنه منافسة الماركسية فى ذلك الميدان. فقد أغفل الثوريون المسلمون ببساطة أن فعالية الجماعات الماركسية الروسية مردها ليس إلى أسلوب الإرهاب الذى أدانه البلاشفة باعتباره من الأساليب غير المجدية والتى تشكل خطورة، وإنما هى تعزى إلى النظام الحديدى والصرامة المذهبية التى لا تلين على نحو ما أثبتته تلك الجماعات. ومن ثم، فقد ظلت تنظيماتهم، حتى أكثرها راديكالية، تجمعات تفتقر إلى التجانس، ولا يحكمها تنظيم قوى، بل ويعوزها الحد الأدنى من النظام، ولا تسير وفقاً لبرنامج سياسى محدد؛ وإنما تم إستبدال ذلك أو الاستعاضة عنه بإثارة المشاعر بأساليب خطابية عنيفة. لكم كانت الشقة بعيدة بينهم وبين الخلايا الشيوعية الأولى، روسية كانت أم ألمانية أم بولندية! ولعل فى ذلك تفسيراً لما كان الزعماء الماركسيون الأوربيون يكنونه تجاه تلك الاشتراكية الآسيوية التى كانت لاتزال بعد وليدة من مشاعر الشك والنفور. وليس ثمة ما هو أفضل فى توضيح افتقار الاشتراكية الإسلامية فيما قبل عام ١٩١٧ للنضج تنظيمياً وأيديولوجياً من ذلك التنقل المستمر من جانب الزعماء الاشتراكيين والقوميين من معسكر إلى آخر. فقد كانوا ينتمون جميعاً إلى نفس الطبقة الاجتماعية، طبقة البورجوازية والأرستقراطية الراقية، فضلاً عن معرفتهم الوثيقة بعضهم بالبعض، وما كان يربط بينهم بوجه عام من وشائج وصلات قرابة.

ورغم عيوب تلك الحركة وما شابها من ثغرات، إلا أن زعماءها ومجاهديها قد استطاعوا، على مدى اثنى عشر عاماً من النشاط، فيما بين الأعوام ١٩٠٥ و ١٩١٧، اكتساب خبرة معينة - دراية تقنية كما نطلق عليها فى عصرنا الحالى - متعمقة وإن كانت ظاهرية، بآلية الثورة الاشتراكية. وهكذا لم يكن من المستغرب عند اندلاع ثورة أكتوبر أن نجد أولئك البارزين من الزعماء الاشتراكيين المسلمين، مثل محمد أمين رسول زاد، أو فؤاد توكتار، أو آياز إسحاقى، وقد التقوا ليس إلى جانب لينين وأتباعه من البلاشفة، وإنما داخل المعسكر المناوىء للثورة فى واقع الأمر. فقد استشعروا أكثر من غيرهم أن «الدولانية البروليتارية» التى اعتنقها البلاشفة سرعان ما ستتحول إلى حركة وطنية جديدة تجتاح أنحاء روسيا بأكملها.

والجانب الثانى هو أن الاشتراكية قد علمتهم أسلوب العمل الجماعى. إذ كان جميع زعماء الاشتراكية الإسلامية فيما قبل عام ١٩١٧، على نحو ما أوضحنا مراراً وتكراراً فى مواضع عديدة، ينتمون إلى الصفوة المثقفة من شعوبهم. ولم يكن لأولئك الشبان، أبناء الأرستقراطيين الإقطاعيين، أو التجار الأثرياء، أو علماء الدين، بحكم نشأتهم الاجتماعية، سوى صلات محدودة للغاية بأبناء الشعب، الذين كانوا يتألفون من الفلاحين أو البدو، ومن أرباب الصنائع أو أصحاب الحوانيت على وجه الخصوص. إلا أن التنظيمات الثورية الاشتراكية قد فتحت لهم، من خلال ما كانت تعقده من لقاءات شعبية، وما كانت تنظمه من إضرابات بل وحتى أعمال تخريب وإرهاب سياسى، نافذة جديدة، باعتبارها بديلاً «للشعبية»(*)، أو وسيلة لاجتياز الهوة التى كانت تفصلهم عن «الشعب». فإذا ما قُدر لها النجاح، كان ذلك إيذاناً بمولد حركة وطنية موحدة فى نهاية الأمر، تتجاوز الفروق الطبقية؛ ومن ثم فإن أبناء الصفوة التقليدية قد ضمنوا المحافظة على مقاليد القيادة لشعوبهم.

وعلى مدى التاريخ الطويل للراديكالية الإسلامية، استطاع الاشتراكيون المسلمون الشبان أن يجدوا بسهولة نماذج رومانسية راقية تصطبغ بصبغة العمل أو التضحية أو الإرهاب، بدءاً من نموذج القرامطة القدامى وأبناء الطائفة الاسماعيلية وحتى نماذج الطرق الصوفية التى تزعمت الجهاد المقدس ضد «الكفرة» فى القرن التاسع عشر.إلا أننا لم نجد فى الماضى أمثلة صحيحة للتنظيم على نحو ما قدمته الاشتراكية الروسية. فإذا كانت الأفكار الماركسية، وهى أفكار مجردة فى كثير من الأحيان، لم تطبق تماماً على المجتمع الإسلامى، إلا أن النموذج الاشتراكى للتنظيم كان هو النموذج الأكثر ملاءمة لراديكالية المسلمين الروس الشبان.

أما الجانب الثالث فهو أن الاشتراكية الروسية قد قدمت للمسلمين وعداً بالمساواة مع الروس، إن لم يكن الاستقلال عنهم. فمن بين الأفكار السياسية التى لاقت رواجاً فى روسيا عشية الثورة، أكدت الاشتراكية، أكثر من كل ما عداها من مذاهب، على الإخاء والمساواة بين الشعوب المقهورة. إذ لم تكن الصورة قد اتضحت بعد فيما يتعلق بالاشتراكيين الروس فى موقع السلطة؛ وعلى ذلك فإن الحكم عليهم جاء لصالحهم، لا سيما المناشفة والاشتراكيين الثوريين، الذين كانوا يعلنون بشدة التزامهم بمبدأ الفدرالية(**). أما فيما يتعلق بالبلاشفة، فإن «الدولانية» التى كانوا ينادون بها كانت من الغموض بحيث فتحت الباب أمام كل ما

(*) شعبية (نظرية الروائيين الشعبيين الذين يصورون بواقعية حياة عامة الشعب) (المترجمة).

(**) الفدرالية (نظام اتحادى) (المترجمة).

يمكن تخيله من تفسيرات.

وأخيراً، فإن الاشتراكية كانت تمثل على النقيض بالنسبة للمسلمين وعداً بملاذ روسى بل وحتى دولى يلجأون إليه فى كفاحهم الوطنى. إلا أن زعماءهم، من محافظين وثوريين، كانوا يدركون تماماً مدى ضعف المسلمين فى مواجهة الصرح الروسى العتيد. ووفقاً للمقولة التى ذاع استخدامها قبل عام ١٩١٧ على يد الكتاب التتر «إن الكلب لا يمكنه مواجهة الفيل وحده، وإنما عليه الاستعانة بالصيادين». ومن ثم، فإنه كان يتعين على الاشتراكيين المسلمين، مثلهم فى ذلك مثلى مسلمى المستعمرات، الاعتماد من حيث المبدأ إن لم يكن فى الواقع الفعلى على التعاطف الفعال من جانب الاشتراكيين الروس والأوروبيين، بل وحتى على مساعدتهم. إلا أن بعض الأحداث قد أثبتت أن مثل هذه المساعدة لم تكن مثالية تماماً. فقد كان الاشتراكيون الأرمن من حزبى «دشنق تسوطن» و «هنتشاك»، رغم تأثرهم الشديد بالحركة القومية، أعضاءً كذلك فى الأممية(*) الثانية، كما قوبل الأتراك الشبان، عام ١٩٠٨، باستقبال حافل من جانب الحزب الاشتراكى الفرنسى. وكان لثوار تبريز بعد ذلك، فى الأعوام ١٩٠٩-١٩١١، صدى حماسى، وإن كان عديم الفعالية، لدى جميع الاشتراكيين فى العالم.

لقد كان اعتناق الاشتراكية، أو إشهار ذلك، نظرياً على الأقل، وسيلة للانفتاح على الغرب، كما كان مبعثاً للأمل فى العثور على حلفاء هناك. إلا أن ذلك كان محض أحلام وأوهام، فالاشتراكيون الأوروبيون قبل عام ١٩١٧ كانوا يجهلون إلى حد كبير تلك العوالم غير البروليتارية الواقعة فيما وراء أوروبا وأمريكا الشمالية. وكان يُنظر إلى الإسلام نظرة ازدراء تشوبه العجرفة بصفة خاصة، كما كان الاهتمام بالشرق لمجرد كونه أحد العناصر المؤثرة فى الأوضاع الدولية، لا باعتباره موضوعاً للاهتمام فى حد ذاته. ولم يكن للشرق، وقد خلا من البروليتاريا، أن يزعم أى حق له فى الثورة. أما فيما يتعلق «بالمشكلة الوطنية»، فإنها لم تكن تمثل للماركسيين الأوروبيين سوى مشكلة تافهة وهامشية مقدر لها أن تلقى حتفها فى العالم الاشتراكى المقبل.

لم يكن وضع الاشتراكيين الروس يختلف كثيراً. فحتى عام ١٩١٧، لم يكن أى من الزعماء المناشفة أو البلاشفة، باستثناء ستالين - وهو نفسه شرقى - يبدون أدنى اهتمام بالمشاكل «الاستعمارية الوطنية» المتعلقة بالامبراطورية. وإنما كان الاشتراكيون الروس، فى

(*) الأممية (تكتل عمالى من مختلف الشعوب والأمم غايته الدفاع عن مصلحة العمال يتخطى النطاق القومى) (المترجمة).

معرض الحديث عن مستقبل روسيا ، يفكرون فى سان بطر سبورج، أو حوض الدونيتز، أو موسكو، أو بولونيا ، ولم يكن يجول بخاطرهم مطلقاً تركستان أو بلاد التتر. فلم الاهتمام ببحث أحوال الفلاحين فى دول متخلفة، بل وحتى أوضاع أمم وقوميات لا تملك أية صناعات، وإنما هى مجرد مخلفات للعصور الوسطى؟ كانت «روزا لكسمبورج» أوضح مثال لهؤلاء الماركسيين «الغربيين» المناهضين لأى شكل من أشكال الوطنية داخل الحركة الاشتراكية، غير أن غالبية البلاشفة قد شاركوها مشاعر العداء والازدراء.

وبالرغم من اللامبالاة، بل المعارضة، التى أبداها الماركسيون الأوروبيون والروس تجاه العالم الإسلامى، إلا أن الأفكار الاشتراكية قد نجحت، فى بداية القرن العشرين، فى التغلغل إليه إن لم يكن عن طريق تحول منظم فمن خلال نوع من التأثير المتبادل على أقل تقدير. وسرعان ما حظيت هذه الأفكار «بالتطبيع» بمجرد قبولها.

ولكن ما هو سر ذلك النفوذ الذى تمتعت به الاشتراكية الماركسية فى مستهل القرن العشرين، فى بيئة بعيدة للغاية عن البروليتاريا الأوروبية التى وضعها من أجلها فلاسفة كانوا أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالشرق؟ كان للمسلمين الشبان، مثلهم فى ذلك مثل زملائهم الاشتراكيين الغربيين، موقف غير تقليدى تجاه ماضيهم الوطنى. إلا أنهم كانوا، خلافاً للغربيين، لا يتجاهلون إلا الماضى الحديث وحده، حيث التأخر والتورط مع الغرب. لقد كانت الاشتراكية ولا ريب مفتاحاً للمستقبل، ولكنها كانت كذلك مفتاحاً للماضى البعيد، حيث العصر الذهبى للإسلام، ولعشيرة الذهب وامبراطورية تيمور، عندما كان الروس رعايا تابعين للخانات التتر. إلا أن أحداً من هؤلاء الاشتراكيين الشرقيين، حتى قيام ثورة ١٩١٧، لم يسأل نفسه ذلك السؤال الجوهرى الذى هز العالم الإسلامى خلال نصف القرن التالى: هل يمكن أن يكون هناك توافق بين الإسلام والماركسية؟ لعل الإجابة تكمن عند سلطان غاليف. إلا أن التساؤل قد يبدو غير مجدٍ فى الوقت الحالى. فقد اتفق الجميع على حقيقة واحدة: أن الماركسية ليست سوى إطار للعمل، فى حين يضع الإسلام الأيديولوجية.

الفصل الثانى
الثورى القومى
١٩٠٥-١٩١٧

الفصل الثانى
الثورى القومى
١٩٠٥ - ١٩١٧

كان والد سلطان غالييف معلماً في قرية «كريمسا كالى» بمقاطعة «سترليتا ماك»، فيما يُعرف بجمهورية بشكير المستقلة فى الوقت الحالى. نشأ فى أسرة متواضعة بل فقيرة. وكان معلم القرية لايتقاضى، كالمعلمين الروس، راتباً ثابتاً من الحكومة، وإنما كان عليه أن يكتفى بمكافأة هزيلة إلى حد يدعو للسخرية، يقدمها مجلس القرية وتُستكمل بهبات عينية يغدقها عليه آباء التلاميذ. كانت قرية «كريمساكالى» ضيعة تتألف من بضعة مئات من البيوت، إلا أن المدرسة الابتدائية بها (الكُتّاب) كانت تندرج فى طائفة ما كان يُعرف آنذاك باسم «المدارس شبه المعدلة» حيث كان يجرى تدريس مطالعة النصوص التترية والعربية وفقاً للمنهج الأبجدى الحديث، بل وحتى بعض المواد «العلمانية» مثل علم الحساب ومبادئ الجغرافيا والتاريخ.

ورغم المظهر الحقير لتلك المدارس، إلا أن المستوى الثقافى للمعلمين والتلاميذ على حد سواء كان مرتفعاً على نحو يدعو إلى الدهشة، بالمقارنة بالقرى الروسية المجاورة. إذ كانت نسبة الملمين بالقراءة والكتابة آنذاك، لاسيما بين الفتيات، أهم لدى التتر مماكانت عليه بين الروس.

وقد تناول المؤلفون الروائيون التتر فيما قبل الثورة حياة معلمى القرى إبان تلك الفترة. كانت حياة شاقة نُذرت كلها للتفانى فى العمل والزهد فى متاع الدنيا. إذ كان المعلم يضطلع بكل شئ، بدءاً من التعليم بالطبع، وحتى الاهتمام بتدفئة المدرسة، وإدارة المدرسة الداخلية - حيث كان الأطفال يقيمون فى نفس المبنى. بل كان عليه كذلك فى كثير من الأحيان أن يستقطع من راتبه الهزيل لتقديم الغذاء إلى تلاميذه. إلا أنه قد اختار هذه الحرفة طواعية، مثله فى ذلك مثل سائر زملائه، حيث يكمن الدافع المحرك لذلك فى عشقه الحقيقى لمهنته. فقد شعر المعلمون التتر بأنهم صفوة شعبهم وأن مستقبل ذلك الشعب فى أيديهم. وخلافاً لزملائهم الروس، الموظفين بالدولة، فإن مسؤوليتهم قد انحصرت فى مجتمعهم وحده.

لم يكن لهم «رئيس» يتلقون منه الأوامر، وإنما كان عليهم ان يتحلوا بقدر كبير من روح المبادرة والابتكار، حيث كانوا يقومون فى آنٍ واحد بوظيفة المعلم، والمستشار القانونى، بل

ويضطلعون أحياناً بدور الطبيب والصيدلي، وكثيراً مالعبوا دور الملا والإمام الخطيب في إمامة صلاة الجمعة.

كان والد سلطان غالييف، الذي لانعرف حتى لقبه، رجلاً مثقفاً ومتفتحاً إلى حد كبير، حيث علم ابنه اللغة الروسية، وهو ما يُعد أمراً غير مألوف في ذلك العصر. ومن الأرجح- وإن لم يكن ذلك مؤكداً- أن آل غالييف كانت لهم طموحات تفوق كثيراً مجرد ذلك الدور المتواضع للأب. إذ يمكن الاعتقاد، على ضوء لقب «مير (أي أمير) سيد» الذي أُطلق على سلطان غالييف الصغير، أن الأسرة كانت تزعم الانحدار من نسل النبي، باعتبار أن لقب سيد هو اللقب الشرفي الذي تحمله ذرية محمد (حيثُ نجد من سلالته في أنحاء العالم الإسلامي من ينتسبون إليه فعلياً بدرجة أو بأخرى، بما في ذلك إقليم فولجا الوسطى التترى).

تلقى سلطان غالييف تعليمه الابتدائي في كُتّاب والده من سن الثامنة وحتى الخامسة عشر. ولم تكن نشأته الثقافية تختلف كثيراً عن سائر الشباب التترى. كان على إلمام بشئ من اللغة العربية الفصحى، مما أكسبه بعض الدراية باللغتين التركية العثمانية والفارسية، كما كان طويل الباع نسبياً في العلوم الدينية. أحاط بمبادئ الشريعة، شأنه في ذلك شأن تلاميذ الكُتاب، وربما درس تجويد القرآن. كان في عين زملائه، وهو لم يتجاوز بعد الخامسة عشر من العمر، قومياً متحمساً ومسلماً شديد الالتزام، إن لم يكن بالغ التعصب، بجميع التعاليم الدينية الأساسية منذ نعومة أظافره: من أداء للصلوات الخمس اليومية، وصلاة الجمعة بمسجد القرية، وصوم شهر رمضان، والامتناع عن تناول لحم الخنزير واحتساء الخمر بطبيعة الحال. كما تميز عن أقرانه بإجادته الممتازة للغة الروسية، وهو ما أتاح له الالتحاق بمدرسة المعلمين التترية في قازان قرابة عام١٨٩٥.

أنشئت مدرسة المعلمين المذكورة عام١٨٧٦، وكانت هي المنشأة الثانوية الوحيدة التابعة للدولة والمخصصة للتتر.

كان الهدف من وراء إنشائها هو إعداد المعلمين اللازمين للمدارس الابتدائية الروسية التترية التي كانت وزارة التربية الوطنية تعتزم إقامتها في إقليم فولجا الوسطى الإسلامي، حيث لغة التعليم هي الروسية باستثناء بعض الدروس في الدين باللغة التترية. غير أن هذه المدارس الابتدائية لم تحرز نجاحاً كبيراً في البداية بين أبناء الشعب الذين رأوا فيها، دون وجه حق، محاولة جديدة من جانب المبشرين الأرثوذكس لتحويل المسلمين عن دينهم. وفي

عام١٨٩١، أصدرت وزارة الداخلية قراراً يلزم الملات التتر باجتياز اختبار فى اللغة الروسية؛ واعتباراً من ذلك العام، بدأ عدد الطلبة فى التزايد بسرعة فائقة. وأصبحت مدرسة المعلمين فى قازان من المنشآت البارزة، حيث مالبث أن احتلت مكانة فريدة فى تاريخ الشعب التترى واستقبلت أبوابها معظم أولئك الذين أصبحوا زعماء قوميين فيما بعد. وقرابة عام١٨٩٥، قامت مجموعة من الطلبة بتكوين جمعية ثورية سرية داخل المدرسة، كانت الأولى من نوعها بين أوساط المسلمين بالامبراطورية الروسية. كما قاموا بعد فترة بإصدار جريدة مطبوعة بعنوان (الترقى)، كانت أول نشرة دورية تصدر باللغة التترية. وكان رئيس الجمعية ومنظمها كاتباً موهوباً، وهو آياز إسحاقى، الذى جاهر بنفسه، منذ عام١٩١٧، بوصفه العدو اللدود شديد التحمس ضد البلاشفة. وقد ضمت بين أعضائها بعض المثقفين اللامعين الشبان: وهم من أصبحوا زعماءً اشتراكيين فيما بعد أمثال «فؤاد توكتار»، و«شاكر محمد ياروف»، وبعض المعتدلين مثل... «صدرى مقصودى»، الذى حصل، فى وقت لاحق، على ليسانس الحقوق من باريس وأصبح الزعيم الموجِّه لليبرالية التترية.

ولعل الانتقال إلى مدرسة قازان، الذى استمر نحو خمسة أعوام، منذ عام١٨٩٥ وحتى١٩٠٠، قد ترك أثره العميق على سلطان «غالييف»، حيث تلقى من خلال اتصاله بالثوريين الشبان المبادى الأولى للماركسية. فقد اكتسب قناعة مؤداها أنه حتى يتسنى تحرير شعبه، لايمكن الاعتماد فى ذلك على القوى التترية وحدها، وإنما يلزم بل ويتحتم الاستعانة بالحركات الثورية الروسية. ومن الأرجح كذلك، رغم افتقارنا إلى معلومات مؤكدة حول هذه النقطة، أن يكون سلطان غالييف قد بدأ وقتها يفقد إيمانه، وهو ما أثار الشك حول ديناميكية الإسلام وإمكانية الكشف، فى السنة والحديث الشريف، عن وصفات سياسية– وليست روحية أو فلسفية فحسب– لتحرير أى شعب مقهور. ولأسباب عملية أكثر منها عقائدية أو أيديولوجية، بدأ يتحرر من الإسلام التقليدى ليتجه إلى الشعبية الروسية وأسلوب العمل المباشر الذى يحظى بالاحترام من جانبها. وفى عام١٩٠٠، عُيِّن سلطان غالييف أميناً للمكتبة البلدية فى «أوفا». ولإجادته التامة للغة الروسية، أخذ يترجم إلى اللغة التترية روايات «تولستوى» وقصص الأطفال التى ألفها الكاتب الروسى «زاساديمسكى». إلا أنه، شأنه فى ذلك شأن المثقفين التقدميين التتر الشبان، لم يضطلع بدور فعال فى ثورة ١٩٠٥، باعتبارها من الأمور التى لا شأن للغرباء بها. فقد كانت المعركة بين الروس بعضهم البعض لدوافع روسية بحتة

لاتهم المسلمين من قريب أو بعيد. ولكنه لعب فى المقابل، على مايبدو، دوراً أكيداً فى الحركة الثورية الطلابية «الإصلاحية»، وأتاحت له هذه الفرصة اكتشاف القوة الدافعة للحركة الوطنية.

إلا أن عام ١٩٠٥ كان بمثابة منعطف حاسم فى تاريخ الحركة الوطنية الإسلامية فى روسيا. ورغم اندحار الثورة، إلا أنها قد أظهرت مدى افتقار ذلك النظام الملكى للاستقرار، كما برهنت الهزيمة التى لقيتها الجيوش الروسية فى منشوريا على أن روسيا، التى اشتهرت حتى ذلك الوقت بأنها لا تُقهر، يمكن إلحاق الهزيمة بها، وعلى يد إحدى القوى الآسيوية كذلك. ومن ثم، فإن كل الآمال بدت مشروعة. بل أمكن للحركة الوطنية أن تتجاوز نطاق الحلم لتدخل فى نطاق الضرورات الملموسة.

وبعد عام ١٩٠٥، كرس سلطان غالييف نفسه للعمل الصحفى. والمعروف أنه كان له نشاط منتظم فى صحف أوفا، ورسول أوفا Oufimskiy Vestnik باللغتين الروسية والتترية، وصحيفة (الحياة) Tormysh، لسان حال التتر، وهى صحيفة قومية يسارية رغم عدائها الشديد للاشتراكية الماركسية. وكان يعبر عن وجهة نظره، بأسماء مستعارة مثل «سوخو»، و«Ul»، و«.M.S» و«كارما سكالينيس»، حول إصلاح عملية تلقين الأفكار الراديكالية. وفى وقت لاحق، قرابة عام ١٩١١، بعد أن أصبح نائب رئيس تحرير الجريدة الموسكوية المعروفة باسم Musul,manskaïa, Gazeta، وكان صاحبها هو المنشفى القوقازى أحمد بك تساليكوف، نشر فيها قصصاً وروايات مثل (فتاة من بشكير)، و(حلم التترية)، و(أغنية لم تتم)، و(الرجل)، و(فى الضباب). وفى الفترة ذاتها (١٩١١-١٩١٤)، كان يكتب فى جريدة موسكو المعروفة باسم (المعلم الروسى) Rousskiy Outchitel بتوقيع «ابن الشعب» أو «طالب تترى»، كما قدم بانتظام مقالات للمجلة الاستشراقية (عالم الإسلام) Mir Islama.

وفى غضون الحرب العالمية الأولى التى لم يشترك فيها، هاجر سلطان غالييف فيما وراء القوقاز حيث عُيِّن أستاذاً بالمدرسة التترية فى باكو. وهناك شارك على نحو فعال فى الحركة القومية والتقدمية- غير الاشتراكية- تحت قيادة أمين رسول زاد وعمل فى الجريدة التى كان يحررها ذلك الأخير، المعروفة باسم Kavkazskoe Slovo، باسم مستعار هو «Kölke-bash» و«Mirsayit». وعلى حد علمنا، فإنه لم ينضم لأى من الأحزاب السياسية التى كانت تتنازع على زعامة المسلمين فى روسيا. كما استمر، فى الوقت ذاته، فى نشر مقالات بالعديد

من الصحف القومية، أظهرت ميوله المتنوعة إلى حد يثير الدهشة.

كما امتدت أعماله كذلك لتشمل جرائد معتدلة مثل (الترجمان) Terdjüman الصادرة فى باغشساراى وكان يحررها إسماعيل بك جاسبرينسكى، أحد الملكيين المتشددين، و(الوقت) Vaqt الصادرة فى أورونبوج وكان يمولها آل راميف وهم من رجال الصناعة، كما كانت تنتهج إلى حد كبير الخط السياسى للديمقراطيين الدستوريين التتر المتجمعين فى حزب (اتفاق المسلمين) المركزى، وكذلك (النجمة) Yoldyz الصادرة فى قازان، جريدة الإنتلجنتسيا الإصلاحية. كما ظهر توقيعه كذلك فى صحف اليسار القومية، مثل (الشمس) Qoyash الصادرة فى قازان، جريدة الجامعة الإسلامية الراديكالية، بل وحتى فى الصحف اليومية ذات الاتجاهات الاشتراكية الصريحة، لاسيما صحيفتى (البلاد) IL ، و(الكلمة) Süz الصادرتين فى سان بطرسبورج، وكان رئيس تحريرها زميل دراسته القديم بمدرسة المعلمين، «آياز إسحاقى»، أعنف التتر ثورية وأكثرهم مجاهرة بالعداء للملكية آنذاك.

إلا أن الأعمال الأدبية لسلطان غالييف لم تصادف حظها من الشهرة. إذ أن موهبته لا تقارن بمثيلتها عند زملائه ومن أصبحوا منافسيه مستقبلاً، «آياز إسحاقى» أو «عبد الله توكاى» أو «غالم جان إبراجيموف»، زعماء مايمكن أن نسميه بحق «النهضة التترية». كان أدبه مليئاً بالمشاعر الطيبة، وإن كان يعج كذلك بالتحذلق العاطفى، متأثراً فى ذلك بممثلى الواقعية الشعبية الروسية: تولستوى فى عصره الثانى، وتشيكوف، وما مين سيبيرياك، وجوركى، وغيرهم آخرون. كما كانت رواياته تحمل إيحاءات مبتكرة: تحرير المرأة، أو الفتاة البريئة المخدوعة والتى تنكر لها أحد أبناء رجال الصناعة، أو جشع وجهل الملات الرجعيين، أو ذلك الطالب الفقير الجائع الذى تتأجج نفسه بمشاعر الوطنية والرغبة فى المعرفة..

ظل سلطان غالييف، حتى نشوب الحرب ، قومياً راديكالياً، إذ لم تكن الماركسية تمثل بالنسبة له سوى مستودع للعبارات الفنية الثورية القادرة على إذكاء روح الحماس لحركة تحرير الشعب التترى. وقد فاجأته ثورة فبراير١٩١٧ فى باكو، إلا أنه لم يكن له دور فعال فى تلك الحركة التى أثارت العالم الإسلامى فى روسيا حتى نهاية شهر أبريل من عام١٩١٧ ، عندما تم استدعاؤه إلى موسكو، ربما بواسطة أحمد بك تساليكوف، لرئاسة أمانة اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامى. وبعد انتهاء المؤتمر، توجه إلى قازان. وحينذاك انغمس، وقد ناهز الأربعين عاماً، فى العمل السياسى من خلال الانضمام إلى إحدى الجماعات التى لم تكن تمثل حزباً حقيقياً، وهى

اللجنة الاشتراكية الإسلامية التى سرعان ما أصبح أحد زعمائها الرئيسيين، بفضل ما أوتى من ملكات غير عادية فى مجال التنظيم والخطابة.

كان اختيار قازان مركزاً للنشاط اختياراً صائباً، حيث تحدد هناك مصير الإسلام الروسى. كما كانت، باعتبارها العاصمة القديمة للخان، والمعقل الثقافى ذائع الصيت للإسلام بما اشتهرت به من مدارس، مركزاً كبيراً للصناعات والجامعات الروسية حيث تجاور المثقفون المسلمون والروس جنباً إلى جنب وتأثرت كل طائفة بالأخرى على نحو متبادل.

ومنذ الأيام الأولى لثورة فبراير، قام زعماء البورجوازية الليبرالية التترية، وأعضاء (الاتفاق) القديم، إلى جانب الاشتراكيين المعتدلين، متناسين خلافاتهم التكتيكية، بتشكيل اللجنة الإسلامية فى٧مارس(٢٠ فى التقويم الغربى) عام١٩١٧، وكانت المتحدث الرسمى للجبهة الوطنية التترية حتى قيام ثورة أكتوبر. كما ألفوا، بعد ذلك بقليل، اللجنة العسكرية الإسلامية التابعة لحامية قازان، نواة التنظيم العسكرى الإسلامى. وقد قام البلاشفة فى قازان، من جانبهم، بعقد مؤتمر تنظيمى فى ٢٦مارس١٩١٧ لانتخاب أول لجنة فى قازان تتبع حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى (البلشفى)، وكانت تتألف من ستة عشر عضواً، كلهم من الروس. وهكذا فإن الشعبة البلشفية المحلية أخذت شكل تنظيم روسى صرف وظلت كذلك حتى شهر أكتوبر. وسرعان ماتزايد عدد أعضائها من ٨٠ عضواً فقط فى نهاية شهر مارس إلى ١٧٠ عضواً فى بداية أبريل، ثم إلى ٤٦٠ عضواً فى مايو، حتى بلغ ٦٥٠ عضواً فى أغسطس. ورغم مابذله زعماؤها من جهود لاجتذاب المسلمين، إلا أن التتر لم يمثلوا فيها حتى وقوع الانقلاب السياسى البلشفى سوى أقلية طفيفة، إذ لم تكن تضم سوى بعض العمال واثنين أو ثلاثة من ضباط الصف بحامية المدينة. وبالمثل، فإن العمال التتر لم يحتلوا سوى مكان متواضع تماماً فى اللجان الخاصة بالمصانع. وهكذا،و فإن اللجنة المؤقتة فى مصنع البارود La Poudrerie معقل البلاشفة فى قازان، لم تكن تضم فى مارس١٩١٧ سوى اثنين من التتر مقابل ٥١ روسياً.

ولأسباب شتى، على رأسها عدم الثقة القديمة، لم تنضم الغالبية العظمى من الثوريين التتر إلى الحزب البلشفيكى ولا إلى تنظيماته الفرعية، ولكنهم ألفوا فى فبراير١٩١٧ لجاناً عمالية إسلامية أعيد تجميعها فى ٧ أبريل فى شكل لجنة اشتراكية إسلامية. وقد لعبت تلك اللجنة دوراً مميزاً فى تاريخ الحركة الثورية الإسلامية، ويرجع الفضل فى ذلك على وجه الخصوص

إلى مؤسسها ورئيسها وباعث حركتها، ملا نورفاهيتوف، وكان صاحب شخصية قوية قُدِّر لها الاضطلاع بزعامة الحركة الشيوعية الإسلامية.

كان ملا نور فاهيتوف، وهو ابن أحد التجار التتر الأثرياء، ويصغر سلطان غاليف ببضعة أعوام، أكثر «ترويساً» من ذلك الأخير. درس دراسات علمانية بحتة، فى المعهد الرياضى الروسى فى قازان أولاً، ثم فى معهد البوليتكنيك (متعدد الفنون والعلوم) فى سان بطرسبورج، حيث التقى بعدد من الثوار الروس الشبان وأصبح ماركسياً متشدداً. فُصل من معهد البوليتكنيك بسبب «أفكاره الثورية» عام ١٩١١، ثم التحق بمعهد الأمراض النفسية والعصبية فى نفس المدينة، حيث جرى إبعاده منه فى العام التالى بتهمة «التحريض على أعمال تخريبية». وفاجأته الثورة، فى فبراير ١٩١٧، فى قازان حيث كان يعمل مهندساً للجسور والطرق. كان بهى الطلعة، رشيقاً يتمتع بقوام رياضى، داكن اللون، له عينان متقدتان وشعر طويل ينسدل على كتفيه فى رومانسية، يتميز بشخصية قيادية وعسكرية بالفطرة، ولكنه لم يكن عالماً نظرياً. هو صاحب فكرة توحيد جميع القوى الثورية التترية فى مجموعة قتالية حقيقية ذات طابع عسكرى لأول مرة؛ وكان سلطان غاليف معاونه، كما كان بالنسبة له «نموذجاً يُحتذى فى التفكير». بل إن كلا الرجلين كان مكملاً للآخر على نحو يثير الدهشة.

ولكونه من المثقفين الشبان ذوى النشأة الماركسية، فقد ادعى فاهيتوف أنه «اشتراكى» بالفعل، ثم «بلشفى» فى وقت لاحق. إلا أن الغلاف الماركسى الخارجى لم يغير من جوهر أفكاره السياسية، وكان الغموض لايزال يكتنفها، إلى حد يمكن أن نصفها معه «بالجامعة الإسلامية المتطرفة»، ولها ثلاثة أهداف رئيسية هى: مكافحة «الإقطاع» التترى والتقليدية الإسلامية، والتحرر الوطنى للمسلمين من السيطرة الروسية، ونشر الاشتراكية فى أنحاء العالم الإسلامى.

وإذا ما أردنا إيجاد مثل مشابه من العصر الحديث، وإن اعترى ذلك شىء من المفارقة التاريخية، فإنه يمكن مقارنة ملا نور فاهيتوف ورفاقه أعضاء اللجنة الاشتراكية فى قازان بجماعة مجاهدى خلق الإيرانية، وهى جماعة ماركسية وإسلامية فى آن واحد.

كان رفاق فاهيتوف وسلطان غاليف الأوائل ثوريين ينتمون إلى مشارب شتى، اشتراكيين ديمقراطيين، أو اشتراكيين ثوريين من اليمين واليسار، أو «اشتراكيين مستقلين»، أو مناشفة، أو دولانيين، أو شيوعيين متطرفين، أو مجرد مغامرين متقدمين يتطلعون إلى الوقوف فى وجه (المؤسسة) Establishment ، حيث كان أغلبهم مثقفين ينحدرون من الطبقة

البورجوازية المتوسطة أو الراقية، كما كانوا من المناضلين القدامى فى الحركة الإصلاحية فى كثير من الأحيان. بعضهم كانوا فيما مضى أعضاءً فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى، إلا أن عدداً ضئيلاً منهم فقط هم من انتموا إلى القسم البلشفيكى. غير أن اللجنة الاشتراكية الإسلامية، وهى أول تنظيم سياسى تترى يستند إلى الماركسية، لم يكن لها ارتباط عضوى بالاشتراكيين الروس أعضاء المجموعة البلشفية، حيث لم يكن يربطها بهذه المجموعة سوى علاقات عارضة. وهكذا فإن احتفالات الأول من مايو١٩١٧ التى أقيمت فى قازان قد شهدت خروج اللجنة الاشتراكية من التنظيم البلشفيكى على نحو متعاقب.

ولم تتم دعوة بعض قادة هذه اللجنة، سلطان غالييف بالتأكيد وربما ملا نور فاهيتوف، بصفتهم الشخصية لحضور جلسات اللجنة البلشفية إلا بعد شهر يولية ١٩١٧.

حاول البلاشفة الروس فى قازان، عشية انقلاب أكتوبر، «إنشاء نواة» للجنة الاشتراكية الإسلامية من خلال تكليف بعض ممثليهم بتشكيل «شعبة بلشفية» فى داخلها، إلا أن هذه الشعبة لم تحظ بنفوذ قوى، ومن ثم فإنه لم يتم «بلشفتها» مطلقاً على أى نحو فعلى. وظلت تلك اللجنة، حتى شهر أكتوبر، تنظيماً «بورجوازياً» وليس بروليتارياً، يجمع عناصر مختلفة من اليسار، تتألف من المثقفين التقدميين الذين كانوا يدعمون، من بعيد وبصورة تبعية بدرجة أو بأخرى، الخط السياسى للبلاشفة فى قازان. وقد تميزت عن الحزب البلشفيكى بشكلها التنظيمى. ففى حين أن ذلك الأخير كان تنظيماً ذا طابع عسكرى، أو بالأحرى «أركان حرب» أكثر منه حزباً جماهيرياً، نجد أن اللجنة الاشتراكية كانت بمثابة اتحاد مفتوح أمام جميع الثوريين على اختلاف مشاربهم، دونما أيديولوجية متشددة وبلا نظام محدد. وكان الهدف منها أن تصبح الصوت المعبر عن الأحزاب الإسلامية كافة، والتى كانت ترى فى النضال الثورى أساساً للاشتراكية بوجه عام وليس لحزب بعينه. ولم يكن بوسعها أن تنهج نهجاً آخر، فقليلون هم من كانت لهم أفكار سياسية ثابتة بين أبناء طبقة البروليتاريا التترية. ومن ثم، فإن مطالبتهم بمشايعة حزب يتبنى عقيدة محددة كانت من الأمور التى لاسبيل إلى مناقشتها. ولم تكن اللجنة الاشتراكية تنظيماً «متكتلاً» يقوم على المبدأ اللينينى- «الاختلاف أولاً ثم الاتحاد فيما بعد»- بل كانت تضم دون تمييز مسبق بين الاتجاهات أو الطوائف، قلة نادرة من البلاشفة وإن كانوا ممثلين لحركات سياسية أخرى على وجه الخصوص، وهى من العيوب الأولية التى من شأنها ولاريب خلق حالة من التخبط فيما تنتهجه من سياسات، الأمر الذى قد يفضى

فى النهاية إلى ظهور الانتهازية أو إلى غياب الحزم فى الممارسة العملية. كما أنها ليست بتكتل تكتيكى مؤقت لمجموعات قد تبدو متفرقة تماماً فى ظاهرها وإن كانت تقف صفاً واحداً من أجل تحقيق هدف محدد، وإنما هى «جماعة قوية من الناحية العضوية تقوم على مبدأ العمل المتضامن المستمر».

ولعله من الصعوبة بمكان وضع فكرة محددة حول الدور الحقيقى الذى لعبته اللجنة الاشتراكية الإسلامية فى التحضير لثورة أكتوبر، إزاء الاختلاف الكبير فى تقديرات المؤرخين حول هذا الموضوع بدءاً من عام١٩١٨. فبعد سقوط سلطان غالييف، تقاسمت اللجنة، التى اعتبرها البعض «شبه بلشفية» فى البداية، اللوم الذى وُجِّه إلى سائر الحركات الوطنية الإسلامية حتى تلك التى انضمت إلى الشيوعية. فقد رأى الكتاب السوفيات، مع اعترافهم بكونها أحد «التنظيمات الثورية»، أنها قد عجزت، لافتقارها إلى خط سياسى محدد، عن «قيادة الجموع العمالية التترية نحو الثورة البروليتارية»، وأن البلاشفة الروس هم وحدهم من يمكنهم القيام بذلك. ولنلق نظرة على ماكتبه المؤرخ السوفياتى «مدفيديف» عام ١٩٣٤ فى هذا الصدد: «يمكننا أن نسلم جدلاً بأن اللجنة الاشتراكية الإسلامية قد لعبت فى فترة معينة دوراً ثورياً معيناً، ولكن (...)، نتيجة لهيكلها الاجتماعى، فقد عجز قادتها، سلطان غالييف و«فاهيتوف» والعمال التتر، عن الانفصال عن الأوساط القومية لصغار البورجوازيين، كما لم يمكنهم كذلك الاندماج عضوياً داخل الجماعات البلشفية المحلية. ورغم أن اللجنة الاشتراكية قد اتبعت نهج البلاشفة فيما يتعلق بالسياسة الوطنية، إلا أن قادتها كانوا يخشون الشيوعية ويسعون إلى توحيد كافة العناصر الثورية الإسلامية دونما اعتبار لأصلها الاجتماعى. (...) صحيح أن اللجنة الاشتراكية قد شاركت فى النضال الثورى بتصديها للبورجوازية القومية، فضلاً عن مساعدتها للبلاشفة،(...) إلا أنها أصبحت مسؤولة عن أخطاء جسام، ولم يمكنها بأى حال من الأحوال الزعم بإنشاء كوادر شيوعية.»

أما المؤرخ السوفياتى من أصل تترى «محريا موف»، فقد كتب عام ١٩٥٨ مانصه: «لقد ارتكبت اللجنة، بوصفها تنظيماً للطبقة البورجوازية الصغيرة، أخطاءً جسيمة. الخطأ الأول هو النظر إلى الشيوعية بمنظور مجرد للغاية. فقد كان لفظ «الاشتراكيين»، من وجهة نظر سلطان غالييف وملا نور فاهيتوف، يجمع البلاشفة والمناشفة والاشتراكيين الثوريين فى سلة واحدة، كما اعتقدوا أن هؤلاء الاشتراكيين جميعاً كانوا يدافعون عن مصالح العمال.»

إلا أنه أياً كانت الفروق بل وحتى الاختلافات بين البلاشفة، أولئك المذهبيين المتشددين، والمسلمين أعضاء اللجنة الاشتراكية، وهم ثوريون إلى حد خيالي، ناهيك عن أصلهم غير البروليتاري، فإن البلاشفة لم يكن لهم الخيار. إذ كان لزاماً عليهم أن يقبلوا، هم أو غيرهم، هؤلاء الحلفاء الذين استثاروا فيهم مشاعر البغضاء والقلق، والذين رأوا فيهم فوضويين أكثر منهم ماركسيين.

غير أن الضرورات التكتيكية التى ظهرت عام ١٩١٧ قد حتمت ذلك لدى لينين وكذا ستالين على وجه الخصوص بدعوى مقتضيات العقيدة. فمن المؤكد أن اللجنة قد ارتبطت بالحركة الثورية الوطنية لا بالحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى؛ ومن ثم فقد كانت هذه اللجنة قومية أكثر منها اشتراكية. إلا أنها كانت كذلك التنظيم الإسلامى الثورى الوحيد الذى يمكن للبلاشفة الاعتماد عليه، فضلاً عن كونها مركزاً فريداً للتنشئة الأيديولوجية يمكن أن ينبت فيه معظم القادة الشيوعيين المسلمين، حيث كان سائر الشعب التترى فى نظرهم ينقسمون مابين غير مكترث أو مناصب للعداء. ومن ثم، فقد كان هناك اتفاق مسلم به، وعلى أساسه جرى قبول التتر المنتحلين لصفة الماركسية وإن كانوا من الثوريين المخلصين الصادقين كحلفاء دائمين لا مجرد «رفاق طريق» عابرين. وفضلاً عن ذلك، فإنه على الرغم من «عيوب» اللجنة وأخطائها، أحجم البلاشفة الروس فى قازان عن انتقادها صراحة أو محاربتها بالأحرى. فقد رأوا فيها حليفاً ومدرسة للماركسية هدفها «بلشفة» الإنتلجنتسيا التقدمية التترية التى كانت لاتزال بعد متأثرة بمبادئ الجامعة الإسلامية. إلا أن ماتحقق بالفعل كان هو النقيض بعينه: إذ كانت اللجنة من وجهة نظر قادتها وأعضائها مدرسة من مدارس القومية.

وعلى مدى أعوام من الإعداد المحموم والإثارة الفكرية غير المسبوقة، وضع سلطان غالييف ورفاقه، قادة اللجنة الاشتراكية، الأسس التى استند إليها مذهب الشيوعية الوطنية الإسلامية فيما بعد، وهى التى أدانها الحزب الشيوعى الروسى فى وقت لاحق باعتبارها بدعاً دينية خطيرة. وقد ألقى سلطان غالييف الضوء، منذ ذلك الوقت، على نقطتين بصفة خاصة:

* الرغبة فى إقامة اشتراكية «وطنية» يتم مواءمتها طبقاً للظروف الخاصة ببلد إسلامى معين ونشرها فى سائر أنحاء العالم الإسلامى، بعد تحريره من «امبريالية البورجوازية الأوروبية» على يد قوى العمال المسلمين وحدها وليس البروليتاريا الروسية أو الغربية.
* إرادة تحرير الأراضى الإسلامية من ربق الهيمنة الروسية. وقد اتضح هذا الاتجاه القومى،

عند الممارسة العملية، فى صورة انعدام الثقة بالتنظيمات السياسية الروسية، بما فيها الحزب البلشفيكى، ورفض الانفصام نهائياً عن الجماعات التترية الأخرى، حتى البورجوازية منها، إذ رأى سلطان غالييف وفاهيتوف أنه يتعين على اللجنة محاربة اليسار المتطرف فى الحركة الوطنية التترية.

وعلى ذلك فقد اضطلعت اللجنة الاشتراكية بدور فعال فى أعمال المؤتمر الثانى للمسلمين فى روسيا، حيث أدت عملها باعتبارها الجناح اليسارى للمعسكر القومى التترى، لا بوصفها المتحدث الرسمى للاشتراكية. وبانعقاده فى يولية ١٩١٧ فى وقت معاصر لانعقاد المؤتمر العسكرى والمؤتمر الدينى، وقبل اندلاع ثورة أكتوبر بثلاثة أشهر فقط، فإن المؤتمر الإسلامى الثانى كان آخر المظاهر الإسلامية الكبرى قبل ظهور البلشفية، وإن كان أخطرها على مستقبل الشيوعية الإسلامية، فعلى الرغم من استخدامه لعبارات ثورية تماماً بل وحتى ماركسية اشتراكية، إلا أنه خضع تماماً لسيطرة القوميين من وجهة النظر التنظيمية. وقد جمع المؤتمر العسكرى من جانبه نحو مائتين من الجنود والضباط الموفدين من قبل وحدات الجبهة والمؤخرة، إلى جانب عدد من المدنيين. ومن بين هؤلاء ظهر، إلى جانب الليبراليين، ملا نور فاهيتوف ممثلاً عن اللجنة الاشتراكية الإسلامية. أما المؤتمر الثانى لمسلمى عموم روسيا فقد انعقد بحضور مايزيد على مائتين من التتر وأبناء شمال القوقاز. وقام أعضاء اللجنة الاشتراكية الإسلامية، بقيادة سلطان غالييف وفاهيتوف، بدور بالغ الفعالية فى أعمال ذلك المؤتمر، حيث شكلوا فيه جناحاً للأقليات اليسارية المتطرفة فى مواجهة كتلة الوطنيين الصلبة. وفضلاً عن ذلك فإن الاختلافات السياسية التى كان من شأنها أن تؤدى إلى اصطدامهم بالليبراليين والاشتراكيين المعتدلين لم تجد سبيلاً إلى الظهور، بل وجرى التصويت على معظم القرارات بالإجماع. ولما كان ذلك المؤتمر قاصراً على المسلمين وحدهم، فإنه قد اتخذ الطابع «الثورى»، كما اتسم، على وجه الخصوص، بصفة القومية الأصيلة إلى حد فاق كل ماسبقه من مظاهر سياسية. وقد قرر المؤتمر، بعد بحث موضوع الانتخابات فى الجمعية التأسيسية، قصر أصوات المسلمين على القوائم الاشتراكية. وفضلاً عن ذلك، فقد أدان أعضاء المؤتمر، ربما تحت ضغط من سلطان غالييف وملا نور فاهيتوف، السياسة الوطنية التى انتهجها «كيرينسكى» بشدة، وذلك بالمطالبة بحق جميع القوميات الروسية فى الحكم الذاتى بدرجة تعادل الاستقلال إلى حد كبير فى الواقع. كما انفصل المؤتمر بصورة أكبر عن الحكومة المؤقتة، وذلك بالمطالبة بالحكم الذاتى للوحدات

العسكرية الإسلامية بحيث توضع تحت قيادة مجلس إسلامى يخضع للسيطرة التامة من جانب تتر الفولجا.

وقد تقرر فى المؤتمرات الثلاثة، لدى اجتماعها فى جلسة عامة انعقدت فى ٢٢ يولية ١٩١٧، الإعلان دون إبطاء عن الاستقلال الوطنى الثقافى للأتراك التتر المسلمين فى روسيا الداخلية وسيبيريا، وهو الهدف التقليدى للبورجوازية والإنتلجنتسيا التترية على النحو التالى:

(١) يشكل الأتراك التتر المسلمون فى روسيا الداخلية وسيبيريا اتحاداً حراً، أى دولة تمارس على أفرادها القوة الجبرية. وأعضاء الاتحاد هم الأتراك التتر من الجنسين، أياً كان الإقليم الذى يقطنونه.

(٢) يتم الاعتراف بالأتراك التتر باعتبارهم وحدة وطنية، وشخصية قانونية، وموضوعاً للقانونين العام والخاص.

(٣) يتمتع الأتراك التتر بالمساواة فى الحقوق مع سائر الشعوب الأخرى المكونة للدولة الروسية.

(٤) يكون للأتراك التتر الحق فى الاستقلال الدينى والثقافى.

(٥) يتم تحقيق الاستقلال على نحو تدريجى.

(٦) تُعتبر «الجمعية الوطنية» هى الجهة العليا المسؤولة عن الحكم الذاتى، وتملك سلطات تشريعية فى المسائل المتعلقة بالاستقلال الدينى والوطنى. وتمثل الأجهزة التنفيذية التابعة للجمعية الوطنية الشعب التركى التترى لدى الدولة (الروسية).

(٧) ضماناً لحسن سير الإدارة الدينية والوطنية، يحق للدولة التركية التترية فرض ضريبة خاصة على أفرادها.

(٨) تُستخدم لغة الأتراك التتر على قدم المساواة مع اللغة الروسية وغيرها من اللغات الأخرى فى المدارس والمحاكم والجهات الإدارية».

وقد جاءت نتيجة التصويت فى صورة موافقة بالإجماع، فيما يُعد مظاهرة حماسية جماعية انضم إليها حتى ممثلو اللجنة الاشتراكية الإسلامية، على الرغم من الإدانة القاطعة لمبدأ الاستقلال الوطنى خارج الحدود الإقليمية من جانب القادة البلاشفة. إذ لم تشهد البلاد من قبل مثل هذه الوحدة الشاملة بين التيارات السياسية التترية على اختلافها، من اليمين الدينى

المتطرف إلى أقصى اليسار الماركسى. فقد التقت هذه الاتجاهات عند نقطة حاسمة تتعلق بمستقبل المسلمين فى الفولجا، وهو أمر له أهميته ولاشك. ورغم أن ذلك الإجماع لم يستمر طويلاً، إلا أنه قد أثبت أن قادة اللجنة الاشتراكية- زعماء الاشتراكية الإسلامية فى المستقبل- وعلى رأسهم سلطان غالييف، كانوا على استعداد للانفصال عن البلاشفة الروس والتضحية بالمصالح الطبقية إذا ماتعرض مستقبل المسلمين الوطنى للخطر.

كان الخطر الذى يتهدد الاشتراكية الماركسية الإسلامية «بالفناء» داخل الحركة الوطنية إلى حد يفقدها استقلالها وأصالتها من الجسامة، مما حدا بالبلاشفة الروس إلى التدخل لدى قادة اللجنة الاشتراكية الإسلامية لتحذيرهم من مخاطر التواطؤ مع «العناصر البورجوازية». والواقع أن مشاركة سلطان غالييف وفاهيتوف فى المؤتمر الإسلامى الثانى كانت آخر المظاهر من جانب ممثلى الأحزاب الاشتراكية اليسارية داخل المعسكر القومى. وفى أعقاب ذلك، قامت اللجنة الاشتراكية، تحت قيادة التنظيم البلشفيكى، وبعد الانفصال عن الأحزاب الإسلامية البورجوازية، بتكريس جهودها من أجل التحضير لانقلاب أكتوبر.



خلافاً للمعتقدات السائدة بوجه عام، فإن الثورة البلشفية فى بلاد التتر، كما هو الحال فى بتروجراد وفى معظم المدن الروسية، قد مرت بشكل غير ملحوظ فى الواقع. إذ فقد نظام «كيرنسكى»، ذلك النظام المذهبى المدقق، كثير اللغط وعديم الفعالية، كل مصداقية وسلطة له لدى النخبة والعامة على حد سواء. وعلى ذلك، فإن أحداً أو يكاد لم يكلف نفسه، خلال تلك الفترة الحاسمة التى تحدد فيها مصير روسيا بل والعالم قاطبة، عناء التصدى للدفاع عن ذلك النظام، لاسيما فى الأقاليم غير الروسية من الامبراطورية القديمة حيث هبط نفوذ الحكومة المؤقتة إلى أدنى المستويات. ولم تكن حكومة «كيرنسكى»، طبقاً للرأى السائد على نطاق واسع لدى المسلمين، سوى نظام روسى صرف، العنصر «الديمقراطى» و«الدولانى» الوحيد فيه هو اللغط، بل والأسوأ من ذلك أنه نظام ضعيف، ممقوت دائماً، وقلما يخشاه أحد أو يكن له أدنى احترام.

كان سلطان غالييف، لحظة وقوع الانقلاب البلشفيكى فى ٢٥ أكتوبر، فى قازان حيث شهد تلك المأساة الخاطفة التى خلت تقريباً من الأحداث الدموية ولم يضطلع بدور كبير فيها.

فقد ثار الجنود الروس بحامية قازان، يتزعمهم ضباط الصف، بعد أن قاموا بسجن الضباط ومساعدة بعض الميليشيات العمالية الروسية المسلحة، فأجبروا أنصار الحكومة المؤقتة- رغم قلتهم- على الرضوخ فى اليوم التالى مباشرة. وقد قام البلاشفة بالاستيلاء على السلطة فى وضح النهار، على مرأى ومسمع من عدة شهود، من الروس والتتر على حد سواء. وأجمع الكل على أن المتقاتلين هم من الروس على كلا الجانبين، مع بعض الاستثناءات. وخلافاً لما يسجله المؤرخون السوفيات فى الوقت الحالى، فقد لزمت الوحدات العسكرية التترية التابعة للمجلس العسكرى Harbi Shuro ، رغم ارتفاع استعداداتها القتالية ومستويات التسلح بها مع تعرضها للإنهاك على يد مبعوثى اللجنة الاشتراكية، جانب الحياد، بل إنهم أظهروا بذلك بعض التعاطف تجاه «الحمر». ولم يقف إلى جانب البلاشفة سوى بعض أعضاء اللجنة الاشتراكية ومجموعات ضئيلة من التتر المسلحين، وفى آخر الأمر، انخرط عدد يتراوح بين مائتين وثمانين إلى ثلاثمائة من العمال المسلمين فى مصنع قازان للبارود فى التشكيلات الخاصة «بالحرس الأحمر»، إلا أنهم لم يشتركوا فى القتال. وكان التنظيم التترى الهام الوحيد الذى شارك فى معركة ٢٥ أكتوبر إلى جانب الثوار الروس هو طريقة «الڤيزيتيين الدينية الإسلامية ذات الاتجاهات المتحفظة المتشددة بل والرجعية الصريحة، والتى كان يُطلق عليها كذلك اسم «كتيبة رب فيزوف». وكانت تلك الطريقة، وهى تشكل أحد الفروع المنشقة عن الطريقة النقشبندية الأم، التى أسسها بهاء الدين فيزوف فى قازان عام١٨٦٢، تجند أتباعها من بين صغار الحرفيين وأصحاب الحوانيت، حيث كان مذهبها، المستمد من الحركة الإصلاحية الوهابية، بمثابة خليط غريب يجمع بين التحفظ الصارم والاستقامة الإسلامية، إلى جانب «الاشتراكية» التولستوية. كان الڤيزيتيون ينظرون إلى غيرهم من المسلمين باعتبارهم إلحاديين، كما كان هؤلاء يكنون لهم كراهية عمياء. وكان البلاشفة «الدولانيون»، من وجهة نظر الڤيزيتيين، أفضل من غيرهم من المسلمين الذين ارتضوا نظام «الكفرة» الروس. إذ لم يكن البلاشفة، رغم زندقتهم، يمثلون سوى «العدو الخارجى»، فى حين جسّد المسلمون «الفاترون» «أعداء الداخل». ولم يكن ثمة مجال للتردد بين الاثنين.

فقد كان بلاشفة قازان، من جانبهم، وهم لايدققون كثيراً فى اختيار الحلفاء، على استعداد للتحالف مع الشيطان ذاته إن كان يستطيع مساعدتهم على قهر السلطة. ومن ثم، فقد قاموا بتسليح «كتيبة رب فيزوف». وكان ذلك أحد التناقضات العديدة، وإن لم يكن أقلها

شأناً، للثورة البروليتارية فى الأقاليم التى كانت البروليتاريا ضعيفة فيها بحق. وقد واجه المؤرخون السوفيات شيئاً من الصعوبة فى التماس الأعذار لذلك الحلف الشاذ بين البروليتاريا الثورية وطائفة صوفية تناضل من أجل الجهاد. وفى ذلك كتب «ساجد ولِلِين»، وهو مؤرخ تترى، عام ١٩٣٠ مانصه: «كان البلاشفة ولاريب هم الذين أمدوا كتيبة الله بالأسلحة؛ ومن المؤكد أن لذلك مبرراته من وجهة النظر الأيديولوجية، ولم يكن ذلك الإجراء ليخلو من الخطورة؛ إذ كان يمكن (...) أن يخلق تصوراً مؤداه إمكانية التوفيق بين الدين والشيوعية، مع الحمل على الاعتقاد بوجود تواطؤ بين السلطة السوفياتية والطوائف الصوفية.»

وعلى ذلك، فإن المؤرخين السوفيات يحبذون، فى الوقت الراهن، الاكتفاء بإسدال ستار من التحفظ على ذلك الفصل الكريه، وهكذا اختفى (الفيزيتيون) من على صفحات التاريخ بلا قيد ولاشرط.

أدرك سلطان غالييف فى وقت لاحق مدى اللامبالاة التى واجهت بها الجموع التترية أحداثاً كان من شأنها تحديد مصيرهم: «عند تقييم نتائج ثورة أكتوبر ومشاركة التتر فى تلك الثورة، علينا أن نعترف بأن الجموع العمالية والطبقات التترية المحرومة لم يكن لها فيها أى ضلع.» وينم تشكيل اللجنة الثورية الأولى(Revkom) فى قازان التى تألفت غداة الانتصار، فى٢٦ أكتوبر، عن تعاظم الدور الذى لعبه الروس فى انقلاب أكتوبر، كما يظهر منه غياب التتر من الساحة. فقد كان الأعضاء العشرون الأوائل فى تلك اللجنة جميعهم من الروس. ووافقت اللجنة الثورية فى قازان (Revkom)، وإن كان ذلك فى وقت لاحق، على أن تقبل بين صفوفها بعض ممثلى التنظيمات الوطنية ومن بينهم ملا نور فاهيتوف. إلا أن بقاء هذه اللجنة الأولى لم يدم طويلاً. وكانت اللجنة الثورية الثانية (Revkom) المنتخبة فى ٣نوفمبر١٩١٧، أكثر «استعمارية» من الأولى، حيث جرى إبعاد ملا نور فاهيتوف منها. وهكذا لم يتجاوز عدد أعضائها أربعة عشر عضواً، جميعهم من الروس.

ولما كان انقلاب ٢٦ أكتوبر عملاً روسياً، فقد بادر هؤلاء إلى الاستيلاء على جميع المراكز الرئيسية فى مجالس السوفيات بالمناطق الحضرية والريفية فى قازان. وجرى نفس الشئ بمجلس مفوضى الشعب (Sovnarkom) فى «جمهورية قازان» الجديدة، التى أعلنها مجلس السوفيات المحلى فى نوفمبر١٩١٧، وكان يضم أحد عشر مفوضاً منهم عشرة من الروس وواحد فقط من التتر، وهو سلطان غالييف، مفوض الشعب لشؤون القوميات وشؤون التربية الوطنية.

وكان هذا أول منصب رسمى يتقلده سلطان غاليف فى الإدارة السوفياتية. وعلى ذلك فإن الثورة بدأت بداية سيئة للغاية فى بلاد التتر، مادام النظام الجديد قد جازف بالظهور فى أعين المواطنين المسلمين بمظهر الوريث الشرعى لكل الأنظمة الروسية السابقة، «القيصرية» أو «الديمقراطية»، وكلاهما ممقوت بنفس الدرجة.

لم يختلف الوضع كثيراً فى المراكز الإسلامية الأخرى، بل كان أسوأ فى بعض الأحيان. فقد كانت الثورة فى كل مكان من صنع الروس، وقبع المسلمون فى مواقع المتفرجين معربين عن مشاعر اللامبالاة أو حتى العداء بدرجة أو بأخرى. أما فى آسيا الوسطى، فقد احتكرت السلطة من أكتوبر ١٩١٧ وحتى نوفمبر ١٩١٩ عناصر روسية متباينة استندت إلى النظام الجديد، وإن كانوا جميعاً من غير البروليتاريين: موظفون قدامى فى الإدارة القيصرية، أو ضباط، أو تجار، أو مهندسون، أو رؤساء عمال، باستثناء الفلاحين والعمال، الذين تجمعوا حول مجلس السوفيات فى طشقند وهو ماتحول، فى أكتوبر ١٩١٧، إلى مجلس مفوضى الشعب فى تركستان– Turksovnarkom . أما المستعمرة الروسية فى آسيا الوسطى، فإن المنطق كان يقضى بأن تنضم إلى المعسكر المناهض للثورة. ولكن – ولعل فى ذلك مفارقة جديدة – بدا مجلس السوفيات فى طشقند، وهو بلشفى، وكأنه المعقل الأخير للسلطة الروسية من وجهة نظر الروس، فهو وإن كان ممقوتاً بالتأكيد، إلا أنه أفضل كثيراً من نظيره المحلى الإسلامى، الذى كان يُنظر إليه بعين الاحتقار والرهبة والكراهية. وثارت المخاوف فى نفوس الروس فى طشقند، وقد انعزلوا فى عالم يناصبهم العداء وفُصلوا بعيداً عن بتروجراد فكانوا على استعداد للتحالف مع الشيطان إذا ما أمكنه ضمان حقوقهم والحفاظ على تركستان باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الدولة الروسية أياً كان الثمن. وهكذا جاءت بعض ردود الفعل الوطنية، كالخوف من المسلمين والمصلحة الشخصية دون شك لصالح مجلس السوفيات فى طقشند. ومنذ أكتوبر ١٩١٧، رأينا عدداً من الموظفين القدامى والضباط وذوى الأملاك، بل وحتى أعضاء الإكليروس الأرثوذكسى، يساندونه على نحو لم يتوقعه أحد. وكانت سلطة مجلس مفوضى الشعب (Sovnarkom) روسية صرفة منذ البداية. وقد ساندته جماعات أخرى غير إسلامية، منها على سبيل المثال الميليشيات الأرمنية المسلحة، التى ينظمها حزب Dashnaktsütün الاشتراكى القومى، والتى لعبت دوراً رئيسياً فى قمع الثورة الإسلامية بوادى الفرغانة وفى المجزرة التى تعرض لها السكان المسلمون بمدينة قوقاند فى فبراير ١٩١٨. وكان الأعضاء

الخمسة عشر بمجلس مفوضى الشعب الأول فى(Sovnarkom) فى طقشند جميعهم من غير المسلمين. أما الوطنيون، فقد جرى إبعادهم بذريعة مزدوجة، وإن كانت مقبولة، تدفع بأنه «لما كانت الثورة من صنع الروس، فإنه من العدل أن يناط بهم قيادتها»، و«بما أنه ليس للوطنيين تنظيم بروليتارى، فإنه لايمكنهم الوصول إلى الهيئات العليا للسلطة الشعبية». ولعله قد غاب عنهم أن الروس فى طشقند لم يكن لهم مثل هذه التنظيمات بدورهم. والواقع أن الثقة التى منحها الروس جميعاً، الثوريون والمناهضون للثورة على حد سواء، للنظام الجديد كان لها مايبررها. فقد أنقذ مجلس السوفييات فى طشقند الثورة ولاريب، ولكنه قام، فى ذات الوقت ولايزال حتى أيامنا هذه، بحماية الوجود الروسى فى آسيا الوسطى.

وقد لقيت الثورة نفس الصدى فى فيافى كيرجيزيا. وفى هذا الصدد كتب «أحمد باى طورسون»، أحد القادة القوميين المحليين، رغم انضمامه إلى النظام الشيوعى الجديد، فى عام١٩١٩ مانصه:

«استقبل أهالى كيرجيزيا الثورة الأولى (فبراير١٩١٧) بالترحيب، فى حين استقبلوا الثورة الثانية بمزيج من الذعر والخوف. وتفسير ذلك جد يسير. فقد حررتهم الثورة الأولى من جور النظام القيصرى وأحيت فى نفوسهم الأمل فى تحقيق حلمهم الأبدى فى الحكم الذاتى. (...) أما الثورة الثانية فقد اقترنت بدائرة من العنف وأعمال السلب والنهب والابتزاز، إلى جانب إقامة سلطة ديكتاتورية (...)، وموجز القول إنها قدمت صورة للفوضى التامة(...) ففيما مضى، مارست مجموعة ضئيلة من المستخدمين القياصرة الظلم ضد أهالى كيرجيزيا، أما اليوم فإن تلك المجموعة ذاتها من البشر، أو غيرهم، ممن يتسترون تحت اسم البلاشفة، يعمدون إلى إطالة بقاء نفس النظام إلى الأبد...» كما تعرض أحد القادة الكازاخستانيين ويدعى «تيرار ريسكولوف»، وكان من الأعضاء البارزين فى الحزب الشيوعى الروسى، للكتابة حول ذلك الموضوع عام١٩٢٥ بصراحة كلفته حياته بعد ذلك ببضعة أعوام فى عام ١٩٣٨، عندما أصدر ستالين حكماً بإعدامه، بقوله: «خلال تلك الأعوام الحالكة، منذ عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٠، كانت سلطة البلاشفة فى تركستان معلقة بخيط رفيع؛ حيث ارتُكبت أفدح الأخطاء فى ذلك الوقت، كالتحالف مع حزب Dashnaktsütün فى أرمينيا الذى كان يمارس السلب ضد سكان (الفرغانة)، أو التعاون مع الكولاك الروس فى (سيميريتشى)، أو الغزو العسكرى لبخارى، والتجاهل التام لاحتياجات الفلاحين من سكان البلاد الأصليين. ومن ثم فإن البطولة

والشجاعة التى تحلت بها مجموعة ضئيلة للغاية من الثوريين الوطنيين الذين انضموا إلى الحزب البلشفيكى هى التى يُعزى إليها الفضل فى إنقاذ السلطة السوفياتية من كارثة محققة بتوليها قيادة الجموع الوطنية»

(Revolutsiia i Korenoe Naselenie Turkestana, Tachkent, 1925,p. xiii)

فى وقت لاحق، عام ١٩٣٠ وماتلاه من أعوام، تخلى القادة السوفيات، وعلى رأسهم ستالين، عن احتكار السلطة لصالح الروس خلال الأعوام الأولى للثورة كبادرة للتعبير عن «الغيرة الوطنية الامبريالية»، إلا أن الآثام التى اقتُرفت فى الأشهر بل وحتى الأسابيع الأولى من عمر النظام كانت وخيمة العواقب. فقد جعلت ردود الفعل القومية أمراً حتمياً، وهى الارتكاسات التى تبلورت منذ عام١٩١٨، فأخذت فى البداية شكل سلسلة من الثورات الشعبية، مثل ثورة البسماتشيين فى تركستان والثورة التى اندلعت فى إقليمى داغستان وتشيشينا بالقوقاز، وهى أكثر هذه الثورات مأساوية وبشاعة؛ ثم عاودت الظهور بعد ذلك ببضعة أعوام، بعد سحق تلك الثورات وماتلاها من ممارسات قمعية عنيفة، فى صورة الحركة «الغاليبيفية».

كان سلطان غالييف، ومعه ملا نورفاهيتوف وغالم جان إبراجيموف فى بلاد التتر، ووالى إبراجيموف فى كريميه، وتيرار ريسكولوف وإسماعيل صادفوكاسوف فى كازاخستان، ونجم الدين سامورسكى فى داغستان، وناريمان ناريمانوف فى أذربيجان، وفيظ الله خودشاييف وأكمل إكراموف فى تركستان، هم الممثلون النموذجيون لتلك المجموعة الضئيلة من القادة القوميين الذين قرروا، لأسباب مختلفة، الانضمام إلى معسكر البلاشفة وأصبحوا دعاة لما عُرف، فى عام ١٩٣٠ والأعوام التى تلته، باسم «التحول القومى» فى وسط الحزب الشيوعى الروسى. إلا أنهم اختفوا جميعاً، باستثناء «ناريمان ناريمانوف» وحده الذى قضى نحبه بهدوء فى فراشه، وإن كان البعض قد ألصق به تهمة «الخيانة»، ذلك اللقب الذى لازمه بعد الوفاة، حيث أصدر ستالين أمراً بتصفيتهم.

كانت ثورة أكتوبر سابقة لأوانها من وجهة نظر المسلمين فى روسيا. إذ لم يُتح لزعمائهم الذين أقعدتهم المفاجأة الوقت الكافى لتنظيم صفوفهم، أو الاختصاص بأية أجهزة حكومية، أو تجنيد ميليشيات مسلحة، بل ولاحتى وضع برامج سياسية محددة بدقة. وعلى ذلك فإن الحرب الأهلية– على مدى ثلاثة أعوام من المجازر الشرسة الضارية – كانت مسألة روسية صرفة، مع

وجود بعض الاستثناءات. إلا أن المسلمين، إزاء هول المفاجأة، لم يكونوا ليظلوا على موقفهم السلبى كمتفرجين، بينما المعارك تدور على أراضيهم، فى القوقاز، وفى كريميه، كما فى الفولجا وتركستان. غير أنهم لم يكونوا، خلال تلك العمليات، سوى «أدوات» غير «مؤثرة»، عليهم أن يختاروا حلفاءهم وأنصارهم، وكان اختيارهم محدوداً بين شريكين، أوثلاثة فيما ندر، وجميعهم مكروهون بنفس القدر، إما «الحمر» أو «البيض»- حيث كان يمثل البيض «ديمقراطيون»-أو «ملكيون» فى أكثر الأحيان. وفيما يتعلق بالاستراتيجية والتكتيك اللذين كان يمكن انتهاجهما، فقد اقتصرنا على أضيق الحدود لما كان يكتنفهما من أخطار، سواء كان الأمر يتعلق بالانضمام إلى «الحمر»، أو الانضواء إلى «البيض الديمقراطيين»، أو البقاء على الحياد كمتفرجين سلبيين، أو الهجرة، أو أخيراً المحاربة على جبهتين، ضد «البيض» فى البداية ثم ضد «الحمر» بعد ذلك.

بدا الاتجاه نحو «البيض» هو الخيار المنطقى والواعد بدرجة أكبر غداة استيلاء البلاشفة على السلطة. وفضلاً عن ذلك، فقد انضمت أعداد كبيرة من المثقفين المسلمين، منذ عام١٩١٨، إلى القوى المناهضة للثورة والتى كان يمثلها فى بداية الحرب الأهلية ائتلاف يضم المعتدلين، والديمقراطيين الدستوريين القدامى، إلى جانب الاشتراكيين المعتدلين، والمناشفة، والاشتراكيين الثوريين اليمينين. وكان موقفهم تجاه القوميات غير الروسية، إن لم يكن ليبرالياً، فهو واقعى على الأقل. فقد أدركوا أن ثمة حرباً أهلية ستنشب عما قريب على أراضٍ غير روسية، وأنه على الثورة المضادة، حتى تحقق النصر المنشود، أن تتاح لها إمكانية الاعتماد على مساعدة التنظيمات السياسية الخارجية. وقد نجحوا فى ذلك إلى حد ما. وهكذا، فقد استطاعت لجنة أعضاء الجمعية التأسيسية Komitet Tchlenov Utchredil,nogo Sobraniya (أوKomutch) التى أنشأها عام ١٩١٨ عدد من الاشتراكيين الثوريين اليمينيين فى مدينة سمارة، تكوين ائتلاف حقيقى مناهض للبلشفية انضمت إليه القوى الوطنية فى بشكيريا تحت قيادة أحمد زكى فاليدوف (توجان)، إلى جانب القوميين الكازاخستانيين فى آلاش أوردا، والكوزاك فى أورنبورج بزعامة «دوتوف»، أحد أتباع «هتمان».

كما تعاون البشكيريون بقيادة «زكى فاليدوف»، والكازاخستانيون فى آلاش أوردا كذلك، مع بعض التشكيلات الروسية اليسارية الأخرى المناهضة للبلشفية، مثل «حكومة سيبيريا الغربية» التى أسسها «جريشان ألماظوف» فى (أومسك) و«حكومة سيبيريا» فى

(إيركوتسك)، التى كان يرأسها «أفكسونتيف». ومن المؤكد ولاريب أن زعماء القوميين المسلمين قد قبلوا التعاون مع الروس «البيض». إلا أن البلاشفة أثاروا الرعب بما أظهروه من عنف مطلق، وإلحاد متشدد، وشراسة عدائية، فضلاً عن «الحملات» التى شنوها ضد كل ماكان يرمز إلى ماضٍ أرادوا طمس معالمه إلى الأبد، - من ديانة وثقافة وعادات - يضاف إلى ذلك على وجه الخصوص كراهية عمياء لطبقة الملاك على اختلاف أنواعهم. إلا أن زعماء الحركة الوطنية الإسلامية كانوا جميعاً ينتسبون إلى طبقات مالكة. ومع ذلك، فإن بقاء الجبهة الديمقراطية الروسية الإسلامية لم يدم طويلاً. فقد سعى الروس، منذ رحيلهم، إلى استغلال حلفائهم المسلمين وقتياً، إلا أنه لم تكن لديهم النية ولاحتىٰ القدرة على تلبية رغباتهم الوطنية. وفضلاً عن ذلك، فقد بدت الجبهة الديمقراطية عاجزة عن التصدى لتيار البلاشفة. إذ كانت تفتقر إلى وجود قوات مدربة على القتال، كما كانت الغالبية العظمى من سلاح الضباط فى الجيش القيصرى القديم من المنتمين إلى حزب الملكية الذين ينظرون بعين الاحتقار إلى المناشفة أو الدستوريين الديمقراطيين أو الاشتراكيين الثوريين، كما كانوا يتوجسون منهم كالبلاشفة سواء بسواء. والأدهى من ذلك، أنه لم يكن للجبهة الديمقراطية برنامج سياسى محدد يكفل تعبئة الجماهير. ومن ثم، فإن أيامها كانت معدودة. إلا أنه فى خريف عام ١٩١٨، طرأ تغير مشهود فى المعسكر المناهض للثورة: فقد جرى اكتساح التشكيلات «الديمقراطية» الضعيفة- دونما مقاومة من جانبها- على يد عسكريين محترفين، كالأميرال «كولتشاك» فى سيبيريا، والجنرالات «دينيكان» فى جنوب روسيا، و«يودنيتش» فى بلاد البلطيق، و«ميلليه» فى أقصى الشمال، فى مورمانسك.

اختلفت المرحلة الثانية من الكفاح ضد البلاشفة اختلافاً كبيراً عن المرحلة الأولى. فسرعان مانجح البيض فى تجهيز عدة حربية ضخمة، وهى جيش المتطوعين الذى توافرت له، رغم قلة عدده، قيادة وهيئة من الضباط ذوى الكفاءات غير العادية، تحركهم روح فدائية تعادل مايتمتع به الحمر إن لم تتجاوزها بمراحل. وقد اتخذت الحرب الأهلية منذ ذلك الحين طابعاً من الضراوة التى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ. إذ شكلت الهجمات الواسعة التى شنها مرة بعد مرة «كولتشاك» على نيجنى نوفجورود، و«يودنيتش» على بتروجراد، وبالأخص تلك التى قادها «دينيكان» على موسكو، خطراً على وجود النظام السوفياتى ذاته الذى أصبح، عام ١٩١٩، معلقاً بخيط رفيع. والواقع أنه ينبغى علينا أن نغفل كتابات المؤرخين السوفيات خلال

عصر ستالين وفى وقتنا الراهن، والتى تصور الحرب الأهلية استناداً إلى نهج مفرط فى التبسيط ويجانبه الصواب تماماً، باعتبارها مأساة مانوية(*) بين قوى (الخير والتقدم)، أى البلاشفة، فى كفاحها ضد قوى (الشر) مجسدة فى «الرجعية»، أى البيض، ونهايتها معروفة ولاريب. وعلى ضوء المؤلفات التاريخية الراهنة فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، نجدها تصور الحرب الأهلية بوصفها تلك المسيرة المظفرة لشعب يحمل السلاح مكتسحاً فى طريقه الرأسمالية، والبورجوازية، و«الحرس الأبيض»، والرجعية الكهنوتية. أما الصورة التى يقدمها الأدب السوفياتى لأعوام الحرب الأهلية فهى، على الجانب الآخر صورة أكثر واقعية، فضلاً عن كونها تعكس بصراحة بالغة ذلك الشعور الشديد بالكارثة، بل حتى اليأس والقنوط، الذى كان يحسه قادة موسكو آنذاك. إلا أن إنقاذ الثورة قد تحقق، فى المقام الأول، نتيجة للأخطاء التى وقع فيها زعماء الثورة المضادة. فقد كان الزعماء البيض، رغم تميزهم كقادة عسكريين، غير محنكين كرجال سياسة. إذ قلما أمكنهم فهم خصومهم، كما أنهم فشلوا فى تبرير كفاحهم بعبارات واضحة، كفيلة بشحذ الهمم والطاقات. كانت معركتهم سلبية تماماً فى مواجهة ما اعتبروه انحلالاً للامبراطورية، وكان الشعار الوحيد الذى رفعوه هو «من أجل روسيا واحدة لاتتجزأ»، وهى عبارة غامضة أثارت القلق لدى جميع الأجانب فى روسيا. والواقع أن هذه العبارة كانت تعنى، بالنسبة للزعماء البيض، أن المطالب الاستقلالية والنزعات الانفصالية للأقليات أمر غير مقبول كالنظام الشيوعى تماماً، إن لم يكن بدرجة أكبر، بقدر ما كانت تمثل تهديداً لوجود روسيا كامبراطورية فى حد ذاته. وسرعان ما أوضح الجنرالات البيض لحلفائهم المسلمين أنه لن يجرى الاستجابة لأى من مطالبهم، وأن روسيا المستقبل سوف تكون دولة وطنية روسية حيث لن يتاح للأقليات التمتع بالحكم الذاتى قبل عام ١٩١٧. وفى نوفمبر ١٩١٨، قام الأميرال «كولتشاك» بإقصاء «حكومة سيبيريا» التى كان يرأسها «أفكسونتيف»؛ وبعد ذلك بشهر واحد، قرر «أحمد زكى فاليدوف» ورفاقه، عند اجتماعهم فى مؤتمر سرى عُقد فى جبال الأورال، التخلى عن معسكر البيض. وفى ٢٥ يناير ١٩١٩، أمر «كولتشاك» بحل الوحدات البشكيرية التى كانت تحارب تحت قيادته وإلقاء القبض على قادتها من الضباط. وبعد ذلك ببضعة أيام، فى ٣١ يناير ١٩١٩، اجتمع مندوبون من البشكير والسوفيات بإحدى القرى الواقعة خلف خطوط النار للتفاوض على حقوق المرور. وفى

(*) مانوية (مذهب مانى الفارسى صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام) (المترجمة).

٦فبراير١٩١٩، أصدر مجلس مفوضى الشعب أمراً بالعفو عن جميع البشكيريين الذين تخلوا عن «كولتشاك». وفى ١٨فبراير، قامت الوحدات البشكيرية، معضدة بألفى مقاتل يحملون الأسلحة والعتاد، وعلى رأسهم قادتهم من الضباط، بعبور خط الجبهة، وفى اليوم لاتالى، وقع «زكى فاليدوف» اتفاقاً مبدئياً فى موسكو مع القادة السوفيات بشأن تشكيل حكومة مؤقتة فى بشكيريا تتألف من ممثلين سوفيات وبشكير بنسب متساوية. وبعد ذلك ببضعة أشهر، حذت الوحدات الكازاخستانية (ألاش أوردا) حذوهم. وفى مارس ١٩١٩، اجتمع قائدهم «أحمد باى طورسون» سراً بالمندوب السوفياتى فى (أومسك)، الكازاخستانى «جانج الدين»، مبعوثاً من قبل لينين. وبعد انسحاب الكتيبة الكازاخستانية بالتدريج إلى الفيافى، وقع «باى طورسون» اتفاقاً فى موسكو فى يونية١٩١٩ مع كل من لينين وستالين يتم بمقتضاه تأسيس حكومة كازاخستانية مؤقتة تتألف، على غرار الحكومة البشكيرية، من ممثلين سوفيات وكازاخستانيين. وجاء هذا الانتقال فى اتجاه الجيش الأحمر، لوحدات مسلمة تضم خيرة المقاتلين فى الحرب الأهلية، فى اللحظة التى حقق فيها الخصمان على الجبهة الشرقية توازناً فى القوى، حيث كان «كولتشاك» يستعد لشن هجومه الأخير ضد الجبهة الحمراء. وكانت عواقب ذلك الهجوم وخيمة على البيض. أما فى روسيا الجنوبية، فكان الوضع أسوأ. ففى الوقت الذى كان الجنرال «دينيكان» يشن هجومه الأكبر على موسكو فى صيف عام١٩١٩، قام بحل مجلس الإدارة الوطنى التترى فى (كريميه)، وأشرك قواته فى معرك دامية ولاطائل من ورائها ضد سكان الجبال المسلمين فى شمال القوقاز. وأدت تلك الحرب الدائرة على جبهتين إلى اندحار الجيوش البيضاء على جبهة موسكو. وكان قصر النظر السياسى من جانب الزعماء البيض، فضلاً عن عجزهم عن إدراك الطابع الحقيقى للثورة ومن ثم اختيار خصمهم الرئيسى، من بين الأسباب الجوهرية التى أدت إلى فشلهم فى النهاية. وبالتالى فإنه عندما سعى الجنرال «رانجل»، خليفة «دينيكان» فى (كريميه) وآخر زعماء الحركة المناهضة للثورة، فى بداية عام ١٩٢٠، إلى الاتفاق مع التتر فى (كريميه) ووعدهم بالاستقلال السياسى والثقافى، جاء ذلك الوعد متأخراً كثيرا عن أوانه.

أدرك زعماء مسلمون آخرون ممن يتمتعون بدرجة أكبر من نفاذ البصيرة منذ خريف عام١٩١٨، أن الروس على اختلافهم، سواء كانوا من الحمر أو البيض، يتسمون بنفس القدر من البشاعة، وأن ثورة أكتوبر، رغم ما أحدثته من انقلابات، لن تحدث أى تغيير فى العلاقات

الأساسية بين الروس والمسلمين. ومن ثم فقد امتنعوا، بدافع من الحرص والإدراك الواقعي لاحتمالات نشوب صراع معلن ضد السلطة الروسية الحمراء أو البيضاء، عن المشاركة بأي شكل من الأشكال في المعارك التي كانت تجرى تحت سمعهم وبصرهم. ومن بين هؤلاء، كان هناك عدد كبير من ممثلي «رجال الدين» المسلمين الذين رأوا في النضال الشوري بين البيض والحمر ظاهرة هامشية لاتشكل خطورة على مستقبل الإسلام لا في روسيا ولاخارج حدودها. كما انضم كذلك إلى تلك الفئة قوميون من دعاة الجامعة الإسلامية والجامعة التركية اهتموا بمستقبل تركيا وسائر العالم الإسلامي أكثر من اهتمامهم بمصير روسيا، إلى جانب كل أولئك الذين لم يجرؤوا على الاشتراك في الكفاح المسلح إدراكاً منهم لمدى ضعفهم. وهاجر البعض الآخر خلال الحرب الأهلية أو بعدها مباشرة، مفضلين متابعة المعركة السياسية الدائرة لتحقيق استقلال شعوبهم من الخارج.

وفي بعض الأقاليم النائية عن موسكو حيث كان اتخاذ القرارات في يد البلاشفة المحليين، اتسمت البدايات الأولى للنظام الجديد بمزيج من الفظائع والمجازر وأعمال السلب والنهب، في حين لم تكن السلطات السوفياتية تملك القوة الساحقة الضرورية لوأد جميع حركات المقاومة في المهد، ولا الهيبة والحكمة الضروريتين حتى يمكن للسكان المحليين تقبلها عن طيب خاطر. ومن ثم، فإنه كان على السوفيات أن يواجهوا ثورات شعبية بالغة الخطورة. وقد أخذت تلك الثورات في كثير من الأحيان طابعاً قاسياً وحاسماً هو طابع الجهاد، حيث وصل المقاتلون في معاركهم إلى أقصى مدى. وعلى نحو مايجرى حالياً في أفغانستان، لم يكن الغرض من القتال هو الانتصار على خصم أكثر عدداً وأفضل عدة بجميع المقاييس، ذاعت شهرته كقوة لاتقهر، وإنما البرهنة على قوة الإيمان بالتضحية بالحياة ذاتها. .هكذا كان الحال في الإقليم الجبلي بشمال القوقاز في داغستان وفي بلاد تشيشان حيث انقسم سكان البلاد الأصليون، منذ بداية الثورة، إلى مجموعات ثلاث:

-مجموعة، ضئيلة عددياً وإن كانت مؤثرة نسبياً، تتألف من المثقفين الشبان التقدميين من الطبقتين البورجوازية والأرستقراطية، انضموا إلى الحزب الشيوعي وحاربوا إلى جانب الحمر.

* ومجموعة ثانية، ضئيلة عددياً ولاتتمتع بنفوذ كبير، تتألف من العناصر الليبرالية المعتدلة التي تنتمي إلى أصل اجتماعي واحد. وقد سعت تلك المجموعة، دون جدوى، إلى

الحصول على مساندة البيض والمناشفة الجيورجيين، بل وحتى الأتراك فى وقت ما. ولم تتجاوز مطالبها التمتع بحكم ذاتى محدود فى إطار روسيا ديمقراطية ليبرالية.

* أما المجموعة الثالثة فكانت تتألف من عدد من المحافظين الكهنوتيين، تحت رعاية الطريقة النقشبندية، وكانوا يحاربون الحمر والبيض بنفس الحماسة، بل وقاتلوا مواطنيهم المعتدلين أنفسهم فى بعض الأحيان كذلك. وكان زعماء تلك المجموعة يسعون إلى إحياء الدولة الدينية التى دعا إليها «شامل». وكانت مستقلة تماماً عن روسيا حيث خضعت لحماية السلطان الخليفة فى اسطنبول.

أثارت الحرب الأهلية فى شمال القوقاز اضطرابات بالغة اقترنت بإراقة الكثير من الدماء. ودون الدخول فى التفاصيل، فإنه يكفى الإشارة إلى أن الليبراليين المسلمين سرعان ما اختفوا من على الساحة. وظل المحافظون، الذين حاربوا، قبل عام ١٩٢٠، ضد «دينيكان» إلى جانب البلاشفة تحت قيادة اثنين من المرشدين النقشبنديين، وهما الإمام نجم الدين دى جوتسو (جوتسينسكى) والشيخ أذن حاج، هم القوة الإسلامية المنظمة الوحيدة بعد أن أعاد الجيش الأحمر الاستيلاء على شمال القوقاز فى ربيع عام ١٩٢٠. وفى سبتمبر ١٩٢٠، كان النقشبنديون على رأس الثورة الكبرى التى قام بها سكان الجبال فى داغستان وفى تشيشينا ضد السوفيات. وقد اتخذ القتال، الذى امتد حتى شتاء عام ١٩٢١، طابع الجهاد المقدس ضد الروس. وكان ذلك أحد التحديات بالغة الخطورة التى واجهها الجيش الأحمر فى الأقاليم الإسلامية الواقعة على الحدود. كما كانت هذه هى التجربة السوفياتية الأولى مع حروب العصابات فى الريف، على غرار حرب المجاهدين الأفغان بعد ذلك بستين عاماً، وهى تجربة لم يكن الجيش الأحمر على استعداد لمواجهتها. وقد شكلت ثورة ١٩٢٠ جانباً من الملاحم البطولية التى تغنى بها سكان الجبال فى القوقاز. هذا ويعد ضريح «أذن حاج»، الذى وافته المنية أثناء الثورة، أحد المزارات المقدسة فى شمال القوقاز فى عصرنا الحالى حيث يؤمه الزوار باعتباره من الشخصيات البارزة الجليلة. وقد كافح الثوار حتى الرمق الأخير بالمعنى الحرفى للكلمة. ولم يتم أسر نجم الدين جوتسينكى والبقيه الباقية من رفاقه وإعدامهم إلا فى عام١٩٢٥.

انتهج النظام الجديد فى آسيا الوسطى نهجاً مطابقاً تماماً للنهج الاستعمارى، وبدا فى نظر المسلمين أسوأ إلى حد كبير من نظام الحكومة القيصرية أو حكومة «كيرينسكى». فقد اشتهر بمجازر بشعة، مثل نهب (كوكان)، فى فبراير١٩١٨، والذى راح ضحيته نحو ٦٠٠٠٠

من المسلمين، وغزو إمارة بخاري، في مارس ١٩٢٨، والذي انتهى بكارثة شهدت، طبقاً لرواية السوفياتي «جريجوري سافاروف» في Kolonïal, naia Revolutsiia-Opyt Turkesta-na (موسكو،١٩٢١)، «مذابح وأعمال سلب ونهب وتجاوزات دون حدود، وبصورة غير مقبولة، من جانب جنود الجيش الأحمر».وكانت تلك التجاوزات باعثاً لقيام الثورة الكبرى بين البسماتشيين؛ التي بدأت في ١٩١٨، وامتدت بصورة غير منتظمة حتى عام١٩٢٨ بل وحتى عام ١٩٣٦ في بعض الأقاليم. ولفظ (بسماتش)، ويعني قاطع طريق باللغة الأوزبكية، كان الروس يطلقونه على المناصرين على اختلاف أنواعهم الذين يعملون على نحو مستقل عن بعضهم البعض في عدة أقاليم. وكان المركز الرئيسي للثورة يقع في وادي الفرغانة. وبعد غزو الجيش الأحمر لبخاري في سبتمبر ١٩٢٠، امتدت الثورة إلى الإقليمين الشرقي والجنوبي من إمارة بخارى القديمة، لاسيما جنوبي مايعرف حالياً باسم أوزبكستان، وهي أراضي قبلية اللوكاي البدوية الكبرى، وفي الإقليم الشمالي من البراري التركمانية. وعلى ذلك، فإن قيادة الحركة جاءت غير متجانسة: زعماء محليون ينتمون إلى طبقة أعيان القرى أو القبائل، وزعماء قبائل تركمانية أو لوكايية، وزعماء دينيون تقليديون، ومرشدون صوفيون، إلى جانب زعماء قوميين قدامى من (كوكان) أوغيرها. كما انضم إليهم أحمد زكي فاليدوف، الرئيس السابق للجنة الثورية البشكيرية، وأونفيه باشا، وزير الدفاع التركي المخضرم. إلا أن هذا الأخير لقي مصرعه خلال إحدى المعارك التي جرت عام١٩٢٢. وقد كانت أهدافهم بسيطة وبدائية إلى حد قد تبدو معه المفاهيم الأيديولوجية والبرامج السياسية غير ذات موضوع في هذا الصدد. إذ كان الأمر يتعلق بثورة شعبية تلقائية، أولية وفطرية، ضد «الكفرة»، «الطغاة»، تتسم بطابع اجتماعي وديني. فقد وضعت تلك الثورة الفلاحين الفقراء وبدو بعض القبائل الأوزبكية والكيرجيزية والتركمانية، وجهاً لوجه أمام الغازي الأجنبي القوي، ذلك العدو القديم الذي عاود الظهور في شكل جديد، وقد عقد النية ليس على الاستيلاء على أراضيهم ومراعيهم وحسب، بل وتدنيس عالمهم الروحي كذلك. ومن ثم، فقد كان القتال ضد البسماتشيين ولاريب من أصعب العمليات القمعية التي كان على الجيش الأحمر الاضطلاع بها على مدى تاريخ الاتحاد السوفياتي بأكمله.

كان أمام المسلمين خيار آخر، يتمثل في الانضمام إلى صف البلاشفة وقبول الماركسية-اللينينية، بصدق أو بغير ذلك باعتبارها الأيديولوجية السياسية الوحيدة، مع الاستمرار

كمسلمين وقوميين فى الوقت ذاته. وقد رجح ذلك الخيار، بشئ من التردد أو دونما تردد على الإطلاق، عدد كبير من المثقفين، من بينهم عقليات لامعة ومتميزة إلى حد كبير. وتزعم صفوفهم سلطان غاليف «وتيرار ريسكولوف». وكان معظمهم، إن لم يكونوا جميعاً، ينتمون إلى المعسكر القومى، بين مجددين قدامى، ودعاة راديكاليين إلى الجامعة التركية والجامعة الإسلامية، وأعضاء فى اللجنة الاشتراكية بقازان فى أحيان كثيرة، أو فى الجناح اليسارى للبخاريين الشبان فى تركستان. وقليلون هم من كانوا يجاهدون، قبل عام١٩١٧، داخل تنظيمات سياسية روسية (الحزب الاشتراكى الثورى بوجه عام)، إلا أن أياً منهم لم يكن ينتمى إلى الحزب البلشفيكى. وتجدر الإشارة إلى أنه، من بين الأسباب العديدة التى دفعتهم إلى الانضمام لصفوف الحزب البلشفيكى، كان المسلمون يفتقرون إلى دافع واحد، وهو الالتحام التام، بل شبه المقدس، بالماركسية، والذى كان من الأمور الجوهرية بالنسبة للمسيحيين واليهود. فهذا الجانب العقائدى للشيوعية لم يكن بذى أهمية للمسلمين الذين انضووا تحت الراية الحمراء بدوافع عملية أكثر من كونها نظرية. فماذا عساها تكون تلك الدوافع؟

كان البلاشفة يمثلون أهون الضررين. فقصر النظر السياسى من جانب قادة الجيوش البيضاء، فضلاً عن افتقارهم التام للإدراك السليم فيما يتعلق بالمشكلة الوطنية للمسلمين وآمالهم وتطلعاتهم، كل ذلك قد جعل من تقبل البلاشفة أمراً ممكناً. وكان من أوضح الأمثلة على ذلك مايتعلق بالبشكيريين والكازاخستانيين فى (آلاش أوردا)، الذين انتقلوا إلى جانب البلاشفة رغماً عن إرادتهم، حيث اضطروا إلى ذلك كرهاً. إلا أن نفس الشئ انطبق كذلك على الأوكرانيين والجيورجيين. يضاف إلى ذلك رد الفعل الطبيعى، لدى من وقفوا موقف المتفرج فى البداية، للمبادرة إلى مساعدة المنتصر. وهكذا فإنه بعد الهزيمة التى مُنى بها «دينيكان» فى مواجهة موسكو عام١٩١٩، بدا الحمر فى موقع المنتصر المظفر.

ورغم أن البلاشفة كانوا يرمزون إلى المجهول، إلا أن حزبهم كان من المدارس الممتازة، بفضل ما اتسم به من نظام، وتنظيم، وفعالية، إلى جانب أساليبه فى الدعاية والتعبئة الجماهيرية، وتنظيمه السرى والتآمرى. ومنذ عام١٩١٨، أدرك بعض القادة القوميين المسلمين أنه لن يتسنى لهم، فى المستقبل القريب أو البعيد، نيل مطالبهم الوطنية إلا بمحاكاة النموذج البلشفى من قريب، والانضمام إلى مدرسة الثوار الذين نجحوا فى الإطاحة بأكبر حكومة ملكية مطلقة فى العالم. وهكذا أصبحت الاشتراكية الماركسية هى الصيغة السحرية العالمية، القادرة

على حل جميع مشاكل الأقليات. وأخيراً فإن القوميين المسلمين، بانضوائهم تحت لواء الاشتراكية،كانت آمالهم تتجاوز البلاشفة الروس إلى الحصول على التأييد، أو التعاطف على الأقل، من جانب الحركة الاشتراكية الدولية.

ومن ناحية ثالثة، فإن الوعود التى تضمنتها «رسائل أبريل» التى وضعها لينين، رغم ما اكتنفها من لبس وغموض، قد لوحت للمسلمين ببارقة أمل فى إمكانية الحصول على حق الانفصال. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن «دولانية» الثورة الشيوعية من شأنها أن تتيح لهم الحصول بصورة أسرع على المساواة فى الحقوق مع الروس. وفضلاً عن ذلك، ألم تكن سلطة الحزب البلشفيكى فى يد غير الروس؟ كان «تروتسكى» و«زينوفييف»، و«راديك»، و«كامينيف» من اليهود، كما كان «بيلاكون» مجرياً من أصل إسرائيلى، فى حين كان «فرونزيه» ليتوانياً، «ستالين» و«أوردجونيكيدزيه» جيورجيين، كما كان «ميكوايان» و«شاوميان» و«كاراخان» أرمن، و«راكوفسكى» رومانياً، أما «جوف» فكان كارايبتياً ولغته الأم التترية. ولم يكن بوسع أحد، حتى من هم أكثر تشاؤماً، أن يتنبأ فى عام ١٩٢٠ بأن سيادة الروس سوف تعود من جديد بعد بضعة أعوام، أو أن قادة روسيا الستالينية سوف يسلكون تجاه الأجانب على نحو لم يكن لينكره عليهم «إيفان» الرهيب أو «بيير» الأعظم.

وأخيراً، فإن الأكثر تفاؤلاً، أو بالأحرى من هم أكثر سذاجة، قد ذهبوا فى ذلك مذهباً بعيداً، فى تصورهم أن الثورة ماهى إلا امتداد، داخل الأقاليم الإسلامية، للحركة الإصلاحية الجديدة التى ستحفظ كل وعودها. واعتقد آخرون، إمعاناً فى الجرأة أو فى القدرة على التصور، أن ثورة أكتوبر ليست سوى خطوة أولى على الطريق نحو تحرير العالم الإسلامى قاطبة من ربقة الأوروبيين، وأنه من شأن الشيوعية، أفضل من أى نظام سياسى آخر، أن تتيح للمسلمين القصاص من المستعمرين جميعاً، بما فيهم الروس. والأرجح أن يكون ذلك هو موقف سلطان غالييف. وموجز القول إن جملة المسلمين تقريباً الذين بادروا، نحو عام ١٩٢٠، إلى اعتناق الماركسية اللينينة كعقيدة رسمية، لم يروا فى الشيوعية سوى وسيلة، وإن كانت غير مسبوقة إلا أن الآمال كانت معقودة على فعاليتها دون ماعداها فى تحقيق مايصبون إليه من استقلال. وقليلون هم من تصوروا أنه يمكن للشيوعية والإسلام لا التحالف بصورة مؤقتة وحسب، بل والمصالحة على نحو دائم ومستمر كذلك. ولم يكن سلطان غالييف بالتأكيد واحداً من ذلك الفريق من الحالمين.

كانت تلك إذن هى الدوافع التى حدت بشق كبير نسبياً من الإنتلجنتسيا الإسلامية فى روسيا إلى التحالف مع البلاشفة. ولعله من الغريب أن هؤلاء لم يولوا اهتماماً كبيراً للإسلام إلا باعتباره مشكلة سياسية، كما أنهم لم يبذلوا أى جهد تقريباً، رغم ما تشير إليه مؤلفات المؤرخين السوفيات فى الوقت الحالى، لاجتذاب العون من جانب المسلمين فى روسيا.

وكلنا يعلم موقف الازدراء الذى انتهجه ماركس وإنجلز حيال الإسلام، كما حذا لينين حذوهما فى هذه النقطة، فكان لهما التابع الأمين. وفى أثناء الثورة، بل وحتى خلال الأعوام المأساوية التى استغرقتها الحرب الأهلية، أظهر اهتماماً أكبر بالمناقشات الجدلية المذهبية ضد أحد أتباع «كوتسكى» أو الماركسيين الجنوبيين مما أبداه تجاه مشكلة التعايش بين الشيوعية والإسلام. ولم تحظ الأقليات غير البروليتارية، ومن بينها المسلمون، باهتمامه إلا من الناحية التكتيكية البحتة. كما كان يردد دون كلل أنه ينبغى التعامل معهم بمنتهى الفطنة والكياسة، مع تجنب «جرح كبريائهم الوطنى»؛ إلا أنه لم يسلم بأى اتفاق، أو اتحاد بالأحرى بين العقيدة الماركسية التى ترقى إلى حد القداسة من جانب، والتطلعات الوطنية للمسلمين من جانب آخر. فالأمر يقتضى أن تؤخذ الشيوعية، باعتبارها الحقيقة الفذة القاطعة والغاية المنشودة على مدى تاريخ البشرية بأكمله، «جملة واحدة» كما هى، ودون أدنى إضافة أو تعديل أو تجزئة. أما الحلفاء المسلمون العابرون، «رفاق الطريق» أو الشيوعيون المحدثون، فينبغى إعادة تدريبهم حتى يصبحوا شيوعيين بقوة القانون، مثل رفاقهم الروس أو اليهود أو الألمان، وإذا ما أظهروا تذمراً تجاه التربية الجديدة، فليُتركوا فى منتصف الطريق حتى ينتهى بهم الأمر كماً مهملاً فى صندوق نفايات التاريخ.

الفصل الثالث
رفيق ستالين
نوفمبر ١٩١٧-أغسطس ١٩١٨

الفصل الثالث
رفيق ستالين
نوفمبر١٩١٧ - أغسطس١٩١٨

خلال فترة وجيزة لاتتعدى العشرة شهور، فيما بين سقوط الحكومة المؤقتة وتطور الحرب الأهلية، أرسى سلطان غالييف قواعد تنظيمه الشيوعى الإسلامى المستقل. وتؤكد العزيمة التى اندفع بها فى العمل التنظيمى، فضلاً عما تميزت به أفعاله من سرعة ودقة، أن الهدف الذى سعى إلى تحقيقه كان محصلة عمل تمهيدى طويل من تأمل فكرى، وربما كذلك مناقشات مع غيره من المجاهدين القوميين اليساريين، وعلى رأسهم صديقه ملا نور فاهيتوف الذى كان قد قرر، مثله تماماً، منذ ماقبل أكتوبر١٩١٧، أن يلعب بورقة البلاشفة. ومن الأرجح، رغم عدم وجود دلالة واضحة فى هذا الشأن، أن مذهبه فى الشيوعية الوطنية كان قد تبلور بالفعل، فى خطوطه العريضة على الأقل. وخلال تلك الفترة السابقة على الحرب الأهلية بما اتسمت به من فوضى وتخبط، حيث لم يكن كثير من الزعماء البلاشفة أو المناهضين للثورة يدركون تماماً مايتعين عليهم القيام به، أثار نشاط سلطان غالييف الدهشة بقراراته الحاسمة. فقد كان، بعكس الآخرين، أصدقاءً كانوا أم أعداءً، «يدرك مايفعله»، وكل ماكان يريده يمكن تلخيصه فى عبارة وجيزة: انتهاز جو الفوضى التى كانت روسيا غارقة فيها وحاجة البلاشفة لحلفاء بأى ثمن فى الصراع الوشيك من أجل انتزاع تنازلات من قادة روسيا الجديدة، وستالين على وجه الخصوص، نظرية بقدر ماهى عملية، تكون قاطعة على نحو لايمكن النكوص به على حد اعتقاده، حتى وإن كانت تخالف الماركسية السابقة على لينين من حيث النظرية والتطبيق. وليس ثمة شك فى أن تحليل الوضع السياسى لروسيا غداة استيلاء البلاشفة على السلطة، على نحو ما أجراه سلطان غالييف آنذاك، كان منطقياً تماماً، إذا ماعلمنا أن القادة البلاشفة، لاسيما ستالين، كانوا فى حاجة إلى حلفاء بالفعل، كما كانوا على استعداد للذهاب إلى أبعد مدى على طريق التنازلات. إلا أن الخطأ الذى وقع فيه هو الاعتقاد بكونها قاطعة ولارجعة فيها.

فى أكتوبر١٩١٧، انضم سلطان غالييف والعديد من رفاقه التتر، ومن بينهم ملا

نورفاهيتوف وغالمجان إبراجيموف، إلى الحزب الشيوعى الروسى، فكانوا من أوائل من بادر إلى ذلك بين المسلمين. إلا أن القرار كان من الصعوبة، بما يحمل على الاعتقاد بأن سلطان غالييف قد عكف طويلاً على تدبر الأمر بتمعن قبل اتخاذ تلك الخطوة التى ربطته إلى الأبد بحزب خضع لسيطرة الروس إلى حد كبير بعيداً عن بتروجراد أو موسكو، رغم ماكان ينادى به من دولانية بروليتارية. وفضلاً عن ذلك، فقد بدا النظام الجديد نظاماً روسياً بحيث ظلت جميع المؤسسات الوطنية التترية المنشأة فيما بين مايو وأكتوبر١٩١٧ تعمل بعد أكتوبر وكأن شيئاً لم يكن، وكما لو كانت «الثورة» مسألة روسية بحتة لاتعنى الأقليات من قريب أو بعيد. وهكذا، فقد كان انسلاخ التترى عن معسكره الذى ينتمى إليه من أجل الانغماس فى صراع يقف فيه الروس بعضهم فى مواجهة البعض الآخر، لايمثل فى نظره سوى الخيانة بعينها. وانتشرت إحدى الطرائف على شكل أحجية داخل قازان فى ديسمبر١٩١٧ على النحو التالى:

«من هو البلشفى التترى؟- هو شخص فقد عقله فى الحرب فاستبدلوه له بعقل روسى.»

ولعل سلطان غالييف كان مدركاً تماماً لخطورة انضمامه إلى الحزب الشيوعى الروسى، وفى ذلك كتب عام ١٩١٨ فى صحيفة Qoyash (الشمس) الصادرة فى قازان، كما لو كان يعتذر ويلتمس الذرائع لنفسه أمام مواطنيه المسلمين، مانصه: «أتيت إلى البلشفية، مدفوعاً بحب جارف يخفق به قلبى تجاه شعبى.»

وفضلاً عن ذلك، فقد بقيت الجبهة الوطنية الإسلامية، التى تألفت فى مايو١٩١٧ خلال المؤتمر الروسى الجامع الأول للمسلمين فى موسكو وأحكم تنظيمها فى يولية١٩١٧ خلال المؤتمر الإسلامى الثانى فى قازان، سليمة حتى فبراير١٩١٨. واستمرت بعض الجماعات السياسية المنتمية إلى أقصى اليسار، من الاشتراكيين الثوريين بل وحتى البلاشفة، فى التعاون مع الليبراليين والاشتراكيين اليمينيين. وعلى ذلك فإنه غداة استيلاء البلاشفة على السلطة، كانت التنظيمات الإسلامية تتضمن مايلى:

- فى بتروجراد، المجلس الوطنى أو مايسمى Milli Shuro، وكان يرأسه أحمد بك تساليكوف، أحد المناشفة الأوسيت، أما جهازه القيادى فهو اللجنة التنفيذية، I.K.O.M.U.S.، التى كان يرأسها الاشتراكى الثورى التترى آياز إسحاقى.
- فى قازان، المجلس العسكرى أو مايسمىHarbi Shuro
- فى أوفا، الإدارة الوطنية أو Milli Idare ، وكان يرأسها التترى الدستورى

الديمقراطى صدرى مقصودى، وتتبعها ثلاث نظارات Nizarat، وقد وجهت، فى ٢٠ نوفمبر١٩١٧، الدعوة إلى الجمعية الوطنية (Nillet Medjlisi) للانعقاد، حيث ضمت مجموعة بارزة من الاشتراكيين الثوريين اليساريين، ومن البلاشفة برئاسة الكاتب التترى غالمجان إبراجيموف.

وحتى يناير ١٩١٨، أظهرت تلك الهيئات المختلفة تأييدها للنظام الجديد إلى حد بعيد. فقد أعلن أعضاء المجلس العسكرى فى قازان، الذين اتخذوا جانب الحياد خلال المعارك التى جرت فى ٢٥ أكتوبر وأسفرت عن وصول البلاشفة إلى السلطة، غداة الانقلاب «أنهم قد قطعوا على أنفسهم عهداً علنياً مقدساً بمساندة سلطة مجالس السوفيات حتى آخر قطرة من دمائهم». أما فى أوفا، فقد انعقد المجلس الوطنى فى جو من الترقب المشوب بالحذر. وفى خلال إحدى الجلسات التى امتدت ثلاثة أيام وتخللتها جلسات مغلقة، رفضت غالبية أعضائه إصدار بيان لتحديد موقفهم من الانقلاب، إلا أنهم دفعوا المعارضة من حزب اليسار إلى إرسال برقية تهنئة إلى مجلس مفوضى الشعب فى بتروجراد. وليس ثمة دليل أوضح على وحدة الجبهة الوطنية الإسلامية من انعقاد مؤتمر عام قازان بتاريخ ١٢ نوفمبر١٩١٧، للتنظيمات التترية التى كانت تضم ممثلى الأحزاب البورجوازية، والاشتراكيين، وأعضاء اللجنة الاشتراكية الإسلامية، ومن بينهم سلطان غالييف، بل وحتى البلاشفة، حيث كان الثوريون والمناهضون للثورة يعملون جنباً إلى جنب. غير أن العلاقات تدهورت، فى يناير١٩١٨، بين السلطة السوفياتية فى موسكو من جانب والتنظيمات الإسلامية من جانب آخر. فبعد حل الجمعية التأسيسية فى١٩ يناير١٩١٨، كلفت الجمعية الوطنية المجلس الوطنى بحشد الوحدات التترية والبشكيرية بغية «حماية إقليم الفولجا– الأورال» ضد «أى خطر خارجى»، أبيض أم أحمر على حد سواء. وعلى ذلك فإنه فى أوائل فبراير١٩١٨، كانت تخضع لقيادة المجلس العسكرى قوة عسكرية مهيبة، قوامها ٢٠٠٠٠ رجل فى قازان، و ١٠٠٠٠ فى أورونبورج، إلى جانب عدد يتراوح بين ١٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ مقسمين بين مدن الإقليم الأخرى: أستراخان، وسمارة، وأومسك، وإيكاترانبورج، إلخ. وعلى هذا النحو، كان المجلس العسكرى الإسلامى يضم عدداً إجمالياً يبلغ نحو ٥٠٠٠٠ مقاتل.

وعلى الرغم من التهديد الذى كان يمكن أن تمثله تلك الاستعدادات، إلا أن الحكومة السوفياتية لم تحاول الانفصام عن التنظيمات الإسلامية، بل إن لينين أبدى استعداده لمساندة

الجماعات الإسلامية التى قد تعرب عن رغبتها فى الاعتراف بحكومته. إلا أن قادة موسكو كانوا أكثر انشغالاً بأمور أخرى تحول دونهم والاهتمام بالشؤون الإسلامية؛ إذ لم تكن قد تبلورت لديهم بعد سياسة محددة فيما يتعلق بالقوميات، كما كان اهتمامهم الرئيسى ذا طابع عملى، يتمثل فى كيفية استقطاب حلفاء بإصدار تصريحات رنانة واتخاذ إجراءات تفضيلية شكلية. ومن ذلك النداء الذى وجهه مجلس مفوضى الشعب إلى العمال المسلمين فى روسيا والشرق بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٧، متضمناً بذل الوعود بأقصى درجات الحرية الدينية وإمكانية تنظيم حياتهم الوطنية «بحرية ودون عقبات»، والقرارات الصادرة عن نفس المجلس فيما يتعلق بنقل مصحف عثمان الشريف المحفوظ فى المكتبة الوطنية فى بتروجراد إلى المؤتمر الإقليمى الإسلامى، وأخيراً الإهداء الرمزى لبرج سويوم بيك فى قازان، رمز القومية التترية، إلى العمال المسلمين ممثلين فى اللجنة الاشتراكية فى قازان. بل لقد حاول القادة السوفيات الاتفاق مع التنظيمات «البورجوازية»، على أمل أن يعهدوا إليهم بكسب الجموع الوطنية لصالح قضية الثورة. وتحقيقاً لذلك الغرض، اقترح ستالين، مفوض الشعب لشؤون القوميات، على أحمد بك تساليكوف، رئيس المجلس الوطنى فى بتروجراد، التعاون مع النظام السوفياتى بشروط ملائمة للغاية: أن يحتفظ المجلس الوطنى باستقلاله، وأن يتم تعيين تساليكوف رئيساً لمفوضية الشؤون الإسلامية التى اقترحت الحكومة إنشاءها فى المستقبل القريب. وقد نقل تساليكوف ذلك الطلب إلى الجمعية الوطنية التى رفضت العرض بأغلبية كبيرة. ومن ثم فقد سعى ستالين إلى اجتذاب شخصية إسلامية أخرى من بين أولئك المجتمعين فى بتروجراد تمهيداً للاجتماع التالى للجمعية التأسيسية. ووقع اختياره على ملا نورفاهيتوف الذى وافق على الفور. كانت هذه المساومات تجرى فى ديسمبر ١٩١٧. وخلال تلك الفترة ذاتها أو قبلها مباشرة، وجه ستالين، وكان قد انتهى لتوه من إنشاء مفوضية الشعب لشؤون القوميات (Narkomnatz)، نداءً إلى سلطان غالييف ليتولى إدارة القسم الإسلامى بها. وكان ذلك منعطفاً حاسماً فى حياة سلطان غالييف.

غير أننا نجهل تماماً البواعث التى دفعت ستالين إلى اختيار ذلك القائد التترى الشاب. كان سلطان غالييف ولاريب حديث العهد بالشيوعية والبلشفية، إلا أن أحداً، ولاقادة موسكو أنفسهم، لم يكن بوسعه إلا أن يأخذ ماركسيته الوليدة مأخذ الجد. فقد كان الجميع فى قازان يدركون أن سلطان غالييف قومى متشدد وعدو للروس. وإذا ماعلمنا مدى الدقة المذهبية التى

كان البلاشفة الأوائل يختارون بها المرشحين للحزب الشيوعى، فإنه قد يساء فهم ماانتهجوه من ليبرالية متطرفة عندما كان الأمر يتعلق بانضمام زعماء مسلمين إلى الحزب ممن لم يكن لحماسهم نظير سوى جهلهم بالماركسية. إلا أن أسباب اختيار قوميين مسلمين لعضوية الحزب تتضح إذا ماسلمنا بأن قادة موسكو قد أدركوا، منذ ديسمبر١٩١٧، أن انتصارهم كان من السهولة بما يتعذر معه استمراره، وأن «الجولة» الثانية فى مواجهة الخصم المهزوم وإن لم يكن قد تلقى الضربة القاضية بعد هى أمر جد وشيك. وكان على ستالين، فى غياب المسلمين الماركسيين والبروليتاريين، أن يلجأ إلى القوميين من أصل بورجوازى أو أرستقراطى، وكانوا يتحدثون الروسية بطلاقة دون غيرهم. ثم اعتمد بعد ذلك على الديناميكية الساحقة للماركسية اللينينية من أجل إعادة تدريب رفاق الطريق وتحويلهم إلى شيوعيين حقيقيين. ولم يكن لأحد أن يتنبأ فى ذلك الوقت، خلافاً لتأكيدات كارل ماركس وسائر أنبياء الماركسية، بما فيهم لينين ذاته، بأن القومية، لاسيما القومية الإسلامية، يمكن أن تفوق الشيوعية من حيث قدرتها على التعبئة الجماهيرية. غير أنه ليس من المستبعد كذلك أن ستالين قد أدرك، منذ عام١٩١٨، أن التحالف بين البلاشفة والمسلمين حتى من انضموا منهم إلى الماركسية هو مجرد تحالف عابر، وأنه سوف ينتهى حتماً بالتصفية الدموية لأطرافه.

ومالبث ستالين أن كلف سلطان غالييف بزيارة شاملة للأقاليم الإسلامية. ومن ثم فقد توجه إلى سيبيريا الغربية، وكريميه، وشمال القوقاز، وتركستان، بل وحتى باكو. إلا أن التقارير التى أعدها ظلت مدفونة للأسف فى محفوظات مفوضية الشعب لشؤون القوميات، بعيداً عن متناول المؤرخين الغربيين منهم والسوفيات على حد سواء. غير أن الشئ المؤكد هو أن تلك الزيارات قد أتاحت لسلطان غالييف أن يلمس بنفسه ذلك المسلك المتعجرف و«الاستعمارى» من جانب البلاشفة الروس المحليين تجاه المسلمين الذين كانوا يلقون الاحتقار والاضطهاد بصورة مزدوجة، باعتبارهم «مؤمنين» و«غير بروليتاريين» فى آن واحد. كما يمكن الاعتقاد كذلك بأنه قد اكتسب، لدى عودته من تلك البعثات، فى ربيع عام ١٩١٨، قناعة مؤداها أن البروليتاريا الأوروبية، بما فيها البروليتاريا الروسية، سوف تعمد، فيما يتعلق بالسياسة الوطنية، إلى انتهاج السياسة القديمة المتمثلة فى استغلال وقهر الطبقة البورجوازية، فى مواجهة الأقليات الإسلامية.

لم تلبث سلطة سلطان غالييف داخل مفوضية الشعب لشؤون القوميات أن اتسعت بشكل

ملموس. فقد أصدر مجلس مفوضى الشعب مرسوماً فى ١٥فبراير١٩١٨ يقضى بإنشاء «كلية» ملحقة بمفوضية الشعب، تكون بمثابة جهاز مصغر للتوجيه الأيديولوجى، وهيئة خبراء حقيقية لستالين، يرأسها ذلك الأخير، ويشارك فيها سلطان غالييف. وفى١٩يناير ١٩١٨، صدر مرسوم من مجلس مفوضى الشعب يقضى بإنشاء المفوضية المركزية للشؤون الإسلامية لروسيا الداخلية وسيبيريا، (Tsentralnyi Kommissariat po delam Musul,man Vnu-trenneï Rossii i Sibiri) التى اشتهرت باسم المفوضية الإسلامية Muskom، وكانت ملحقة بمفوضية الشعب لشؤون القوميات. وقد عُين ملا نورفاهيتوف رئيساً لها، يعاونه نائبان للرئيس، هما غالمجان إبراجيموف، وهو كاتب تترى، اشتراكى ثورى يسارى، وعضو فى الجمعية الوطنية، ممثلاً عن «حكومة» أوفا، وشريف ماناتوف، وهو بشكيرى اشتراكى يسارى. كما جرى تعيين سلطان غالييف فيها اعتباراً من يونية١٩١٨، ممثلاً عن الحزب الشيوعى. وقد أسهمت تلك الهيئة إلى حد كبير فى تسييس و«بلشفة» المجتمع الإسلامى فى روسيا.

ومع أنها قد أنشئت بقرار من الحكومة السوفياتية، إلا أن المفوضية الإسلامية قد سبقها ازدهار تلقائى لمؤسسات مماثلة فى جميع الأقاليم الإسلامية بروسيا. فقد ظهرت المفوضات الإسلامية الأولى منذ انقلاب أكتوبر، بفضل نشاط التنظيمات المحلية، كاللجان الاشتراكية، والخلايا البلشفية، وجماعة الاشتراكيين الثوريين اليسارية، وكانت تتبع الجمعية الوطنية فى بعض الأحيان على أساس التنظيمات «البورجوازية» القديمة، وبنفس الجهاز الإدارى غالباً. وعلى ذلك، فإنه عشية الهجوم الذى شنته الجيوش البيضاء على الفولجا فى يولية١٩١٨، كانت كل أقاليم روسيا الأوروبية التى يقطنها سكان مسلمون على قدر من الأهمية مغطاة بشبكة كثيفة من المفوضات الإقليمية، فى الريف والحضر على حد سواء، يسيطر عليها جميعاً متحزبون قوميون انضموا إلى النظام الجديد. كان اهتمام المفوضية الإسلامية، على نحو ما يقتضيه هيكلها ذاته، منصباً على حياة المسلمين فى روسيا بكافة جوانبها. وكانت تضم عدة شُعَب هى شعبة العمل، والزراعة، والصناعة، والتعليم، والصحافة، والمالية، والعدل، والجيش، والدعاية الدولية، كما كانت تنقسم إلى خمسة أقسام جغرافية هى بشكيريا، والقوقاز، وكريميه، وتركستان، وكيرجيزيا (كازاخستان). وفى صيف عام١٩١٨، كانت لها فروع فى ست وعشرين مدينة رئيسية فى روسيا.

كان من شأن بعض الإجراءات المتخذة فى ربيع وصيف عام ١٩١٨ توسيع اختصاصات

المفوضية المركزية الإسلامية، فضلاً عما أتاحته من زيادة إمكانيات الحركة لدى كل من سلطان غاليف وفاهيتوف. فقد أصدرت مفوضية الشعب لشؤون القوميات مرسوماً فى ٢٧ يناير ١٩١٨ يقضى بوضع جميع الأقسام الإسلامية فى مجالس السوفيات المحلية تحت سلطتها. وبعد ذلك بخمسة أشهر، أصدر مجلس مفوضى الشعب مرسوماً فى ٢٩ يونية ١٩١٨ يقضى بضم المفوضيات الإسلامية أو Muskom إليه، بالإضافة إلى بعض اللجان على مستوى الأقاليم gubmuskom والمقاطعات أو uezdmuskom . كما صدر فى نفس اليوم، مرسوم آخر عن نفس المجلس بإنشاء المجمع المركزى العسكرى الإسلامى (Tsentrmusvoenkollegiya) ، حيث يتبع مفوضية الشعب لشؤون الحرب من الوجهة النظرية، وإن كان يخضع للمفوضية المركزية الإسلامية من الناحية الفعلية. وكان سلطان غاليف أول من يرأسه، ومن بين أعضائه فاهيتوف. إلا أن أهم المفوضيات الإقليمية وأكثرها نشاطاً كانت مفوضية قازان التى أنشئت فى ٢١ فبراير ١٩١٨ ورأسها سلطان غاليف للمرة الأولى كذلك. وفى البدايات الأولى للنظام السوفياتى، لم تكن تلك الهيئات الإسلامية المختلفة، المستقلة عن مجالس السوفيات المحلية، تخضع إلا للمفوضية المركزية الإسلامية. بل إن بعضها قد أنشئ ضد الإرادة الصريحة للتنظيمات السوفياتية المحلية التى يسيطر عليها الروس. ومن ثم فقد شكلت نواة لإدارة إسلامية مستقلة، أى دولة حقيقية داخل الدولة، كانت تمثل للجموع الإسلامية، فى وقت اتسم بالفوضى البالغة من نواحٍ عديدة، المركز السياسى والتنظيم المنوط بالتعليم والعمل والعدل والشؤون العسكرية فى آنٍ واحد، لاسيما تعبئة وحشد الإرادات داخل الوحدات الإسلامية الحمراء.

ولم يلبث سلطان غاليف أن أدرك بعد ذلك الأهمية الرئيسية التى مثلتها المفوضيات الإسلامية خلال الأشهر الأولى للثورة:

«لعبت المفوضيات الإسلامية فى البداية دور مجالس القيادة الثورية للحركة التترية. إذ لم تقتصر على معاونة مجالس السوفيات المحلية فحسب، بل كانت تمثل السلطة العامة كذلك، باعتبارها أجهزة سياسية وإدارية فى نفس الوقت. وقد قامت بعمل ضخم، لاسيما فى مجال التحريض الدعائى والنهضة الثقافية.»

كانت المفوضية المركزية الإسلامية تختص مباشرة بالدعاية السياسية بين المسلمين عن طريق الصحافة. إذ قامت، فى غضون عشرة شهور، من يناير إلى نوفمبر ١٩١٨، بإصدار أكثر

من ٤ ملايين نسخة من الصحف باللغات التترية والكيرجيزية والتركية، بالإضافة إلى ٢٢٩٥٠٠ نسخة من الكتيبات والنداءات والبيانات المختلفة. ففى موسكو، ظهرت صحف Tchulpan (نجمة الصباح) وتصدر منها ٥٠٠٠٠ نسخة، وQzyl Armiya (الجيش الأحمر) الموجهة إلى المقاتلين المسلمين، و Eshchc (العامل)، وكلها تصدر باللغة التترية. وفضلاً عن ذلك، فقد كان لكل من المفوضيات الإسلامية الإقليمية صحيفتها الناطقة بلسانها، مثل (العمل) فى قازان، وKöresh (النضال) فى أوفا، وTartysh (القتال) فى أستراكان. وكان سلطان غالييف يشرف على ذلك العمل الضخم، حيث اضطلع بنفسه بترجمة النصوص الأساسية للماركسية التى سبق ترجمتها للروسية إلى اللغة التترية، مستفيداً فى ذلك بملكاته الصحفية القديمة.

وإلى جانب نشاطه داخل مفوضية الشعب لشؤون القوميات، وفى المفوضية المركزية الإسلامية، فى سبيل توفير إدارة ذاتية ومستقلة للمسلمين فى روسيا بعيداً عن سيطرة مجالس السوفيات، أراد سلطان غالييف، منذ يناير١٩١٨، إرساء دعائم حزب شيوعى إسلامى مستقل. إذ لم تكن أية جماعة سياسية إسلامية قد تبنت رسمياً برنامج الحزب البلشفيكى حتى قيام ثورة أكتوبر. وعلى ذلك، فإنه لم يكن أمام الثوريين المسلمين خيار آخر سوى الانضمام بصفة فردية إلى الحزب الشيوعى الروسى، أو الالتفاف حول اللجنة الاشتراكية الإسلامية فى كازان، التى أصبحت اللجنة المركزية للاشتراكيين الشيوعيين المسلمين (Märkez Müsülman Sosialis-Kommunislar Komiteti)

فى يناير ١٩١٨. ورغم انضمامهما بصفة شخصية إلى الحزب الشيوعى البلشفيكى، إلا أن سلطان غالييف وملا نور فاهيتوف، بدلاً من تشجيع رفاقهما على الحذو حذوهما، سعيا منذ البداية إلى الحفاظ على الاستقلال التنظيمى للشيوعية الإسلامية، معارضين الانضمام إلى الحزب الشيوعى الروسى بدافع عدم الثقة بالروس. فقد أدرك سلطان غالييف على الفور أنه إذا ماانضم المسلمون إلى الحزب الشيوعى البلشفيكى الروسى، الذى يسيطر عليه الروس، فإنهم سوف « يغرقون »، بالمعنى الحرفى للكلمة، داخل كتلة غريبة سرعان ماستناصبهم العداء. ومن ثم فإن الفلاحين والحرفيين التتر، وهم لايجيدون الروسية أو لايتحدثون بها على الإطلاق، سوف يعاملون باعتبارهم «شيوعيين من الدرجة الثانية»، قُدر لهم أن يمثلوا أقلية لاتملك سوى الامتثال لقانون الأغلبية الروسية. ومن شأن ذلك أن يؤدى إلى قيام علاقات «ذات طابع

استعماري» بين الروس والتتر داخل الحزب الشيوعي. ولايملك سوى عدد من القادة، مثله هو أو فاهيتوف، الانتماء إلى الحزب الشيوعي الروسي والى الحزب الشيوعي الإسلامي في ذات الوقت، بدافع حسابات وتقديرات معينة.

وفي ٨ مارس ١٩١٨، دعا سلطان غالييف وملا نور فاهيتوف إلى انعقاد مؤتمر العمال المسلمين في روسيا بموسكو، حيث ضم شيوعيين ومتعاطفين من قازان، وموسكو، وبتروجراد، وأرخانجيلسك، ومورمانسك، وسمرقند، وقوقند. وقد استمر المؤتمر عشرين يوماً وكان محور اهتمامه الرئيسي هو دعم وتنظيم اللجان الاشتراكية الشيوعية الإسلامية على غرار لجنة قازان، وعلاقات تلك اللجان بالحزب الشيوعي الروسي. ورغم مساندة السياسة المنتهجة من قبل حكومة موسكو، إلا أن القادة التتر قرروا الحفاظ على الاستقلال التام للحركة الشيوعية المحلية. ولم يكن للحزب الاشتراكي الشيوعي الإسلامي الذي أسسوه، رغم الاسم الذي يحمله، ارتباط بالحزب الشيوعي الروسي، كما لم تكن عضويته قاصرة على الشيوعيين وحدهم. بل كان عليه، من وجهة نظر قادته، أن يصبح، كاللجنة الاشتراكية في قازان، «لسان حال الثوريين المسلمين جميعاً الذين قبلوا برنامج الحزب الاشتراكي بدرجة أو بأخرى». وبناءً على اقتراح من «برهان منصوروف»، الذي اتضح فيما بعد أنه من أشد الموالين حماساً لسلطان غالييف، تم وضع اللجنة المركزية الاشتراكية الشيوعية الإسلامية على رأس الحزب الجديد، حيث رأسها ملا نور فاهيتوف ومثلتها هيئة تنفيذية تتألف من زهاء اثني عشر عضواً، من بينهم سلطان غالييف، وفاهيتوف، وب. منصوروف، تكون بمثابة «الجهاز الحاكم لجميع التنظيمات الإسلامية في روسيا». وقد جرى مؤتمر مارس١٩١٨ في جو من الحماس البالغ. ورغم اتخاذ القرارات بالإجماع، إلا أنها شكلت، من وجهة نظر البلاشفة الروس، أحد المظاهر الصارخة وغير المقبولة للقومية، طالما أن المندوبين قد بذلوا جهدهم ليس لفصل الحركة الثورية الإسلامية عن الحزب الشيوعي الروسي فحسب، بل سعوا كذلك إلى تقليص سلطة التنظيمات التابعة لمجالس السوفيات وللحزب، لصالح التنظيمات الإسلامية المستقلة.

وفي هذه الأثناء، برزت في قازان مأساة القطيعة بين النظام السوفياتي الجديد والتنظيمات القومية الإسلامية التي بقيت في حيز الوجود. ورغم أن حل تلك التنظيمات «البورجوازية»، التي أدت إلى بعض الازدواجية في تنظيم مجالس السوفيات، قد تقرر ولاريب في موسكو، خلال أعلى اجتماع قمة للحزب الشيوعي الروسي، إلا أن سلطان غالييف كان له

دور أساسى فى ذلك. فقد قدر، فى الواقع، أنه حتى يمكن لهرطقته الفكرية أن تلقى قبولاً لدى رفاقه الروس، لاينبغى لأية تنظيمات «بورجوازية» تترية أن تتمسك بتلك الأفكار ذاتها. غير أن القطيعة الرسمية والنهائية قد انتهت بانعقاد المؤتمر العسكرى الثانى للمسلمين فى روسيا، بقازان مرة أخرى، الذى استمر من٨يناير وحتى٣مارس١٩١٨، وحضره مائة وخمسون مندوباً عن الفرق العسكرية الإسلامية، ورجال الدين والتنظيمات السياسية التترية والبشكيرية، لا سيما قادة المجلس الوطنى فى بتروجراد، «إسحاقى» وتوكتار»، ومن الإدارة الوطنية «مقصودى»، إلى جانب ممثلى الشعوب الأجنبية غير المسلمة فى فولجا الوسطى، من ماريين وتشوفاشيين وموردفيين وأودميرتيين. وكانت الغالبية تنتمى إلى جماعات الوسط والجماعات الاشتراكية المعتدلة، الاشتراكيين الثوريين اليمينيين، والمناشفة، والدستوريين الديمقراطيين، الذين كانوا يسيطرون تماماً على المجلس العسكرى، فى حين كان جناح اليسار والبلاشفة والمتعاطفون معهم يمثلون أقلية من خلال ثلاثين مندوباً. إلا أن المؤتمر لم يشأ الانفصام صراحة عن حكومة موسكو، بل إنه أجرى التصويت على قرار يهنئ مجلس مفوضى الشعب على قيامه بحل الجمعية التأسيسية. وقد ثار النزاع حول مشكلة ليست مذهبية بقدر ماهى عملية، إذ أيد المندوبون بأغلبية كبيرة القرار الذى اتخذته الجمعية الوطنية من قبل بإنشاء «دولة إيديل-أورال»، بحيث يشمل إقليمها بلاد التتر وبشكير، و«حكومة» أوفا بالكامل، وجزءاً من كازاخستان الحالية، وأقاليم تشوفاش وماريى المحمية بقوة الوحدات الإسلامية التابعة للمجلس العسكرى. إلا أن حزب اليسار رغم كونه أقلية قد عارض تلك النقطة الأخيرة، موجهاً الاتهام إلى المؤتمر بالعمل على إثارة صراع دموى بين الديمقراطيتين الإسلامية والروسية، وغادر أعضاؤه الجلسة فى ١٧فبراير. وبعد ذلك مباشرة، قرر مجلس السوفيات فى قازان التدخل. فأنشأ، فى ٢١فبراير، مفوضية إسلامية فى قازان تحت رئاسة سلطان غالييف، ثم قام، بعد ذلك بخمسة أيام، بتشكيل مجلس أركان حرب ثورى يتألف من سبعة أعضاء بينهم اثنان من التتر، هما سلطان غالييف وياكوبوف. وفى نفس اليوم، أعلنت الأحكام العرفية وتم إلقاء القبض على قادة المجلس العسكرى، وكانوا أعضاءً فى مجلس رئاسة المؤتمر. أما الزعماء القوميون الآخرون الذين لجأوا آنذاك إلى الضاحية التترية فى قازان فيما وراء بحيرة بولاق، فقد أعلنوا قيام جمهورية ماوراء بولاق (Zabulatchnaïa Respublika). وكان ذلك إيذاناً بانتهاء القطيعة بين القوميين التتر ومجلس السوفيات فى قازان. إلا أن ذلك الأخير كان من الضعف بحيث

عجز عن التصدى بقواته للوحدات التترية المتحصنة خلف بحيرة بولاق، مما دعاه إلى طلب العون من موسكو. وفى ٢٨مارس، جاء مدد من ثلاثمائة من القوات البحرية فى كرونستات، فرقة الصاعقة الثورية، التى أجهزت بسهولة على المعقل الإسلامى فى اليوم التالى، فجاءت على يدها نهاية جمهورية ماوراء بولاق، تلك المحاولة الفريدة، وإن لم يقدر لها الاستمرار طويلاً، من جانب البورجوازية التترية للانفصال فعلياً عن الدولة الروسية. وكانت القوات المحلية الوحيدة التى يمكن للبلاشفة فى قازان الاعتماد عليها، فى صراعهم ضد جمهورية ماوراء بولاق، ممثلة للمرة الثانية فى الطريقة الصوفية المسماة كتيبة رب فيزوف، والتى لقى شيخها الأكبر، إيفان فيزوف، حتفه وهو يحارب ضد إخوته فى الدين. وهكذا، فقد كان الواقع فى قازان، فى فبراير١٩١٨، بعيداً تماماً عن الصورة المانوية للصراع بين «الخير» الشيوعى والبروليتارى ضد «الشر» الرجعى والدينى، التى يقدمها المؤرخون السوفيات المعاصرون.

واقترن اختفاء جمهورية ماوراء بولاق بتصفية جميع التنظيمات التترية «البورجوازية». وقد عهدت مفوضية الشعب لشؤون القوميات بتلك المهمة إلى قادة المفوضية المركزية الإسلامية الجديدة– ومن بينهم سلطان غالييف–، الذين اضطلعوا بها بهمة ونشاط لامثيل لهما، إلا أن تلك التصفية لم تتخذ أبداً شكل صراع طبقى داخل المجتمع الإسلامى. إذ كان الأمر لايتعلق على الإطلاق، من وجهة نظر سلطان غالييف ورفاقه، بالقضاء مادياً على طبقة معينة، هى البورجوازية، لصالح البروليتاريا الوطنية التى لاوجود لها، وإنما ببساطة استبدال تنظيم سياسى يسيطر عليه ممثلو البورجوازية الراقية والمتوسطة، بآخر هو لسان حال تلك البورجوازية ذاتها، ليكون على رأس الحركة الوطنية والثورية التترية. وعلى ذلك فإنه لم تكن هناك اختلافات سياسية جوهرية بين الأحزاب المتنافسة، بل التقت أهدافها الأساسية، وهى الاستقلال السياسى فى مواجهة الروس، وإنشاء دولة وطنية إسلامية.

كانت الإجراءات الأولى ضد التنظيمات القومية البورجوازية تتعلق بالتشكيلات العسكرية. فقد أصدرت المفوضية المركزية الإسلامية فى ١١مارس١٩١٨ قراراً يقضى بحل فيلق الحرس الإسلامى فى بتروجراد، كما أصدرت مفوضية الشعب لشؤون القوميات قراراً فى٢٦مارس بإلغاء المجلس العسكرى للجامعة الروسية بجميع فروعه الإقليميه. وفى٢(١٥) أبريل١٩١٨، بدأت المفوضية المركزية الإسلامية الهجوم على صحافة المعارضة، حيث أصدرت أمراً بوقف صدور صحيفةII التترية الاشتراكية المعتدلة الصادرة فى بتروجراد، وكان يديرها

«آيازإسحاقى»، بسبب «نشاطها المناهض للثورة.» ولم تلبث صحف «بورجوازية» أخرى، مثل Kurultay و Beznen-Tavyh ، وChingis Balasy ، وIttifak ، أن لقيت نفس المصير. وأخيراً فقد أصدرت مفوضية الشعب لشؤون القوميات، فى ١٢(٢٥) أبريل، مرسوماً وضع نهاية لوجود المجلس العسكرى، كما قامت القوات التترية والبشكيرية المحلية التى انضمت إلى النظام الجديد، فى نفس اليوم، بحل الجمعية الوطنية فى أوفا، وهو الإجراء الذى مالبث أن اتخذ الشكل الرسمى بمرسوم آخر أصدرته المفوضية فى ٢٢مايو ١٩١٨. وفى ربيع عام ١٩١٨، كانت الحركة الوطنية التترية «البورجوازية» قد اختفت من حيز الوجود. فقد هاجر بعض قادتها إلى تركيا أو اليابان أو ألمانيا، فى حين هلك بعضهم الآخر خلال فترة «الشيوعية العسكرية» ومنذ ذلك الوقت، لم تجد القومية الإسلامية وحركة المقاومة المناهضة للمركزية من جانب موسكو تعبيراً عنها إلا داخل الحزب الشيوعى.

كان سلطان غاليف يسعى، غداة تلك الأحداث جميعها، إلى مواصلة العمل فى سبيل استقلال الحركة الثورية الإسلامية عن سيطرة رفاقه البلاشفة، عن طريق تحقيق الأهداف الثلاثة التى وضعتها البورجوازية التترية لنفسها من قبل وهى: إنشاء حزب سياسى تقتصر عضويته على المسلمين وحدهم، وتشكيل وحدات عسكرية إسلامية، وتأسيس دولة كبرى يمثل المسلمون غالبية السكان فيها. وخلال أشهر الهدنة التى أتيحت له قبل أن تهب عاصفة الحرب الأهلية على روسيا الشرقية، قام سلطان غاليف بنشاط غير عادى، واصل فيه العمل ليل نهار، متنقلاً باستمرار بين موسكو وقازان. الا أننا لانعلم الكثير عن تلك الفترة من حياة سلطان غاليف، فهو لم يخلف وراءه أية مذكرات، كما أن مؤلفاته التى كتبها قبل عام ١٩١٩غير متوفرة لدينا. وتقدم لنا بعض الذكريات النادرة التى يرويها المعاصرون فى هذا الشأن صورة لرجل فى مرحلة الشباب، يبلغ الثامنة والثلاثين من العمر، له طلعة رومانسية بهية، يتميز بدقة التفكير، مقل فى كلامه، فضلاً عما كان يجده من صعوبة فى الاتصال بالآخرين. كان يبدو زاهداً وميالاً إلى العزلة وسط رفاقه فى مفوضية الشعب لشؤون القوميات، من الروس أو اليهود أو الجيورجيين، الذين كانوا يتسمون بالتوتر المفرط وذلاقة اللسان. وكان يشك فى إمكانية أن يربطه بأستاذه ستالين أى شعور بالصداقة، بل وحتى الاحترام المتبادل، كما أن ذلك الأخير لم يكن ليسمح لنفسه بمثل هذا الضعف الإنسانى. أما الزعماء البلاشفة الآخرون، الذين استغرقهم تماماً الإعداد للثورة فى ألمانيا، وهى من وجهة نظرهم المرحلة الأولى والضرورية للثورة العالمية،

فإنهم كانوا لايشعرون حتى بوجود ذلك الشرقي الشاب، المنشق عن المعسكر القومى، إلى جانبهم. فقد كان سلطان غاليف فى نظر أى تروتسكى أو زينوفييفى أو راديكى لايزيد كثيراً عن أى عامل ألمانى أو بولونى.

إلا أن النذر الأولى للحرب الأهلية كانت قد بدأت تظهر، منذ مطلع عام ١٩١٨، فى موسكو وبتروجراد. ففى فبراير، سارت القوات الألمانية نحو نارفا ومينسك وكييف؛ وفى مارس، دخل الجيش التركى إلى ماوراء القوقاز، كما نزل الانجليز إلى مورمانسك فى ٩مارس. وتشكلت فى كافة الأنحاء حكومات مستقلة معادية لسلطة موسكو. وفضلاً عن ذلك، فقد قررت مفوضية الشعب لشؤون القوميات فى٢٣مارس ١٩١٨، رغماً عن معارضة التنظيمات المحلية الروسية، إصدار مرسوم بشأن «الجمهورية التترية البشكيرية التابعة للاتحاد الفدرالى الاشتراكى السوفياتى الروسى»، وضعه سلطان غاليف وفاهيتوف، أوشاركا فى ذلك على الأقل، فتحقق بذلك الحلم القديم لجميع القوميين المسلمين فى روسيا فى أن تكون لهم دولة إسلامية مستقلة كبرى.

«انطلاقاً من مبدأ حق تقرير المصير الوطنى للجموع الكادحة، الذى أقره المؤتمر الروسى الجامع الثالث لمجالس السوفيات، أصدرت مفوضية الشعب لشؤون القوميات، بالاتفاق مع المفوضية المركزية الإسلامية لروسيا الداخلية، القرار التالى بشأن الجمهورية التترية البشكيرية:

(١) يُعلن إقليم الأورال الجنوبى وفولجا الوسطى باعتباره الجمهورية السوفياتية التترية البشكيرية وتتبع الاتحاد الفدرالى الاشتراكى السوفياتى الروسى.

(٢) يُعتبَر مشروع التنظيمات الثورية التترية والبشكيرية خطاً إرشادياً لترسيم الحدود التى تشمل حكومة أوفا، والقسم البشكيرى من حكومة أورونبورج، وحكومة قازان باستثناء القسم التشوفاشى والتشيريميسى، إضافة إلى الأقسام الإسلامية المتاخمة لحكومات بيرم وفياتكا وسيمبيرسك وسمارة. ويُعهد بمهمة ترسيم الحدود النهائية للحكومة إلى المؤتمر التأسيسى لمجالس السوفيات فى تلك الجمهورية.

(٣) يحدد المؤتمر التأسيسى لمجالس السوفيات فى الجمهورية التترية البشكيرية العلاقات السياسية والاقتصادية للقسم الغربى والقسم البشكيرى من الجمهورية.

(٤) تعين المفوضية المركزية الإسلامية لجنة تحضيرية يُعهد إليها بمهمة دعوة المؤتمر التأسيسى لمجالس السوفيات إلى الانعقاد.»

وعلى الرغم مماتضمنه القرار من ألفاظ غير محددة عمداً، إلا أن الوعد الرسمي بإقامة جمهورية وطنية إسلامية تمتد على منطقة شاسعة من الفولجا الوسطى والأورال الجنوبية، وتشتمل على عدد من السكان يتراوح بين خمسة إلى ستة ملايين نسمة، كان يمثل انتصاراً كبيراً للشيوعيين التتر. وفى محاولة من جانبه لاستغلال ذلك إلى الحد الأقصى، دعا ملا نور فاهيتوف، منذ نهاية شهر أبريل، إلى انعقاد مؤتمر فى قازان للشيوعيين والمتعاطفين معهم من المسلمين فى «حكومة» قازان، من أجل إرساء أسس الدولة الوطنية الجديدة. وقد صوت المندوبون، فى جو من الحماس «القومى» والإسلامى الجامع، على قرار يطالب بإنشاء الجمهورية التترية البشكيرية على نحو عاجل، باعتبارها المرحلة الأولى من البرنامج الذى وضعوه للجامعة الإسلامية الراديكالية. وبعد توجيه الشكر إلى لينين وستالين على ماقدماه من عون، أعلنوا مايلى: «إننا نود أن تكون الجمهورية التترية البشكيرية هى البؤرة التى تنطلق منها شرارة الثورة الاشتراكية إلى قلب الشرق.» وفى المقابل، فقد أثار نشر المرسوم الصادر فى٢٣مارس معارضة القادة الشيوعيين الروس جميعهم تقريباً فى الفولجا وفى الأورال، كما لم تلبث المظاهرات «القومية» فى مؤتمر قازان أن أثارت قلق القادة البلاشفة ذاتهم. بل إن «جراسى»، وهو أحد الزعماء الروس الرئيسيين فى تنظيم قازان التابع للحزب الشيوعى الروسى، وصف أنصار الجمهورية التترية البشكيرية بأنهم «قوميون»، معارضاً بشدة مبدأ الحكم الذاتى نفسه لعدة أسباب هى:

* أن إقليم الفولجا- الأورال يعد ذا أهمية، من وجهة النظر الاقتصادية، بالنسبة لروسيا بأكملها وليس التتر والبشكيريين وحدهم.
* أن المسلمين لايمثلون الأغلبية المطلقة لسكان الإقليم.
* أن البروليتاريا التترية البشكيرية هى من الضعف المادى و«عدم الانضباط الأخلاقى» بما يحول دون اضطلاعهم بالسلطة.

وأخيراً، فقد أدان «جراسى» ما أسماه «الاتجاه إلى الشرق»، وكتب ما نصه «إن هذا الاتجاه لم يكن ليتحقق ما لم يكن الشرق شيوعياً»، «والواقع أنه ليس كذلك.»

وصرح زعيم شيوعى روسى آخر، وهو بتروفسكى، رئيس اللجنة العسكرية الثورية فى أورال الجنوبية، فى الوقت ذاته، فى معرض الادعاءات الكازاخستانية بإنشاء دولة وطنية، بمايلى:

«إن البروليتاريا الروسية، رغم كونها أكثر ثورية وكفاءة من الجموع الكازاخستانية، ليست قادرة دائماً على إتقان فن التنظيم الحكومى. وعلى ذلك، فإنه ثمة مايدعو إلى الخوف من أن يُعهد بالسلطة، عند حصول كازاخستان على الاستقلال، ليس إلى البروليتاريا الكازاخستانية الغارقة فى الضعف، وإنما إلى البورجوازية الأكثر فعالية وقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة.»

وقد عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى، فى الفترة من ١٠ إلى ١٦مايو١٩١٨، بموسكو مؤتمراً تحضيرياً للمؤتمر التأسيسى للجمهورية التترية البشكيرية المزمع إنشاؤها، حيث كان يضم، تحت رئاسة ستالين يعاونه سلطان غالييف وفاهيتوف، حوالى ثلاثين مندوباً معظمهم من التتر والبشكيريين والتشوفاشيين والماريين، إلى جانب عدد من الروس. وقد اضطر ستالين فى خطابه الافتتاحى، وتحت ضغط من هؤلاء، إلى تقييد احتمالات تمتع الجمهورية المزمع إنشاؤها بالحكم الذاتى على نحو ملموس، مشيراً إلى الفارق الجوهرى بين «الاستقلال القومى البورجوازى» من جانب، و«الاستقلال السوفياتى» من جانب آخر، فهذا الأخير غير مقيد بحدود وطنية، فضلاً عن استناده إلى المعيار الطبقى لا إلى معيار العرق أو الدين. وفضلاً عن ذلك، فقد أحاط ستالين المندوبين علماً بأنه، حتى يمكن الحفاظ على تماسك الاتحاد الفدرالى السوفياتى، ينبغى أن تتركز كل وظائف السلطة الهامة فى أيدى السلطات المركزية فى موسكو، بحيث لاتحتفظ السلطات الجمهورية فى قازان سوى بالاختصاصات السياسية والإدارية المحلية. وأخيراً، فقد قرر المؤتمر توسيع حدود الجمهورية المزمع إنشاؤها بحيث تشتمل على جانب كبير من التشوفاشيين والماريين (غير المسلمين)، رغم معارضة السلطان غالييف لذلك، إدراكاً منه للخطر الذى كان يمثله إدراج سكان غير مسلمين فى الدولة المزمع إنشاؤها. وقد أكد ذلك بقوله: «إن للتتر والبشكيريين الحق فى أن يكون لهم إقليم مستقل، إذ أنهم يمثلون غالبية السكان فى هذه المنطقة. وفيما يتعلق بمطالب التشوفاشيين والتشيريميسيين الذين يدعون بدورهم أنهم جزء من هذه الدولة، فإنها تتعارض والإرادة الوطنية للتتر والبشكيريين. وإذا ما ألحقنا بهم التشوفاشيين والماريين، لاقتضى الأمر أن ينضم إليهم رعايا روسيا العظمى كذلك، وفى هذه الحالة، فإن هؤلاء سوف يشكلون غالبية السكان.» وقد انفض المؤتمر بعد أن قرر أن تكون أوفاهى مقر المؤتمر التأسيسى المقبل، فضلاً عن تعيين لجنة تحضيرية من سبعة أعضاء برئاسة فاهيتوف، تُعلّق أعمالها الخاصة بالحرب الأهلية حتى خريف

عـام ١٩١٩. وعلى ذلك فـإن مـولد الدولة التـترية البشكيرية قـد تأخر إلى أجل غـيـر مـسـمى، وعندما تأكد انتصار السوفيات عام ١٩٢٠، أدان ستالين ذلك المشروع بحدة، حيث وصفه بأنه «قومى بورجوازى».

أدرك سلطان غـاليـيف ورفـاقه تمامـاً أن الاسـتـقـلال الإدارى بل وحـتى السياسى للأقـاليم الإسلامـيـة لامعنى له طالما أن المسلمين لايملكون كـوادر مـاركسـيـة يمكنهم تولى إدارتهـا. ولذلك فـقـد ركـزوا جـهـودهم، منذ إنشـاء المفوضـيـة المركزية الإسـلامـيـة، على الدعـاية والتعليم وإعداد الكوادر المنبثقة من الشعب لكى تحل محل المثقفين من أصل بورجوازى فى المستقبل القريب أو البعيد. ولأجل ذلك عقد سلطان غالييف وفاهيتوف المؤتمر الروسى الجامع للمعلمين المسلمين، فى الفترة من ٢٣ إلى ٣١ مايو ١٩١٨ فى قازان، بغرض تعيين مجمع مركزى علمى إسلامى يُعهد إليه بمهمة إدارة التعليم العام فى الأقاليم الإسلامـيـة، حيث قـام، ضمن مشاريع أخرى، بإعداد مشروع «جـامـعـة إسلامـيـة» فى قـازان، كـمـا قـرر إنشـاء «مـتـحف شرقى» و«مكتـبـة إسلاميـة مركزية». وكـان الغرض من تلك المعاهد الثلاثة هو إمداد الحزب الشـيـوعى الإسلامى مستقبلاً بقادة مـاركسيين مؤهلين. وأخيراً، فقد عـقد قـادة المفوضـيـة المركزيـة الإسـلامـيـة فى قـازان، فى الفـتـرة من ١٧ إلى ٢٣ يونيـة ١٩١٨، «المؤتمر الأول للشـيـوعـيين المسلمين»، مـتـجـاوزين بذلك معارضة رفاقهم الروس، حيث ضم ممثلى اللجان الإسلامية لروسيا الداخلية فى كل من موسكو، وبتروجراد، وقـازان، وأسـترخـان، وبيرم، وسـمـارة، وأورال وسـامـبـيرسك، وساراتوف. وقد قـررت الغـالبـيـة العظمى من المندوبين، رغـم انتـمـائهم بصـفـة فـردية للحـزب الشـيـوعى الروسى، نبـذ الأشكال التنظيـمـيـة القديمة وإنشـاء «حـزب روسى للشيـوعيين (البلاشفة) المسلمين». وقـد تبنى ذلك الحزب قوانين الحزب الشيوعى الروسى، وإن ظل مـسـتقلاً من خلال لجنة مركزية Märkäz Müsülman Kommunislar (bolshevik) Komiteti مـسـتـقلة، تتـألف من أحـد عـشـر عـضـواً ونائبـاً، حـيث كـان سلطان غـالـيـيف، ومـلا نـورفـاهيـتـوف، وبرهان منصـورروف هم قـادته الرئيسيون أما اللجان المحلية، ممثلة فى مكاتبها Müsülman Kommunislar Musbüro Bürosy باللغة التترية) ،فـقد حظيت بالتـأييد وكـان عليـهـا أن تقـوم بدور التنظيـمـات المحلية للحزب الشيوعى الجديد قـيد الإنشـاء. إلا تلك القرارات جـمـيـعـهـا، رغـم ماقـوبلت به من حماس من جانب الثوريين المسلمين جميعاً، تعرضت لموجة عنيفة من الانتقادات منذ عـام ١٩١٨ على يد القادة البلاشفة الروس، بل إن ستالين اتهم المؤتمر ذاته فيـمـا بعد باعتباره أحد المظاهر السافرة

لما أسماه «القومية البورجوازية».

لم يكن بوسع قادة المفوضية المركزية الاعتماد مطلقاً على الحركة النقابية بين العمال المسلمين إزاء ضآلة عددهم، فضلاً عن تفرقهم وعدم تطورهم، ولا بالأحرى على التنظيمات الريفية، من أجل تعزيز الكوادر الإسلامية من أصل بروليتارى وتدريبها على وجه السرعة. ولذلك فإن الجيش الأحمر الإسلامى كان، من وجهة نظر سلطان غالييف، هو مدرسة إعداد الكوادر السياسية. فقد نظر سلطان غالييف- كما فعل ماوتسى تونج فيما بعد- إلى الجيش الأحمر باعتباره «طبقة اجتماعية» حقيقية منظمة، متدرجة ويغلب عليها الطابع السياسى بشدة، وهى القادرة على الحلول محل البروليتاريا المحلية كقوة فعالة للثورة. ومن ثم فإنه كان عليها أن تضطلع فى الأقاليم الإسلامية بالدور الذى كانت النقابات المهنية تؤديه فى جهات أخرى بهدف نشر الشيوعية و«إضفاء الطابع الاشتراكى» على الجماهير. وفى ذلك الصدد، كتب يقول: «إن المناضلين التتر فى الجيش الأحمر، وهم يحملون اللواء الأحمر رمزاً للصراع الطبقى فى أقاصى كيشلاك، وقرى آسيا الوسطى، وفى مخيمات المغول بسيبيريا، وآوول بجبال القوقاز، هم رواد الثورة الاشتراكية فى الشرق.» وقد عُهد بتنظيم الوحدات العسكرية إلى الشعبة العسكرية بالمفوضية المركزية الإسلامية فى بادئ الأمر، ثم إلى المجمع العسكرى الإسلامى المركزى برئاسة سلطان غالييف. وكان ذلك المجمع يتبع مفوضية الشعب لشؤون القوات المسلحة، Narkomvoen، من الوجهة الرسمية، وإن كان تابعاً للمفوضية المركزية الإسلامية من الناحية الفعلية. كان سلطان غالييف يحدوه الأمل ولاريب فى إعادة تجميع تلك الوحدات فى شكل قوة مستقلة، باسم «الجيش الأحمر العمالى الريفى الإسلامى» أو الجيش الاشتراكى الإسلامى»، يُفتح باب الانضمام إليها لجميع المسلمين «المتعاطفين مع الأفكار الاشتراكية»، وتستهدف «الحفاظ على شرف ومجد مكاسب البروليتاريا، وبصفة خاصة نشر الثورة الاشتراكية فى جميع بلاد الشرق الإسلامى». إلا أنه سرعان ما أصيب بخيبة الأمل، إذ وُضعت الفيالق الإسلامية، منذ أغسطس ١٩١٨، تحت القيادة العامة للجيش الأحمر وتم إدماجها فى الوحدات الروسية. غير أنها ظلت حتى عام ١٩٢٠ «مدارس» حقيقية لإعداد الكوادر حيث «تلقى العمال والفلاحون الفقراء من التتر تعليماً سياسياً يؤهلهم لمناصب القادة العسكريين»، بفضل إنشاء هيئة للمفوضين السياسيين المسلمين بموجب قرار صادر عن المجمع العسكرى الإسلامى المركزى بتاريخ ١٨ يونية ١٩١٨، وتنظيم دورات مكثفة للضباط المسلمين

فى قازان.

غير أن الوحدات الحمراء الإسلامية، وكانت إمرتها فى أيدى القازانيين بالكامل، ولغة القيادة هى التترية، تعتبر كذلك أداة قوية «للتحول إلى التترية»، مما أرسى من جديد دعامة قوية للأحلام التى لم يكن دعاة الجامعة التركية يجرؤون على التصريح بها، وهو ما أتاح المتزايد للتتر على الحركة الثورية الاستعمارية بأكملها. فقد كان سلطان غالييف يرى أن الجيش الأحمر الإسلامى- وهو تترى فى الواقع- ينبغى أن يكون نواة للأممية الشيوعية Komintern الاستعمارية مستقبلاً. وكانت أول وحدة تترية يتم تأسيسها حتى قبل إنشاء المفوضية المركزية عن طريق انفصال الحرس الأحمر فى قازان، وكان يتألف من العمال فى مصانع ألافوزوف ومصنع البارود، ثم تحول فى ديسمبر١٩١٧، بفضل جهود المفوضية الإسلامية فى قازان، إلى «الفيلق الاشتراكى الإسلامى الأول». وكان قوامه فى فبراير١٩١٨، وقت تصفية جمهورية ماوراء بولاق، أكثر من ستمائة مقاتل، وبلغ عدة آلاف فى شهر يولية من العام نفسه. وقد هيأ تشتيت الوحدات العسكرية التابعة للمجلس العسكرى فى فبراير-مارس ١٩١٨ عدداً كبيراً من الجنود والضباط معظمهم من التتر والبشكيريين، وبعضهم حصل على تدريب عسكرى ممتاز اكتسبه فى صفوف الجيش الاستعمارى القديم. وانتهج سلطان غالييف حيالهم نفس السياسة التى اتبعها تروتسكى فى الفترة ذاتها تجاه الضباط التتر سعياً إلى إدماجهم فى الجيش الأحمر، حيث نجح فى ذلك تماماً. وفى أستراخان، شكلت المفوضية الإسلامية المحلية «جماعة إسلامية» تتألف من التتر، والكازاخستانيين، والتركمانيين، والنوجايين، وإن كان قادتها من القازانيين، لعبت دوراً فعالاً فى المعارك التى نشبت حول تساريتسان ثم فى الأورال. وقد صنفت المفوضية الإسلامية فى بيرم العمال التتر فى الأورال إلى أربع جماعات. أما فى موسكو، فقد أسس ملا نورفاهيتوف فى أبريل ١٩١٨ «الكتيبة التترية البشكيرية الأولى» التى اشتبكت ضد جنود فيلق تشيكوسلوفاكيا فى سيرزان وقازان، ثم أنشأ فى يونية ١٩١٨ «الكتيبة الاشتراكية الإسلامية الثانية»، وكانت تضم تتراً، وبشكيريين، وتركمانيين، وأوزبكيين، ثم تحولت فى أغسطس ١٩١٨ إلى «الفيلق الاشتراكى الإسلامى الثانى». وفى يولية١٩١٨، كانت الوحدات الإسلامية التى تجاوز عددها ٥٠٠٠٠ رجل مقسمين إلى لواءين من القناصة التتر، وفيلقين من التتر البشكيريين، إلى جانب عدة كتائب مستقلة، فى مقدمة الصفوف فى القتال ضد كولتشاك. وكان التتر يمثلون وحدهم، طبقاً لسلطان غالييف، أكثر من

نصف عدد المقاتلين فى الجبهة الشرقية عام١٩١٩.

وثمة جانب أخير فى نشاط سلطان غاليف قبل أغسطس ١٩١٨، يوضح الحقيقة أكثر من غيره، ويشير إلى أن ذلك التترى ورفاقه كانوا قد عقدوا العزم على إقامة امبراطورية حقيقية لأنفسهم تتجاوز حدود روسيا القديمة. والواقع أن الاهتمام الرئيسى الكامن وراء ذلك الدافع من جانب المفوضية المركزية الإسلامية كان يتمثل فى نشرالشيوعية فى البلدان الإسلامية المجاورة. وفى ربيع عام ١٩١٨، تم إنشاء شعبة للدعاية الخارجية، بمبادرة من فاهيتوف، حيث عُهد بإدارته إلى مصطفى صبحى، وهو اشتراكى تركى قديم لجأ إلى روسيا وجاءت الثورة لتحرره من معسكر أسرى الحرب حيث أكل الدهر منه وشرب. وكانت مهمة تلك الشعبة هى نشر كتيبات ومنشورات ونداءات باللغات التركية والعربية والفارسية، وإصدار صحيفة باللغة التركية بعنوان Yeni Dünya (حيث صدر العدد الأول منها فى ١٩١٨/٤/٢٤)، فضلاً عن تأليف مجموعة من المحرضين المسلمين بغرض إيفادهم إلى الشرق لتنظيم تجمعات ثورية فيه، داخل الامبراطورية العثمانية بأكملها فى بادئ الأمر، بما فى ذلك معظم البلدان العربية آنذاك، ثم فى الهند وإيران فيما بعد. وقد تركزت الجهود الرئيسية فى تركيا. إذ كان سلطان غاليف يولى أهمية كبيرة فى الواقع للحركة الشيوعية فى ذلك البلد. ففى يولية١٩١٨، عقد سلطان غاليف فى موسكو «مؤتمر الاشتراكيين الأتراك»، ثم شرع بعد قليل، بمعاونة مصطفى صبحى، فى إنشاء كتيبتين من المتطوعين من أسرى الحرب الأتراك الذين اشتبكوا فى القتال على الجبهتين الشرقية والجنوبية، وتألفت من بينهم كوادر الحزب الشيوعى التركى فيما بعد. وفى هذا الصدد كتب الشيوعى القوقازى أفنديف، رفيق سلطان غاليف، عام١٩٢٠ مانصه: «إن وجود عدد كبير من الأسرى الأتراك على أرض الجمهورية السوفياتية يتيح لنا فرصة ملائمة إلى حد كبير لنشر بذور الثورة فى الشرق الأدنى».

ومن ثم، فقد بدت نتائج نشاط سلطان غاليف وفاهيتوف داخل المفوضية المركزية الإسلامية، عشية استيلاء التشيكيين على قازان فى أغسطس١٩١٨، إيجابية بشكل ملحوظ. فقد اغتنما فرصة ضعف السلطة المركزية للحصول على وعد رسمى بإنشاء دولة تترية بشكيرية. كما كان لديهم بصفة خاصة تنظيم إدارى (المفوضيات الإسلامية)، وسياسى مستقل- الحزب الشيوعى الإسلامى- امتد نفوذه سريعاً ليشمل جميع الأقاليم التركية فى روسيا بفضل ازدهار اللجان الإسلامية ونشاط الوحدات الحمراء الإسلامية.

إلا أنه ظهرت بين الشيوعيين المسلمين ورفاقهم الروس اختلافات كانت بغير ذات أهمية بعد، إلا أنها وخيمة العواقب، إذ كانت تدور حول مسألة مبدئية رئيسية وهى: لمن تؤول قيادة ثورة المستعمرات؟ إذا ماكانت الأحداث قد سارت فى تطورها الطبيعى، لكان نشوب صراع، بل وحتى قطيعة، أمراً حتمياً. غير أن جميع التوقعات انقلبت رأساً على عقب بنشوب الحرب الأهلية على أراضى الجمهورية التترية البشكيرية المزمع إنشاؤها، وماصاحب ذلك من ثورة العسكر من جنود الفرق التشيكوسلوفاكية فى مايو ١٩١٨. وكان هؤلاء من أسرى الحرب القدامى فى الجيش الامبريالى النمساوى المجرى الذين رفضوا، بأعداد كبيرة، القتال من أجل النظام الملكى لآل هابسبورج ولجأوا إلى الروس. وقد شكلوا فى عام ١٩١٨، بفضل ماجهزهم به الحلفاء من عتاد والتنظيم الذى وضعه لهم قادتهم من الضباط، القوة المسلحة المنظمة والفعالة الوحيدة فى القتال على أرض روسيا. فقد اصطفت كتائبهم على طول الخط الحديدى عبر سيبيريا، بين قازان وفلاديفوستوك، استعداداً للجلاء حتى يتم نقلهم إلى فرنسا للاشتراك فى المرحلة الأخيرة من الحرب العظمى. وبعد مرواغة من جانب السلطات البلشفية التى رفضت تيسير ترحيلهم، استولى التشيكوسلوفاكيون على جميع مدن ماوراء سيبيريا. فكان ذلك إيذاناً ببدء الثورة الشاملة لجميع المقهورين فى أكتوبر. إذ أخذ القوزاقيون فى الأورال يطاردون البلاشفة فى شهر يونية، ثم تبعهم القوزاقيون فى أورونبورج فى يولية. وبعد ذلك بقليل، احتل جنود الفرق التشيكية سمارة، وفى ٦ أغسطس ١٩١٨ تم الاستيلاء على قازان. وهرع ملا نور فاهيتوف إلى هناك على رأس كتيبة تترية تلقت تدريبها فى موسكو، إلا أنه وقع أسيراً وجرى إعدامه فى ١٩ أغسطس. وفى غضون بضعة أسابيع، تم القضاء على السلطة السوفياتية حتى لم يبق لها أثر فى روسيا الشرقية بأكملها، وتوقفت جميع مشاريع سلطان غالييف إلى أجل غير مسمى. فقد حرمه اختفاء فاهيتوف من سند قوى. وكان على سلطان غالييف أن يقف وحده فى مواجهة ستالين.

الفصل الرابع
مؤسس نظرية الشيوعية الوطنية
أغسطس ١٩١٨-١٩٢٣


الفصل الرابع

مؤسس نظرية الشيوعية الوطنية
أغسطس ١٩١٨-١٩٢٣

امتدت الحرب الأهلية فى روسيا الشرقية، وعلى نهر الفولجا وفى الأورال، لأكثر من عشرة أشهر. وتوالت الهجمات والهجمات المضادة من جانب البيض والتشيكوسلوفاكيين، ثم قوات كولتشاك والحمر دونما توقف تقريباً، فأصبح المستقبل مبهماً أمام حل مشكلة الدولة التترية البشكيرية. وخلال تلك الفترة، المسماة «بالشيوعية العسكرية»، كان الإيمان بانتصار الثورة فى الغرب لا يزال عميقاً، وظل قادة الحزب البلشفيكى يراودهم الأمل فى أن تحرز الشيوعية انتصاراً خاطفاً فى ألمانيا والمجر. غير أنهم بدأوا كذلك، تحت ضغط يكاد يقترب من حد الإكراه، فى الاهتمام بالشرق على نحو غير مباشر. والواقع أن محور تفكيرهم، وهم يوجهون نداءات تدعو إلى الثورة لتحرير الشعوب المستعمَرة وشبه المستعمَرة، كان يدور حول إضعاف الدول الرأسمالية، ومن ثم فقد اهتموا بالتأكيد على أن الثورة الوطنية لشعوب آسيا لن يتأتى لها النجاح إلا تحت قيادة البروليتاريا الغربية. وظلت الثورة الشيوعية فى نظرهم مسألة أوروبية بحتة.

أما على الصعيد الداخلى، فى المقابل، فكان البلاشفة بحاجة إلى المسلمين أكثر من أى وقت مضى لمواجهة هجوم البيض، حيث كانت تساندهم القوى المتحالفة المنتصرة فى ألمانيا. ولم يتوان سلطان غالييف، المعروف بانتهازيته، عن استغلال تلك الظروف السانحة لصالحه. فبوفاة فاهيتوف، أصبح الطريق خالياً أمامه، حتى شغل أعلى منصب يمكن أن يتقلده مسلم داخل تنظيم الحزب الشيوعى. فقد رأس المفوضية المركزية الإسلامية، وكان رئيساً للجميع العسكرى الإسلامى، ومحرر الصحيفة الناطقة بلسان مفوضية الشعب لشؤون القوميات Nar-komnatz, Fizn 'Natsional' nostey ثم فى وقت لاحق، فى يناير ١٩٢٠، عضواً فى المجمع المصغر لمفوضية الشعب لشؤون القوميات وكان يضم، علاوة على رئيسه ستالين، قادة بلاشفة مرموقين من بينهم بافلوفيتش وبرويدو وتورار ريسكولوف وغاليمجان إبراجيموف. وأتاح له مركزه الشخصى، الذى توطد أكثر من أى وقت مضى، أن يبالغ فى الآمال، ولم يفتأ دوره فى اطراد مستمر حتى نهاية الحرب الأهلية فى خريف عام ١٩٢٠. وعلى الرغم من وقوع بعض الخلافات بين سلطان غالييف وأستاذه ستالين منذ أكتوبر ١٩١٨، إلا أن أحداً من

المحيطين بالقادة البلاشفة لم يعرها أى اهتمام. فقد كان الرجلان متفقين، فى الظاهر، حول جميع النقاط الجوهرية فى سياسة القوميات. أما فيما يتعلق بالأقاليم الإسلامية، فكان سلطان غالييف ينهج بمنهج من أطلق عليه فيما بعد اسم «اليمينى»، معارضاً تغيير هيكل المجتمع الإسلامى بالعنف، لاقتناعه بضرورة عدم فرض التطور نحو التقسيم الطبقى بالقوة. ولم يكن يعارض ستالين فى هذه النقطة، لا لأن ذلك الأخير قد برهن على تحليه بروح الاعتدال أو الليبرالية، وإنما لأنه كان يدرك أكثر من غيره من الزعماء البلاشفة مدى تعقد العلاقات بين الروس والمسلمين. فقد رأى ستالين، مثله فى ذلك مثل سلطان غالييف، أن قيام ثورة ذات اتجاه راديكالى مبالغ فيه فى الأقاليم الإسلامية هو أمر سابق لأوانه. وكان معارضاً بشدة للمغامرين «اليساريين»، سواء كانوا من الروس أو الأجانب، الذين يفرطون فى التفاؤل إلى حد الاعتقاد بأن شيئاً لا يمكنه الوقوف فى وجه قوى الشيوعية الديناميكية الساحقة، والذين انفصلوا عن الجموع الوطنية التى كانت لا تزال متمسكة بعاداتها وتقاليدها، رغبة منهم فى تعميق الانتصارات الثورية. وبسبب ذلك الاتفاق حول النقطة الجوهرية فى استراتيجية الحزب داخل الأقاليم الخارجية، استمر ستالين على دعمه ومساندته لسلطان غالييف زمناً طويلاً.

إلا أن بعض الاختلافات بدأت فى الظهور بين مفوض الشعب لشؤون القوميات وربيبه. فقد كان سلطان غالييف ينتهج موقف «القومى» فيما يتصل بالعلاقات بين الأجانب والروس، وهو موقف يبرره تراثه الإصلاحى الكبير. ورغم دفاعه عن مبدأ تحالف الشيوعيين الأوروبيين مع العناصر الثورية الإسلامية من أصل غير بروليتارى، إلا أن ستالين انفصل عن غالييف مؤكداً أن ذلك التحالف لا يمكن إلا أن يكون تحالفاً مؤقتاً، فقد أدرك أن الكوادر الأجنبية البورجوازية، وإن انضمت إلى الصفوف، ليست أهلاً للثقة، إذ يمكن لهؤلاء التحول بسهولة إلى القومية الانفصالية. والمحصلة النهائية أنه لم يكن واثقاً إلا من الكوادر الروسية، وهى الكوادر البروليتارية الوحيدة بحق، والتى ينبغى الحفاظ على تفوقها ريثما يتم تكوين كوادر إسلامية شيوعية حقيقية من أصل عمالى.

وقد قام سلطان غالييف خلال تلك الفترة بنشاط مكثف يفوق ما كان يتم فى حياة ملا نور فاهيتوف. ولا نعلم على وجه اليقين ما إذا كان قد شارك بشخصه فى المعارك التى خاضها

الجيش الأحمر على الجبهة الشرقية فى مواجهة هجمات جنود الفيالق التشيكوسلوفاكية وجيوش كولتشاك. والمرجح أنه كان عليه، مثل معظم رفاقه البلاشفة، أن يقوم بزيارات تفقدية طويلة أو قصيرة إلى الصفوف الأولى، إلا أنه أثبت فعالية نادرة الوجود على الصعيدين السياسى والتنظيمى بصفة أساسية. فقد رأس، فى نوفمبر ١٩١٨، المؤتمر الأول للشيوعيين المسلمين الذى بدأ أعماله فى موسكو، بحضور ثلاثة وأربعين مندوباً عن التنظيمات الشيوعية الإسلامية. وكانت غالبية المشاركين فيه من مدن فولجا الوسطى والأورال، بينما جاء بعضهم من مورمانسك وبتروجراد والقوقاز وكريميه. كما مُثلت فيه مجموعة أسرى الحرب الأتراك، وقام بتنظيمها مصطفى صبحى. وكان على أعضاء المؤتمر أن يجدوا حلاً لإحدى المشاكل الجوهرية، وهى مشكلة العلاقات بين الشيوعيين المسلمين والحزب الشيوعى الروسى. فقد سعى سلطان غالييف ومعه زميله فيرديف، وهو تترى من كريميه، يؤيدهما فى ذلك التتر والقوقازيون وجانب من البشكيريين والكريميين، إلى الحصول على اعتراف باستقلال الحزب الشيوعى الإسلامى، حيث رأوا ضرورة احتفاظه بلجنته المركزية الخاصة، وعدم انضمامه إلى الحزب الشيوعى الروسى إلا على أساس فدرالى. وقد وجد سلطان غالييف تبريراً لتلك المزاعم فى حتميات الثورة على الاستعمار بقوله «طالما أن المسلمين فى وضع أفضل من الروس يتيح لهم نشر الاشتراكية فى الشرق». ورغم أن موقفه بدا ثابتاً ومنطقياً، إلا أن واقعيته العملية كانت تكمن وراءها إرادة سياسية لا تخفى على أحد للإفلات من سيطرة الروس. وكانت تلك هى البادرة الأولى للشيوعية الوطنية. فالاستراتيجية التى وضعها سلطان غالييف لو كان قد جرى انتهاجها لأفلتت مقاليد الثورة فى العالم الاستعمارى من أيدى البلاشفة الروس. فقد ساعدت تلك الاستراتيجية السابقة لعصرها بخمسين عاماً على تجسيد الصراع بين الحزبين الروسى والصينى. ولم ينخدع ستالين، ممثلاً للجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى، بكل ذلك، حيث رفض مطالب الاستقلال بدعوى المركزية والفعالية الإدارية. وصرح بقوله:

«إن واجبنا يقتضى منا إقامة جسر بين الشرق والغرب وتشكيل جبهة ثورية واحدة. وليس ثمة من يمكنه الاضطلاع بتلك المهمة التاريخية الكبرى خيراً منكم أيها الشيوعيون المسلمون (.....) إن أبواب فارس والهند وأفغانستان والصين مفتوحة أمامكم. (.....) ومن ثم فإننى أعتقد بأن التعليم الاشتراكى لشعوب الشرق ينبغى أن يكون مهمتكم الرئيسية. (.....) ومن ثم، فإنه من الضرورة بمكان أن يتم توحيد الشيوعيين، المسلمين منهم وغير

المسلمين، فى سبيل حشد قوانا إلى الحد الأقصى من خلال تجميع التنظيمات الشيوعية الإسلامية فى فرع واحد داخل الحزب الشيوعى الروسى، يرأسه مكتب الفرع. وهذا هو خط الحزب الذى كلفتنى اللجنة المركزية بنقله إليكم.»

غير أنه وقع صدام، للمرة الأولى، بين ستالين وسلطان غالييف حول نقطة استراتيجية؛ إذ بدأت تتضح، خلف ذلك النزاع الأول، وهو نزاع هامشى لم يكن قد تجاوز حد اللياقة بعد، أبعاد صراع رئيسى يتوقف عليه مستقبل الحركة الشيوعية فى العالم الثالث ويتحدد على أساسه من يتولى قيادتها: الروس أم التتر؟ أو بعبارة أخرى الأوربيون أم الآسيويون؟ وانبثق من عباءة ذلك الصراع صراع آخر، أشد أهمية وأكثر تلاحقاً، يتعلق بالطابع الواحد أو اللامركزى للحزب الشيوعى الروسى. وبدا واضحاً أن المؤتمر قد انحاز إلى رأى ستالين، على نحو ما يؤكده ذلك القرار المتشدد الذى تم اتخاذه ضد القيادة القديمة للحزب الشيوعى الإسلامى، أى ضد سلطان غالييف ذاته قبل أى شىء آخر: «لقد أثيرت مشكلة الأشكال التنظيمية لحزبنا مرة تلو المرة، إلا أنها لم تجد لها حلاً. لقد قادت التنظيمات الإسلامية البروليتاريا المسلمة نحو الشيوعية بصورة خرقاء ودونما خطة محددة. ومن ثم فإنه حتى يمكن تفادى التصادمات الوطنية بين أفراد العائلة الدولية البروليتارية الواحدة لكل المقهورين، وصهر جميع القوميات فى بوتقة بروليتارية شاملة، قرر مؤتمر الشيوعيين البلاشفة المسلمين ما يلى:

أولاً: يُستبدل الاسم القديم «للحزب الروسى للشيوعيين (البلاشفة) المسلمين» باسم التنظيم الإسلامى للحزب الشيوعى الروسى. وتُحول اللجان المحلية إلى «تنظيمات إسلامية» (مكاتب).

ثانياً: يُطلق على اللجنة المركزية للشيوعيين (البلاشفة) المسلمين من الآن فصاعداً اسم المكتب المركزى للتنظيمات الإسلامية للحزب الشيوعى الروسى.

ثالثاً: تنضم التنظيمات الإسلامية المحلية إلى التنظيمات العامة للحزب (اللجان) بإيفاد أحد ممثليها إليها. كما ينضم المكتب المركزى إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى على نفس النحو.

رابعاً: تنضم التنظيمات الإسلامية المستقلة فى المدن الكبرى إلى التنظيم الإسلامى (للحزب) الذى يجمع الخلايا الإسلامية المحلية.

خامساً: تتبع التنظيمات الإسلامية فى المصانع والورش التنظيمات العامة للحزب.».

وهكذا أصبح للحزب الشيوعى الإسلامى ارتباط وثيق بالحزب الشيوعى الروسى، فضلاً عن أن رئيس المكتب المركزى الجديد للتنظيمات الإسلامية التابعة للحزب الشيوعى الروسى، والذى جرى انتخابه فى ختام المؤتمر، هو ستالين، مندوباً عن اللجنة المركزية. أما سلطان غالييف فكان أحد أعضائها الخمسة. ومما فاقم كذلك من هذا الإخفاق الأول لسلطان غالييف ما تم من إدانة لنشاطه فى المفوضية المركزية الإسلامية. كما اعتبر المؤتمر النتائج التى حققها غير كافية وقرر إعفاءه من معظم مهام منصبه:

«لما كانت أعمال المفوضية المركزية الإسلامية لم يتم إدارتها وفق خطة محددة، فضلاً عن أن فروعها قد أنشئت بصورة عشوائية ولم توجه إليها تعليمات محددة، ولما كانت المفوضيات الإسلامية المحلية لم يتم ربطها على النحو الملائم بالمفوضية المركزية، كما أن هذه بدورها لم تتلق أيه توجيهات محددة، فإن المفوضية المركزية قد عجزت عن الاضطلاع بالمهام الموكلة إليها. وعليه فإن المؤتمر يدعو المكتب المركزى للتنظيمات الإسلامية التابعة للحزب الشيوعى إلى إعادة تنظيم المفوضية المركزية الإسلامية».

وكان ذلك إيذاناً بالاعلان، منذ نوفمبر ١٩١٨، عن ذلك المبدأ المقدس، مبدأ المركزية بأى ثمن، وإدانة دعاة اللامركزية الأيديولوجية والتنظيمية - سلطان غالييف بعبارة أخرى - إدانة قاطعة. وهكذا فقدت المفوضية المركزية الإسلامية مهامها السياسية والتنظيمية، فضلاً عن الرقابة على المطبوعات الدعائية الصادرة باللغات الإسلامية، لصالح المكتب المركزى. كما تم إلغاء شعبتى العمل والدعاية الخارجية التابعين لها، وضم شعبتى ما وراء القوقاز وسكان المناطق الجبلية مباشرة إلى مفوضية الشعب لشؤون القوميات، فى حين عُهد بشعبة تركستان إلى حكومة جمهورية تركستان. ولم يبق سوى هيئة ذات اختصاصات مقيدة للغاية؛ وهى إدارة مفوضية الشعب لشؤون القوميات، وأطلق عليها اسم «المفوضية التترية البشكيرية».

غير أن سلطان غالييف أعاد المحاولة، منذ ديسمبر ١٩١٨، بالمطالبة للمسلمين فى روسيا بمكانة متميزة بدا أن الرفاق الروس لا يرغبون فى منحهم إياها. ففى النداء المعنون (نداء إلى الشيوعيين المسلمين) الصادر عن المكتب المركزى للتنظيمات الإسلامية، والذى ظهر فى صحيفة Fizn ' Natsional ' nostey بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩١٨، نقرأ ما يلى:

إن الأحداث العالمية والنصر المرتقب للثورة الاشتراكية العالمية يفرضان علينا أن نولى أهمية خاصة لأكثر الشعوب تخلفاً فى الشرق. وواجبنا كشيوعيين هو أن نهب لمساعدة أشقائنا

الصغار. كما أننا على إلمام أكبر، بوصفنا شيوعيين مسلمين، بلغات وعادات شعوب الشرق، مما يجعل لزاماً علينا أن نضطلع بدور رئيسى فى ذلك العمل المقدس... الذى يتمثل فى اجتذاب الشعوب التى تعرضت للقهر على مدى قرون إلى الأسرة الكبيرة لجموع الشعب العاملة.»

وفى ربيع عام ١٩١٩، تحدد مصير الحرب الأهلية على الجبهة الشرقية لصالح البلاشفة، فقد انضمت الوحدات القومية البشكيرية، وكانت حليفة للبيض فيما مضى، إلى جانب الجيش الأحمر، فى حين انسحبت قوات كولتشاك نحو سيبيريا. أما فى الأقاليم الإسلامية التى استولى عليها الجيش الأحمر، فقد جرى تدمير الجهاز المدنى والعسكرى الإسلامى الذى أنشأه فاهيتوف بعناية فائقة، كما أبيدت معظم الوحدات الإسلامية فى المعارك التى جرت ضد كولتشاك، ودُمرت جميع المفوضيات واللجان الإسلامية فى الفولجا تقريباً، حيث قام البيض بتفريق العاملين بها أو إعدامهم رمياً بالرصاص، وشُلت حركة المجتمع العسكرى الإسلامى؛ وهكذا يمكن القول بأن المجمع المركزى العلمى فى قازان قد اختفى من حيز الوجود، وفر بعض قادته إلى سيبيريا. وأخيراً فإن قادة موسكو على وجه الخصوص، وهم أقل تعرضاً لتهديد الثورة المضادة البيضاء، قد شعروا بحرية أكبر من ذلك الوقت فصاعداً فى مواجهة حلفائهم المسلمين.

وفى مارس ١٩١٩، ووجه سلطان غالييف برفض جديد، عندما أعلن المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى الروسى (موسكو، فى الفترة من ١٨ إلى ٢٣ مارس ١٩١٩) إلغاء جميع التنظيمات الشيوعية الوطنية: «إن المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى الروسى يرى ضرورة قيام حزب شيوعى واحد، مركزى، تتبعه لجنة مركزية واحدة، تدير أعمال الحزب فى جميع أقاليم جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية. وتُعتبر جميع القرارات الصادرة عن الحزب الشيوعى (البلشفى) الروسى وأجهزته الإدارية ملزمة لجميع تنظيمات الحزب أياً كان هيكلها الوطنى». وبعد ذلك مباشرة، تم استبدال المكتب المركزى للتنظيمات الإسلامية بالمكتب المركزى للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق، حيث قُسم إلى فروع وطنية، إسلامية وغير إسلامية. وهكذا انتفت أية إشارة إلى الإسلام من ذلك الوقت. بل إن مبدأ وحدة العالم الإسلامى ذاته، وهو الأساس الذى استند إليه مذهب سلطان غالييف، أصبح مثاراً للشك.

وتكاد لا نعرف شيئاً عن نشاط سلطان غالييف خلال ربيع وصيف عام ١٩١٩. ورغم أنه شوهد مرات عديدة على الجبهة الشرقية حيث كانت بعض الوحدات التترية التابعة للجيش

الأحمر تقاتل ضد كولتشاك، إلا أنه كان يمضى معظم وقته فى التنقل بين موسكو وقازان. ولأنه لم يقبل عن طيب خاطر ذلك الرفض المزدوج من جانب مؤتمر الشيوعيين المسلمين والمؤتمر الثامن للحزب الشيوعى (ب) الروسى، فقد كان يعد لهجوم مضاد بهدف توفير الاستقلال للحركة الثورية الإسلامية، وتحريرها من السيطرة المتشددة والثقيلة للرفاق الروس الذين كانوا لا يفقهون شيئاً فى المشاكل الاستعمارية، على نحو ما أدرك وقتها.

كان سلطان غالييف يدرك، أكثر من أى وقت مضى، أن أوروبا، كما كان يردد، هى «بؤرة ثورية خامدة»، وأن العالم الاستعمارى، فى المقابل، يوفر المناخ الملائم لتلك الثورة. والواقع أن الحركة الثورية قد انتشرت فى كل من تركيا وإيران. ففى فبراير ١٩١٩، تم إنشاء حزب اشتراكى تركى شبيه بالأممية الثانية فى القسطنطينية، وتبعه فى سبتمبر الحزب الاشتراكى للعمال والفلاحين فى تركيا، الذى انشأه فى القسطنطينية بعض قدامى أسرى الحرب الأتراك فى روسيا، حيث تأثروا بالحركه الاسبارتكية(*) أثناء مرورهم عبر ألمانيا فى ١٩١٧-١٩١٨. وكان ذلك الحزب الذى انضم إلى الأممية الثالثة يستند إلى اللينينية. كما ظهر فى نفس الفترة حزب ثورى ثالث فى العاصمة التركية، باسم الرابطة الدولية للعمال، ويتألف من بعض الاشتراكيين المنتمين إلى الأقليات، كالبلغاريين، واليهود السفرديم من سالونيك، واليونانيين. وأخيراً قام مصطفى صبحى، فى يولية ١٩١٨، بإنشاء أول خلية شيوعية بين أسرى الحرب الأتراك الذين كانوا لا يزالون فى روسيا، وبدأ فى إصدار أول صحيفة شيوعية باللغة التركية، وهى صحيفة (العالم الجديد) Yeni Dünya وبدت تركيا، وهى تعانى مرارة الهزيمة والدمار، وترزح تحت وطأة الاحتلال والتفسخ على يد من ألحقوا بها الهزيمة، مواتية تماماً لنشوب ثورة من أجل التحرر الوطنى، وكان خير شاهد على ذلك هو الحركة الكمالية التى تحولت، طبقاً للنظرية اللينينية، إلى ثورة بروليتارية، حيث كان ذلك البلد يضم نسبة كبيرة من أبناء طبقة البروليتاريا الصناعية تتجاوز ١٠٠٠٠٠ عامل.

كما بدا المناخ ملائماً كذلك فى إيران. فقد امتدت ردود فعل الاضطرابات الثورية فى القوقاز إلى ما وراء الحدود. وشهدت إيران أزمة اقتصادية واجتماعية عنيفة فى المناطق الريفية، فاقمها احتلال أجنبى مزدوج، بريطانى فى الجنوب، وروسى فى الشمال. وكان حزب Adalat الاشتراكى الديمقراطى فى إيران قد انشىء منذ عام ١٩١٧ فى باكو على يد بعض

(*) سبارتكية (حركة ألمانية اشتراكية، ثم شيوعية قادها كارل ليبنخت وروزا لوكسمبورغ) (المترجمة)

المهاجرين الإيرانيين، من مجاهدى حزب Hummet. ومنذ عام ١٩١٦، أصبح الإقليم الشمالى من إيران، المعروف باسم غيلان Ghilan، هو مقر إحدى حركات التحرر الوطنى، وهى حركة الجنجليين Djenguelis، المناهضة للاستعمار والإقطاع والملكية، والتى يمكن بل وينبغى - على حد اعتقاد الزعماء البلاشفة - أن تتحول إلى ثورة اشتراكية على غرار الحركة الكمالية. وتأكدت تلك الآمال الثورية بصورة أكبر عام ١٩٢٠، عندما نشأ حزب شيوعى تركى سرى فى أنقرة فى شهر يونية، بالإضافة إلى أحد الأحزاب الاشتراكية التركية الأخرى.

أما فيما يتعلق بإيران، فقد أعطى استيلاء الجيش الأحمر على ما وراء القوقاز فى أبريل ١٩٢٠ دفعة جديدة لحركة الجنجليين. إذ نزلت إحدى التشكيلات البحرية التابعة للجيش الأحمر فى أونزيلى، حيث انتهز الجنجليون ذلك للإعلان فى ٤ يونية، عن قيام جمهورية غيلان الاشتراكية السوفياتية، برئاسة الزعيم الجنجيلى ميرزا كوتشيك خان، على رأس ائتلاف من القوميين والشيوعيين أعضاء حزب Adalat الفارين من باكو. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها إنشاء جمهورية «اشتراكية وسوفياتية» خارج أراضى روسيا القديمة، وحذت مونغوليا نفس الحذو فيما بعد، كما تبعتها الديمقراطيات الشعبية فى أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية. وفى ٢٠ يونية ١٩٢٠، عقد الشيوعيون الإيرانيون فى راشت، عاصمة الجمهورية السوفياتية الجديدة، المؤتمر التأسيسى للحزب الشيوعى الإيرانى. كما ظهرت فى نفس الوقت تقريباً جماعات شيوعية فى جميع أنحاء بلدان دار الإسلام: حيث أنشىء حزب اشتراكى مصرى بالإسكندرية، كما تم قبول أحد الأحزاب الشيوعية فى جاوة كعضو كامل العضوية فى الأممية الثالثة.

فمن يكون إذن صاحب الرؤية الصائبة تاريخياً؟

أهو سلطان غالييف الذى راهن على العالم الاستعمارى، أم الزعماء البلاشفة، الذين رفضوا البحث فى أمرهم إلا باعتبارهم موضوعاً للثورة لا سبباً لها؟ فى خريف عام ١٩١٩، عبر سلطان غالييف بحذر عن فشله فى مواجهة السياسة «الأوروبية المعتدلة» التى انتهجها رفاقه الروس فى مقالة شهيرة بعنوان «الثورة الاشتراكية والشرق»، ظهرت فى الصحيفة الرسمية لمفوضية الشعب لشئون القوميات المعروفة باسم بتاريخ ٥و١٢ أكتوبر و ٢ نوفمبر ١٩١٩، وفيها كتب يقول: «كلما امتدت الثورة الشيوعية، أصبح لزاماً على شعوب وبلدان بأكملها، شاءت أم أبت، أن تشارك فى ذلك الصراع. (.....) لقد حانت اللحظة الحاسمة، لا للأفراد فحسب بل

وللشعوب والدول كذلك، لكى تقرر مصيرها وتختار، دون رجعة، إلى أى جانب تنحاز. ولذا فإن عليك أن تشارك فى تلك الحرب، أردت ذلك أم أبيت، وأن تنحاز إلى جانب «الحمر» أو «البيض» عمداً أو بغير عمد». كان سلطان غالييف يفكر بالتأكيد فى مواطنيه التتر وغيرهم من المسلمين فى امبراطورية روسيا القديمة، ولكن الأبعد من ذلك أنه كان ينظر إلى دار الإسلام بأكملها، بل وعالم المستعمرات قاطبة. فقد تصدى، منذ المقالة الأولى، للهجوم على أساس اللينينية ذاته، وهو إيمانها بانتصار الثورة البروليتارية فى أوروبا الصناعية:

« . . . . بقدر ما تتضح لنا مبررات الاستراتيجية التى ننتهجها فيما يتعلق بالثورة الاشتراكية، إلا أنه من الضرورة بمكان أن نعترف بأن سياستنا تجاه الشرق تقتضى بعض التعديلات الهامة. وعلينا أن نعترف بأن كل الإجراءات التى اتخذناها، حتى وقتنا الحالى، من أجل تحديد العلاقات بين روسيا السوفاتية والشرق كانت ذات طابع عرضى ووقتى. إذ لم تكن لدينا سياسة محددة فى هذا المجال. وكانت تلك السياسة، فى أسوأ الحالات، انعكاساً لعجزنا المؤسف واعترافاً به، مثل انسحاب القوات الروسية من الأراضى الفارسية على سبيل المثال، بينما كانت، فى أفضل الحالات، تعبيراً عن التعاطف المثالى تجاه الحركات الوطنية وبذل الوعود بمساندة الآمال الثورية للشرق، كما هو الحال بعد ثورة الأفغان ضد الانجليز على سبيل المثال. ولم يبدأ نشاطنا فى اتخاذ طابع محدد بدرجة أو بأخرى إلا من اللحظة التى بدا فيها فشل الثورة الاشتراكية فى الغرب واضحاً، عندما فرض علينا مجرى الأحداث ذاته (سحق السبارتكيين فى ألمانيا، وإنهاء الإضراب العام احتجاجاً على التدخل فى الشؤون الروسية، وسقوط الجمهورية السوفياتية المجرية) الاعتراف بتلك الحقيقة البسيطة: أنه لا يمكن للثورة الاجتماعية إحراز أى انتصار دون مشاركة من جانب الشرق. إلا أن السياسة التى ننتهجها فى الوقت الحالى تفتقر إلى ذلك الطابع المحدد الذى تقتضيه قوانين التطور الصحيح لأية ثورة اشتراكية.... »

وهو يعيد المحاولة، فى المقالة الثانية، بتحليل لسياسة البلاشفة، وهو التحليل الذى لم ير فيه رفاقه الروس آنذاك سوى مجرد بدعة، وإن كان يبدو اليوم رؤية تنبؤية:

« .... غير أن الثورة قد وُجهت فى اتجاه خاطىء من الناحية التكتيكية. فما كان يبدو مهماً فى ظواهره المجردة (الحركة السبارتكية فى ألمانيا، والثورة المجرية)، لم يكن سوى أمر ثانوى فى السياق العام. ومرد ذلك هو أن جل اهتمام القادة الثوريين قد انصب على الغرب. إذ

كان يُنظر لتحول ثورة أكتوبر إلى ثورة اشتراكية عالمية باعتبار أنه انتقال للإرادة الثورية الروسية نحو الغرب، أى نحو ذلك الجزء من العالم الذى اتضحت فيه حدة التناقضات بين مصالح طبقة البروليتاريا والطبقة البورجوازية أكثر من غيرها، وحيث بدا المناخ أكثر ملاءمة لتطور الثورة نتيجة لذلك. وفى المقابل، فإن الشرق الذى يلغ تعداد سكانه ملياراً ونصف من البشر المقهورين على يد البورجوازية فى أوروبا الغربية، كاد أن يسقط تماماً فى بحر النسيان. فقد امتد تيار الصراع الطبقى الدولى ليحيط بالشرق، ولم يكن لمشكلة الثورة فى الشرق وجود إلا فى عقل بعض أفراد متفرقين، تائهين كما لو كانوا مجرد قطرات من المياه فى خضم بحر الثورة متلاطم الأمواج. ونظراً للجهل المتفشى فى الشرق وما كان يوحى به من مشاعر الخوف، فقد رفض البعض التسليم بأنه يمكن للشرق أن يشارك فى الثورة العالمية. وعلى ذلك فإن اتجاه الثورة الاشتراكية الدولية نحو الغرب وحده كان خطأ فادحاً.».

وقد أضاف سلطان غالييف إلى ذلك بدعة أخرى تفوقها كثيراً، مشككاً فى قدرة العامل الأوروبى على الانتصار وحده على البورجوازية والرأسمالية بقوله: «إلا أننا لسنا على يقين من أن قوة البروليتاريا الأوروبية الغربية تكفى وحدها لسحق البورجوازية فى أوروبا الغربية لسبب بسيط، وهو أن تلك البورجوازية دولية بل وعالمية، وأن القضاء عليها يقتضى الاستعانة بالإرادة والطاقة الثوريتين لمجموع البروليتاريا الدولية، بما فى ذلك البروليتاريا فى الشرق.».

ثم كان ذلك النداء الحار لإعادة توجيه استراتيجية الحركة الشيوعية الدولية نحو الشرق فى قوله: «إن الامبريالية الأوروبية الغربية، وقد حُرمت من الشرق وانفصلت عن الهند، وأفغانستان، وبلاد فارس، وغيرها من المستعمرات الآسيوية والأفريقية، سوف يقدر لها أن تتقوض وتنتهى نهاية طبيعية.» وقد بادر سلطان غالييف إلى توضيح مفهومه الاستراتيجى للثورة فى آسيا فى العدد التالى من صحيفة Fizn 'Natsional' nostey واختُتم المقال الأخير فى الواقع بعبارة: «البقية فى العدد القادم»؛ إلا أن هذه البقية لم يقدر لها أن ترى النور. ونظراً للمركز المرموق الذى كان يشغله سلطان غالييف – حيث عمل نائباً لرئيس مجلس إدارة صحيفة Fizn 'Natsional' nostey آنذاك – ، فإنه كان يتعين اتخاذ القرار بحظر نشر أكثر الأجزاء أهمية فى تحليله على مستوى عالٍ، عن طريق ستالين نفسه بالتأكيد، وربما بناءً على رأى لينين. والأمر المؤسف حقيقة بالنسبة للمؤرخين هو أن يظل ذلك الجزء الأخير من أكثر المقالات التى كتبها سلطان غالييف أهمية حبيساً حتى يومنا هذا فى المحفوظات الخاصة

بأجهزة المخابرات السوفياتية.

غير أن سلطان غاليف أعاد الكرّة من جديد بإرادة حديدية لا يقف أمامها شيء. ففي نوفمبر ١٩١٩، عقد في قازان مؤتمراً للمسلمين بمدينة قازان، حيث تولى رئاسته وتوجيه سير المناقشات به. وقدم أحد رفاقه، وهو ميكداد بوروندوكوف، اقتراحاً للتصويت عليه في ذلك المؤتمر يدلل به على مطالبة الشيوعيين التتر بقيادة الثورة في المستعمرات.

«على شعوب الشرق أن تشارك على نحو فعال في التحرير (الشرق)، كما يتعين على الشيوعيين المسلمين الاضطلاع بدور رئيسي في ذلك. إلا أن هذه المشاركة لن تصبح فعالة إلا إذا بادرت السلطة السوفياتية واللجنة المركزية للحزب الشيوعي إلى تقديم أكبر قدر ممكن من المساعدات المادية والمعنوية. وينبغي أن تكون نقطة البداية للمشاركة في هذا العمل هي الإصلاح الجذري للقسم الشرقي في مفوضية الشعب للشؤون الخارجية، بحيث يُعهد به إلى الشيوعيين المسلمين.»

إلا أن ذلك الطلب قوبل بالتجاهل التام من جانب القادة البلاشفة.

وفي ٢١ نوفمبر ١٩١٩، أثناء انعقاد المؤتمر التحضيري للمؤتمر الثاني للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق برئاسة لينين وستالين وكالينان، طالب سلطان غاليف بتطبيق القرار الصادر في ٢٣ مارس ١٩١٨ وإنشاء الدولة التترية البشكيرية على وجه السرعة. وإزاء رفض لينين النظر إلى ذلك الطلب بعين الاعتبار، فقد أحيل الموضوع إلى اللجنة المركزية للحزب. وفي اجتماع ثانٍ للمندوبين،تقرر إلغاء القرار الصادر في ٢٣ مارس. وبعد بضعة أيام، أعاد سلطان غاليف محاولته في المؤتمر الثاني للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق الذي انعقد في موسكو، في الفترة من ٢٢ نوفمبر حتى ٣ ديسمبر، وتولى هو رئاسته، من قبيل التكريم غير العادي لشخصه، في حضور لينين وستالين وعدد آخر من البلاشفة. وهناك طالب بتنفيذ الوعود المتضمنة في قرار ٢٣ مارس، أو على الأقل إدراج البشكيريين الباقين خارج حدود بشكيريا الصغرى في الدولة التترية البشكيرية. ومرة أخرى، رفض الرفاق الروس تلك المطالب، وتم إلغاء قرار ٢٣ مارس ١٩١٨ بصورة قطعية. وتبريراً لذلك الإجراء، استثار ستالين روح العداء من جانب بعض المندوبين البشكيريين تجاه دولة يسيطر فيها التتر الأكثر تطوراً على البشكيريين. إلا أن السبب الحقيقي – وهو الخوف من القومية المحلية – بدا واضحاً من خلال التعليقات الموجهة من شخص يدعى الحريزي (وهو اسم مستعار) إلى مؤتمر التنظيمات الشيوعية لشعوب

الشرق، وذلك فى صحيفة Fizn 'Natsional' nostey الصادرة فى ٧ ديسمبر ١٩١٩:

«إننا ندرك أن العديد من الرفاق ينظرون بعين الشك إلى الجدوى العملية والسياسية لإنشاء جمهوريات جديدة (....) وليس بوسعنا أن ننكر أن هذه الشكوك تستند إلى أسباب وجيهة. فإنشاء أية جمهورية إنما هو سلاح ذو حدين موجه صوب القومية. إذ تفقد القومية فعاليتها عندما لا تواجهها أية عقبات على الطريق، أى عندما لا تشن حرب ضدها.

هذا من جانب، إلا أن القوميين بكافة أنواعهم يستغلون ذلك، من جانب آخر، للتستر وراء العباءة الثورية للشيوعية من أجل القيام بأكثر الأعمال دناءة، فى الوقت الذى يمجدون فيه التطرف الوطنى الذى يبلغ حد العداء للبروليتاريا فى الجمهوريات المجاورة.»

ورغم أننا لا نعلم على وجه اليقين من ذا الذى اتخذ لنفسه ذلك التوقيع «الحريزى» لكى يتخفى وراءه، إلا أننا نعتقد بأن تلك الملاحظات المغرضة حول «القوميين الذين يتسترون وراء عباءة الشيوعية» كانت موجهة إلى سلطان غالييف، وإن تم ذلك بصورة غير مباشرة.

وجاء المؤتمر الثانى للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق لإقرار تصفية ما تبقى من استقلال للشيوعية الإسلامية. وقد برر ذلك «الحريزى» نفسه، فى مقال بصحيفة Fizn 'Natsional' nostey الصادرة فى ٧ ديسمبر ١٩١٩، إدانة ذلك بدعوى أنها تحبذ القومية:

«إن المطالب والنظريات القومية تظهر بشكل حتمى إذا ما تقبلنا التنظيمات الشيوعية الوطنية، طالما أن هذه الأخيرة تسعى إلى تبرير وجودها عن طريق وضع برامج سياسية خاصة. (....) ولا يمكن إلا فى إطار الحزب الشيوعى الروسى ضمان ألا يحيد الشيوعيون الشبان فى الشرق عن الصراط المستقيم لكى يقعوا تحت نفوذ الإنتلجنتسيا من البورجوازية الصغيرة التى انقضت على حزبنا لأسباب مختلفة.»

وعقب المؤتمر، أُلغيت كلمة «مسلم» وحل محلها لفظ أكثر غموضاً وحياداً وهو «شرقى». وهكذا استُبدلت الفروع الإسلامية فى الحزب الشيوعى الروسى بدوائر «لغوية» وُضعت تحت إشراف إدارات وطنية. وعينت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى أخصائيين، من الروس بوجه عام، على رأس تلك الإدارات. ويُستنتج من تعليقات «الحريزى» أن غالبية الشيوعيين المسلمين كانوا معادين لذلك المشروع وطالبوا بأن يُعهد بتنسيق نشاط الدوائر الوطنية ليس إلى «إدارات معينة» من قبل اللجنة المركزية، وإنما إلى مكتب «منتخب» بواسطة

الدوائر المحلية. وعلى ذلك، فإن الحرب الكلامية كانت تدور حول مشكلة ثانوية فى ظاهرها، إلا أنها أخفت وراءها اختلافاً جوهرياً بين الروس، أنصار النظام الواحد، والمسلمين، أنصار اللامركزية، وانبثقت من تلك الحرب الكلامية السياسة التى انتهجتها الأممية الشيوعية فى البلدان الإسلامية.

وأخيراً، فقد تصدى المؤتمر لمشكلة الثورة فى الشرق، وفى البلدان الإسلامية بصفة أساسية، رغم حذف كلمات «الشعوب الإسلامية» و «البلدان الإسلامية» بعناية من مفردات اللغة. وجاء القرار النهائى غاية فى النفاق – وهو ما يسميه الإيرانيون do-rouyi (الرياء) وdo-gouyi (النفاق). فالواقع أنه بعد إعلان ضرورة مشاركة الشرق فى الثورة الاشتراكية العالمية، بادر المؤتمر إلى وضع هذه المشاركة تحت سيطرة الحزب الشيوعى الروسى وحده، وهذا بالضبط ما سعى سلطان غالييف ورفاقه إلى تحاشيه. وقد نُشر نص القرار الصادر حول مسألة الشرق فى صحيفة Fizn 'Natsional' nostey الصادرة فى ٧ ديسمبر ١٩١٩:

أولاً: يرى المؤتمر أن مشكلة الثورة الاشتراكية العالمية يتعذر حلها بدون مشاركة الشرق الذى يمثل قوة اجتماعية واقتصادية لا تضارع.

ثانيا: يتعين على الحزب الشيوعى (ب) الروسى الذى يشغل حالياً، بموجب وضعه الدولى، المركز القيادى للحركة الشيوعية العالمية، اتخاذ اجراءات ملموسة فى سبيل نشر الثورة فى الشرق.

ثالثا: إن العمل الثورى الذى يضطلع به الحزب الشيوعى فى الشرق ينبغى أن يسير فى اتجاهين. أحدهما يمليه البرنامج الثورى الطبقى للحزب الذى يوصى بإنشاء أحزاب شيوعية فى بلدان الشرق تنبثق عن الأممية الشيوعية الثالثة. والاتجاه الآخر تحدد على أساس الوضع السياسى والتاريخى والاجتماعى والاقتصادى للشرق الذى يفرض عليه، حتى وقت معين، مساندة الحركات الوطنية المناهضة للامبريالية والتى تتزعمها البورجوازية، شريطة ألا تتعارض هذه الحركات مع الإرادة الثورية للبروليتاريا الدولية.

رابعاً: حتى يتسنى تحقيق هذه الأهداف، يجدر تنظيم الدعاية المناهضة للامبريالية والاهتمام إلى أقصى حد ببنيان الشيوعية فى الشرق.

خامساً: يتولى القيام بهذا العمل الجهاز المركزى للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق، الذى يقوم بإنشاء دوائر إقليمية وفروع تخضع لسلطة اللجنة المركزية للحزب الشيوعى

الروسي.

سادسا: حتى يمكن حشد الطاقات اللازمة لإثارة الميول الثورية فى الشرق، يجدر تركيز العمل داخل الجمهوريات السوفياتية الشرقية التى أنشئت بالفعل أو سيجرى إنشاؤها مستقبلاً (تركستان، كيرجيزيا، وغيرها).

سابعاً: فى سبيل تحقيق هذه الأهداف، ينبغى الشروع على الفور فى إعداد أشكال محددة للعمل، وتثبيت دعائم الصلات بين هذه الجمهوريات التى ستمثل المراكز الثورية للشرق فى المستقبل.

ثامناً: يرى المؤتمر ضرورة اتخاذ الإجراءات المحددة التالية كنقطة بداية:

١) التعجيل بإعداد عمال الحزب ومجالس السوفيات للاضطلاع بمهامهم فى الشرق.

٢) إعداد مستشرقين سوفيات.

٣) إنشاء جيش أحمر بروليتاري شرقى، يشكل جزءاً من الجيش الأحمر الدولى.

٤) تكثيف إعداد القادة العسكريين الحمر».

ويُعتبر المؤتمر الثانى للتنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق منعطفاً هاماً فى الحياة السياسية لسلطان غاليف. وهو كذلك صاحب أعلى منصب يشغله مسلم داخل تنظيم الحزب الشيوعى الروسى، فضلاً عن كونه أحد المستشارين ذوى الكلمة المسموعة لدى ستالين، ظاهرياً على الأقل، وإن كان فى الواقع على خلاف مع رفاقه الروس حول معظم النقاط المتعلقة بالثورة فى الشرق. إذ يظهر بمظهر «شبه المنشق»، كما أن مقالاته وتصريحاته العامة تتعارض مع وجهات النظر الرسمية. وعلى ذلك، فإن سلطان غاليف قد اعتقد، فى أبريل ١٩٢٠، بعد قيام الجيش الأحمر بغزو باكو، بأن الوقت قد حان للإعلان من جديد أن الأقاليم الإسلامية المحيطة بروسيا السوفياتية هى نقطة الإنطلاق نحو انتشار الشيوعية فى الشرق الإسلامى. وفى إحدى المقالات الهامة المنشورة بصحيفة Fizn 'Natsional' nostey بتاريخ ٩ أغسطس ١٩٢٠، والمخصصة لإعلان جمهورية أذربيجان السوفياتية، كتب يقول:

«إن إضفاء الطابع السوفياتى على أذربيجان هو أمر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للبنيان الشيوعى فى الشرق الأدنى (.....) وإذا كانت تركستان الحمراء قد لعبت دور المرشد الثورى لكل من تركستان الصينية، والتبت، وأفغانستان، والهند، وبخارى، وخيفا، فإن أذربيجان السوفياتية بما فيها من بروليتاريا قديمة محنكة وحزب شيوعى قوى، وهو حزب

الهمة، سوف تكون المنارة الحمراء لبلاد فارس، وبلاد العرب وتركيا (. . . .) كما أن كون اللغة الآشورية من اللغات المتداولة لدى الأتراك فى استانبول، والفرس فى تبريز، والأكراد، والشعوب التركية فيما وراء بحر قزوين، والجيورجيين والأرمن، من شأنه أن يضاعف من أهمية السياسة الدولية التى تنتهجها أذربيجان السوفياتية. فمن هناك، سوف يمكننا مناوشة الانجليز فى فارس، والوصول إلى بلاد العرب، وتوجيه الحركة الثورية فى تركيا حتى تتحول إلى صراع طبقى مستقل بدرجة أو بأخرى.»

وقد نوقشت مشاكل الثورة فى المستعمرات، ودور الشيوعيين المسلمين كنتيجة لاحقة لذلك، مرتين فى عام ١٩٢٠: فى شهر يولية أثناء المؤتمر الثانى الذى عقدته الأممية الشيوعية (يولية - أغسطس ١٩٢٠) فى موسكو، والذى حضره سلطان غالييف كعضو فى الوفد الروسى - وإن لم يكن له فيه أدنى دور - ، وفى شهر سبتمبر على وجه الخصوص خلال المؤتمر الأول لشعوب الشرق فى باكو الذى لم يحضره، وإن كان قد تصدى للدفاع عن آرائه اثنان من المقربين له، وهما الكازاخستانى تورار ريسكولوف والتركستانى ناربوتا بيكوف، اللذان اتهمهما ستالين فيما بعد باعتبارهما «غالييفيين قوميين بورجوازيين»، حيث جرى إعدامهما عام ١٩٣٨.

وقد نُشرت تعليقات عديدة حول مؤتمر باكو، حيث اعتُبر فى بعض الأحيان - وخلافاً للحقيقة - محاولة من جانب الأممية الشيوعية لنقل الحركة الثورية إلى الشرق من خلال الدعوة إلى الجهاد ضد الامبريالية الغربية. إلا أننا لو أجرينا تحليلاً للتقرير الموجز الصادر عن المؤتمر على ضوء الصراع الخفى الذى تصدى فيه سلطان غالييف ورفاقه، على مدى ما يقرب من عامين، للبلاشفة الروس، لتأكد لنا أن نوايا زعماء الأممية الشيوعية الحاضرين فى باكو كانت مختلفة تماماً. فقد رأى سلطان غالييف ورفاقه، من وجهة نظرهم، أن مؤتمر باكو ينبغى أن يكون نقطة انطلاق لحرب التحرير الكبرى من جانب «شعوب الشرق المقهورة» ضد الغرب. أما قادة الأممية الشيوعية فكانوا يعتقدون أن النداء الموجه إلى الشرق لا يُقصد من ورائه سوى طلب العون المؤقت للبروليتاريا الصناعية الغربية فى صراعها ضد البوجوازية، عن طريق إضعاف القوى الاستعمارية الأوروبية، وعلى رأسها انجلترا وفرنسا.

وقد شدد تورار ريسكولوف، المندوب الكازاخستانى لإقليم سير - داريا، وهو يطرح مشكلة الثورة فى أى بلد مستعمَر، على دور البورجوازية الصغيرة الراديكالية المحلية فى حركة

ينبغى أن تكون حركة للتحرر الوطنى وثورة اشتراكية فى آنٍ واحد:

«لا يمكننا أن نعتمد فى الشرق على ثورة شيوعية خالصة. فهذه الثورة سوف تكتسب الطابع الوطنى للبورجوازية الصغيرة، إلا أنها سوف تتطور بالضرورة إلى حركة اشتراكية. (....) وطالما أن التنظيمات الثورية العمالية فى الشرق لا تزال ضعيفة، فإنه سوف يتعين على «الديمقراطيين البورجوازيين الصغار» تولى قيادتها.»

أما ناربوتا بيكوف، مندوب تركستان الذى لا يمثل أى حزب معين، فقد أكد، انطلاقاً من وجهات نظر سلطان غاليف على وجه الدقة، أن مستقبل الثورة العالمية فى الشرق لا العزب:

«إن السلطة السوفياتية لن تجد لها حليفاً خيراً من الجموع الكادحة فى الشرق. فعلى مدى ثلاثة أعوام، ورغم النداءات المتكررة من جانب رفاقنا، لا تزال البروليتاريا فى أوروبا الغربية - خيرة عناصر الثورة العالمية - غير قادرة على أن تحزم أمرها لتقديم العون لنا بصورة جادة.

لقد أثبت الفشل الذريع لإضراب ٢١ يولية أن البروليتاريا فى أوروبا الغربية لا تستطيع أن تمد يد العون إلى الثورة الروسية؛ ومن ثم فإنه يتعين المبادرة دون إبطاء إلى تنظيم الشرق بصورة عقلانية وطبقاً للأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية الملائمة له. وليس هناك من سبيل آخر أمام السلطة السوفياتية.»

وقد أكد ناربوتا بيكوف، مثله فى ذلك مثل سلطان غاليف، على ضرورة مواءمة الشيوعية طبقاً للظروف الخاصة للشرق، وإتاحة الفرصة أمام الشيوعيين المسلمين لتبوؤ مركز متميز فى صرح الاشتراكية: «إن الاختلاف جد كبير بين الشرق والغرب، فضلاً عن تباين المصالح فيما بينهما، وهكذا فإن التطبيق المباشر للشيوعية سوف يواجه بمقاومة. وعلينا أن نوائم النظام السوفياتى حتى يمكن لملايين المسلمين تقبله. فالمسلمون لن يتخلوا عن السلطة السوفياتية شريطة الاعتراف بمصالحهم.»

إلا أن ادعاءات المندوبين المسلمين قوبلت جميعها بالرفض من جانب قادة الأممية الشيوعية الحاضرين فى المؤتمر، زينوفييف وراديك وبيلا-كون. والواقع أن المؤتمر قد نبذ فكرة إنشاء جبهة وطنية دائمة تتولى إدارتها البورجوازية الصغيرة التى كان سلطان غاليف والمقربون إليه يعتبرونها حجر الزاوية لأى توسع شيوعى فى الشرق. وقد أعلن المؤتمر، بناءً على اقتراح من زينوفييف وبيلا كون، ضرورة التزامن بين الثورتين، التحرر العالمى من الامبريالية والثورة

الاجتماعية ضد الإقطاع والبورجوازية على الصعيد المحلى. فقد صرح زينوفييف بقوله: إننا نساند الحركة الوطنية التركية، ولكننا نضطلع فى الوقت ذاته بواجب مقدس هو استنفار الفلاحين المقهورين فى تركيا للكفاح ضد الأثرياء والطغاة جميعاً.»

أما ولتمان - بافلوفيتش، وهو البلشفى الوحيد الذى تلقى تدريباً يؤهله كمستشرق متخصص مع دراية بالعالم الإسلامى، فقد كان أكثر صراحة فى التعبير بقوله: «إذا لم يفسر النضال الوطنى فى فارس والهند وتركيا إلا عن استيلاء الرأسماليين وذوى الأملاك فى هذه البلدان على السلطة، فإن الجموع الشعبية تكون قد خرجت من المعركة صفر اليدين.» وتناول بيلا - كون، من جانبه، وهو القائد الشيوعى المجرى الذى أحبط الثورة الشيوعية فى المجر بصورة مذهلة، وكان قد كُلف بعرض القضايا «المتعلقة بسلطة السوفيات فى الشرق» والتى اعتمدها المؤتمر، ذلك مؤكداً: «إن مجرد التحرر من نير الغزاة الأجانب لن يكفل وحده (للجموع الشرقية) الحرية الحقيقية، بل عليها أن تتخلص من طاغيتها، البورجوازية الوطنية».

كما شددت غالبية المندوبين الروس والأوروبيين كذلك على ضرورة أن يُعهد بقيادة الحركة الثورية فى المستعمرات لا إلى البورجوازية الراديكالية الصغيرة، وإنما إلى طبقة الفلاحين الفقراء، وإن كانت هذه الأخيرة، نتيجة لضعفها السياسى، قد عجزت عن البرهنة على جدارتها بذلك الشرف. فقد صرح بيلا كون، رغم افتقاره لمساندة طبقة الفلاحين فى المجر قبل ذلك بعدة أشهر، قائلاً: «إن ديكتاتورية البروليتاريا فى الشرق، حيث لا وجود لطبقة العمال الصناعيين، هى تعبير عن ديكتاتورية الفلاحين الفقراء. (....) ومن ثم فإن طبقة الفلاحين ينبغى أن تكون هى العنصر القيادى فى مجالس السوفيات».

وأخيراً، فقد أكد الجميع الأولوية المطلقة للثورة البروليتارية فى الغرب على الثورة الاستعمارية: «علينا ألا نغفل تلك الحقيقة البديهية، وهى أنه لن يتسنى لشعوب الشرق الظفر بحريتها دون الاتحاد مع البروليتاريا الغربية.» وكما يقول بافلوفيتش، فإن «خلاص الشرق ليس له من سبيل سوى انتصار البروليتاريا الغربية».

وهكذا فإن مؤتمر باكو، رغم النداءات الداعية إلى الجهاد المقدس، قد مثل تراجعاً تكتيكياً فيما يتعلق بالمؤتمرات المعقودة من قبل التنظيمات الشيوعية لشعوب الشرق. فاقتراح التحالف بين البروليتاريا الغربية وطبقة الفلاحين المعدمين فى الشرق كان يفتقر إلى الواقعية تماماً. ومن ثم فإن مؤتمر باكو، برفضه أى شكل من أشكال التعاون الدائم مع البورجوازية

الوطنية، وبإيلائه أهمية قصوى لطبقة الفلاحين الفقراء وأولوية مطلقة للثورة فى الغرب، قد مثل عودة إلى التشدد المذهبى بدرجة أكبر الأمر الذى ترتب عليه تقليص الإمكانات الثورية فى الشرق. وهكذا تلاشى حلم الشيوعيين التتر فى اندلاع «ثورة مستمرة» فى آسيا من شأنها أن تتيح لهم القيام، يوماً ما، بدور الوسطاء بين الأممية الشيوعية والحركات الثورية المحلية. ومن المحتمل أن يكون سلطان غاليف قد خلص، حتى قبل انتهاء المناقشات فى مؤتمر باكو، إلى نتيجة مؤداها أنه لن يتسنى له نقل مطالبه الشيوعية - الوطنية فى إطار الحزب الشيوعى الروسى، وإنما عليه البحث عن تنظيم آخر. وقد وقع اختياره، دونما انفصام عن رفاقه البلاشفة، على تنظيم الشبيبة الشيوعية (Komsomol). وعقد فى موسكو، فى الفترة من ١٢ إلى ١٨ سبتمبر ١٩٢٠، وبمعاونة رفاقه من المكتب المركزى للتنظيمات الشيوعية فى بلدان الشرق، المؤتمر الروسى الجامع الأول للشبان الشيوعيين من شعوب الشرق، حيث ضم حوالى مائة من المندوبين يمثلون أكثر من ٦٠٠٠٠ من الشبان الشيوعيين فى الشرق. وقد قرر المؤتمر إنشاء مكتب مركزى شرقى يتبع تنظيم الشبيبة الشيوعية ويضطلع بمهمة «توجيه الدعاية للأفكار الشيوعية بين شباب الشرق» و «يعتبر بمثابة هيئة فرعية تابعة للجنة المركزية لتنظيم الشبيبة الشيوعية». وهذا المكتب المركزى، المؤلف من تسعة أعضاء تحت رئاسة سلطان غاليف، أنيطت به إدارة سلسلة من «المكاتب الشرقية» التى أنشئت فى إطار اللجان الإقليمية والمحلية وتلك المختصة بالمقاطعات التابعة لتنظيم الشبيبة الشيوعية فى كل من بشكيريا وتركستان وكيرجيزيا. كما تقرر أن تخصص لهذه المكاتب إدارة مستقلة وأن تتبعها دوائر للصحافة والنشر. وقد أثار سلطان غاليف للمرة الأولى، فى ذلك المؤتمر الذى جرت وقائعه تحت شعار «وحدة الشعوب الإسلامية فى الشرق»، فكرة إنشاء أممية للمستعمرات الشيوعية بصفة مستقلة عن الأممية الشيوعية وهو ما أصبح أحد النقاط الرئيسية لبرنامجه بعد عام ١٩٢٣. إلا أن محاولاته «الانفصالية» اصطدمت، للمرة الثانية، بالحذر المشوب بسوء النوايا من جانب رفاقه الروس. إذ لم يكد المؤتمر يختتم أعماله، حتى بادرت مجلة Fizn 'Natsional' nostey إلى نشر مقالة تتهم فيها الشبان الشيوعيين المسلمين بارتكاب «أخطاء جسيمة» لإباحتهم «المناورات الشائنة»(urodliuye) الرامية إلى إنشاء جهاز تنظيمى شبه مستقل لكل قومية على حدة داخل اتحاد الشبيبة الشيوعية. وعندئذ تدخلت اللجنة المركزية لتنظيم الشبيبة الشيوعية الروسى، الأمر الذى أدى إلى فشل مشروع المكتب الشرقى. بيد أن سلطان غاليف

ورفاقه لجحوا فى أن يجعلوا من تنظيمات الشبان الشيوعيين فى الجمهوريات الإسلامية بروسيا السوفياتية معاقل حقيقية للشيوعية الوطنية، لا سيما فى تترستان حيث بلغوا حد السيطرة التامة على تنظيم الشبيبة الشيوعية الجمهورى.

وعلى ذلك، فإن مشاريع سلطان غاليف قد باءت جميعها بالفشل فى غضون عامين اثنين. وحُرِم الشيوعيون المسلمون من أى تنظيم مستقل بدعوى الفعالية والمركزية. فقد جعل ممثلو الأممية الشيوعية فى مؤتمر باكو من الصعب، إن لم يكن من المستحيل فى وقت ما، نشر الاشتراكية خارج حدود روسيا السوفياتية. وأخيراً قامت الحكومة المركزية، من منطلق خشية الجامعة التركية، بتفكيك الجامعة التترية البشكيرية فى الفولجا - الأورال بإنشاء جمهوريتين مستقلتين صغيرتين بدلاً من دولة إسلامية كبرى.

ولعلنا نتساءل عن الأسباب التى دعت قادة موسكو، لاسيما ستالين، إلى المبادرة على الفور برفض نظريات سلطان غاليف. ونسوق فيما يلى بعضاً من هذه الأسباب على نحو ما نعتقد:

- على الصعيد الفكرى أولاً. أن القادة البلاشفة، بنشأتهم الغربية، لم يكونوا على دراية بالشرق، فضلاً عن عدم اهتمامهم بحركة ثورية لا تساند البروليتاريين الصناعيين.
- وعلى الصعيد السياسى كذلك. أن سلطان غاليف كان يسعى إلى استغلال الأراضى الإسلامية فى روسيا، وقازان على وجه الخصوص، كأداة للتوسع الثورى فى آسيا، وهو ما كان من شأنه أن يجعل من الشيوعيين التتر السادة المطلقين الحقيقيين فى الأممية الشيوعية. ولعل فى ذلك ما يفسر لنا لماذا تحمس المسلمون الذين تغلب عليهم صفة القومية على الشيوعية للانضمام إلى النظام الجديد، على أمل أن يتيح لهم دورهم فى آسيا التمتع بثقل يعادل وزن روسيا الأوربية فى اللعبة السياسية. إلا أننا ندرك كذلك حذر الروس من هؤلاء الحلفاء الذين لا يوثق بهم أيديولوجياً.
- وأخيراً على الصعيد النفسى. فإن تشدد ستالين وغيره من الزعماء الشيوعيين الروس كان مشبعاً بروح بيروقراطية تأبى على المحيط الإسلامى أن تكون له أجهزة وطنية مستقلة أو لا تتوافق مع الجهاز المركزى.

وفى خريف عام ١٩٢٠، ألقت الحرب الأهلية أوزارها وحقق الجيش الأحمر انتصارات على جميع الجبهات. كما آلت الأقاليم الإسلامية فى امبراطورية القياصرة القديمة إلى سلطة

البلاشفة منذ ذلك الوقت: فتم فتح أذربيجان فى أبريل ١٩٢٠، وبخارى فى سبتمبر، بينما فُتحت كريميه فى أكتوبر، وخيفا فى ديسمبر. ولم يبق سوى الثوار المسلمين وحدهم فى مواجهة الوحدات الحمراء فى القوقاز الشمالية وفى تركستان. وامتدت هاتان الثورتان بقيادة العناصر الدينية الأكثر تحفظاً حتى عام ١٩٢١ فى داغستان وحتى عام ١٩٢٨ فى تركستان. ورغم أن السلطة السوفياتية أحرزت انتصاراً فى جميع المناطق الأخرى، إلا أن ذلك النصر امتزج بالمرارة. فقد اجتاح الدمار والاستنزاف أنحاء روسيا، لا سيما الأقاليم الإسلامية فى فولجا الوسطى، وفى كريميه، والقوقاز، وتركستان. وكانت الخسائر فى الأرواح البشرية مفزعة، كما صاحبها حدوث مجاعات، وتوقف شبه تام لوسائل المواصلات، إلى جانب الدمار الاقتصادى، واختفاء طبقة الصفوة بعد قتل أبنائها أو لجوئهم إلى الخارج، فضلاً عن تدمير المؤسسات التقليدية الإسلامية: كالمدارس والمساجد. وهكذا تقوض الجهاز الإدارى والسياسى الذى أرسى سلطان غالييف وملا نور فاهيتوف دعائمه فى إقليم الفولجا الوسطى، فى خضم المعارك التى اكتسحت كل شىء فلم تبق ولم تذر. كما اختفت معظم المفوضيات واللجان والمكاتب الإسلامية التى أنشئت فى ١٩١٨-١٩١٩ من حيز الوجود، وأبيدت الوحدات الحمراء الإسلامية خلال الهجمات الضارية التى شنتها ضد التشيكوسلوفاك وكولتشاك. أما الحزب الشيوعى الإسلامى فلم يعد له وجود، وتحطم حلم إنشاء دولة إسلامية تترية بشكيرية كبرى. وأخيراً فإنه بعد القضاء على البيض، لم يعد القادة السوفيات بحاجة إلى حلفائهم المسلمين.

وهكذا فإن محصلة ذلك النشاط المحموم على مدى أعوام الحرب كانت تبدو سلبية تماماً بالنسبة لسلطان غالييف. إلا أن هذه السلسلة من الفشل قابلتها جزئياً ظاهرة جديدة، طرأت فى نهاية الحرب الأهلية وغداة تلك الحرب: وهى انضمام المسلمين إلى الحزب الشيوعى الروسى بأعداد كبيرة. والواقع أن القادة البلاشفة قد أدركوا تماماً مدى ضعف السلطة فى المحيط الإسلامى. وكانوا بحاجة إلى مهلة حتى يمكنهم تدعيم تلك السلطة. واقتضى الأمر إخماد ثورات البسماتشيين والطرق الصوفية فى شمال القوقاز تحقيقاً لذلك الغرض. وتواكب هذه المهلة فترة السياسة الاقتصادية الجديدة حيث استمرت حتى عام ١٩٢٨. وخلال تلك الفترة، استطاع المسلمون حديثو العهد بالشيوعية، بفضل هيمنتهم على الأحزاب الشيوعية المحلية، إدارة شؤون جمهورياتهم دون تدخل كبير من جانب موسكو. وترك لهم ستالين، مفوض الشعب لشؤون القوميات، حرية القيام بذلك، رغبة منه فى تعزيز الوفاق بين الروس وسكان البلاد

الأصليين. وهكذا وصل إلى السلطة أعضاء جميع الأحزاب السياسية القومية الإسلامية فى فترة ما قبل الثورة بالجملة، أعضاء حزب الهمة فى أذربيجان، وأعضاء حزب ألاش - أوردا الكازاخستانى، إلى جانب الكريميين أعضاء حزب ملى - فركيست، والبخاريين الشبان، والخيفيين الشبان فى آسيا الوسطى. وكان زعماؤهم، الكازاخستانيون أحمد باى طورسون، وعلى بوكيخانوف، والتركستانيون فيظ الله خودجاييف، وأكمل إكراموف، وتورار ريسكولوف، والكريمى والى إبراهيموف، وغيرهم كثيرون، يعتنقون بدرجة أو بأخرى آراء سلطان غاليف حول ضرورة أن يتوخى المسلمون الذين تحولوا إلى الشيوعية الحذر من الحزب الشيوعى الروسى. وعلى مدى الأعوام الثلاثة الفاصلة بين انتهاء الحرب الأهلية وإقالة سلطان غاليف للمرة الأولى من عام ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٢٣، نقل الشيوعيون القوميون المسلمون جهودهم، بعد إقصائهم عن إدارة شؤون المركز فى موسكو وعن سياسة روسيا السوفياتية فى العالم الإسلامى، إلى جمهورياتهم الوطنية، حيث حاولوا أن يجعلوا منها معاقل وطنية مع إبعاد رفاقهم الروس عنها بقدر المستطاع، وحققوا فى ذلك نجاحاً ساحقاً فى كثير من الأحيان. وترتب على ذلك انتقال الصراع الدائر داخل الأحزاب الشيوعية المحلية بين المركزية الروسية من جانب والتطلعات الاستقلالية للمسلمين من جانب آخر، إلى المحيط الإسلامى بدلاً من موسكو.

وفى أعقاب مؤتمر باكو، أصبحت الاتصالات بين موسكو والحركات الثورية فى الشرق، وبصفة رئيسية فى تركيا وإيران، حكراً على الروس وغيرهم من «الأوروبيين»، فى حين ظل الشيوعيون المسلمون على الحياد بصورة قاطعة، الأمر الذى ألحق أبلغ الأضرار بالحركة الثورية فى الشرق. وأصبح تصدير الثورة إلى عالم المستعمرات، ولا يزال إلى اليوم، من اختصاص الروس. ففى عام ١٩٢٠، نزل فيلق كامل من الجيش الأحمر فى أونزيلى، بدعوى معاونة الجونجيليين فى حربهم ضد نظام الكاجاريين و «الامبريالية الانجليزية». ولما كان يتألف من الروس بالكامل، فقد التزم الحياد عندما شن الجونجيليون هجومهم الكبير على طهران. ولم تلبث الجبهة المشتركة بين القوميين الجونجيليين والشيوعيين، وهى التجربة الأولى من نوعها فى تاريخ الحركة الشيوعية الدولية، أن انهارت وتقوضت أركانها. وبادر الزعيم الجونجيلى ميرزا كوتشيك خان، اعتقاداً منه بأن حلفاءه الشيوعيين كانوا يناورون لتولى زعامة الجبهة والشروع فى تصفية القوميين، إلى قتل أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الإيرانى. وبعد ذلك مباشرة تم إجلاء فيلق الجيش الأحمر عن غيلان، وفى سبتمبر ١٩٢١، ألحق جيش الشاه الهزيمة

بجيش الثوار. كما لقى كوتشيك خان حتفه متأثراً بالصقيع أثناء محاولته عبور جبال تاليش للجوء إلى اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. أما مصطفى صبحى ورفاقه الأتراك الذين قاموا بتأسيس الحزب الشيوعى التركى فى باكو فقد اتجهوا، من جانبهم، إلى تركيا، اعتقاداً منهم أن نفوذهم سيتيح لهم إجبار كمال أتاتورك على تحويل ثورته الوطنية الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية. وكان رحيلهم فى سبيل هذه المهمة بموافقة القادة البلاشفة، ومن بينهم لينين وستالين. إلا أنه لدى وصولهم إلى تريبزوند، قام العسكر بإلقاء القبض عليهم وقتلهم بالحراب ثم إلقاء جثثهم فى البحر. وانتشرت الأقاويل فى موسكو بأن تلك المذبحة لم يُقصد بها الإساءة إلى قادة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية الذين أعلنوا بوضوح، منذ ذلك الوقت، أنهم يفضلون إقامة أنظمة «بورجوازية» محايدة فى تركيا كما فى إيران أو أفغانستان، عن الاندفاع فى مغامرات ثورية. وفى عام ١٩٢٢، أعلن فى تركيا أن الشيوعية غير مشروعة، واختفى الحزب الشيوعى من الساحة السياسية التركية.

غير أنه من الخطأ الاعتقاد بأن سلطان غالييف ورفاقه فقدوا كل اتصال لهم بالعالم الإسلامى الخارجى. إذ لم يتم إسدال ستار حديدى منيع إلا بعد عام ١٩٢٨، وهو تاريخ إدانة سلطان غاليف للمرة الثانية. وخلال الأعوام العشرة الأولى من النظام السوفياتى تسربت النظريات الجريئة للشيوعيين الوطنيين المسلمين إلى عالم المستعمرات من خلال عدة قنوات. وهناك لقيت تلك النظريات صدى أفضل بكثير من فرضيات الماركسية التقليدية التى بدت فى نظر عالم المستعمرات بتأكيدها على الصراع الطبقى، و «الدولانية البروليتارية»، فضلاً عن التدمير العنيف للأسرة والمجتمع التقليدى، والهجوم السافر على الدين الوطنى، وحلم التصنيع الذى يستحيل تحقيقه، كما لو كانت تحمل نفس الوجه تماماً مثل أوروبا. وكان هناك العديد من الشيوعيين الآسيويين، ،ومعظمهم مسلمون، فى موسكو فى ذلك الوقت، يعقدون مقارنة بين الفرضيات «الغاليفية»، كما بدىء فى تسميتها، والفرضيات التى تتبناها الأممية الشيوعية بصفة رسمية. وكان الأوربيون المسيطرون تماماً على الأممية الثالثة هم وحدهم من يملكون حق تقرير استراتيجيتها الاستعمارية، حيث رفضوا أن يتولى إدارة الحركة الشيوعية فى البلدان المستعمَرة حزب قومى بورجوازى واشتراكى غير بروليتارى فى آنٍ واحد. إذ اقترح زعماء الأممية الشيوعية على أعضائه الجدد القادمين من بلدان آسيا، بديلاً عن ذلك، تكوين أحزاب شيوعية «بروليتارية» بمساعدة روسيا السوفياتية تمثل الطبقة العمالية التى لا وجود لها. وبعبارة أخرى،

كان على الشيوعيين فى آسيا أن ينتهجوا دون تبصر نهج الثورة التى حققت انتصاراً فى روسيا وإن كانت قد أخفقت فى ألمانيا والمجر. إلا أن هذا البرنامج كان يفتقر إلى أية جاذبية، فضلاً عن تعذر تطبيقه، وما ترتب عليه من إخضاع الثوريين الشرقيين لتبعية موسكو لفترة غير محددة.

وكان سلطان غالييف ورفاقه يدركون أن النموذج الذى وضعوه للثورة الآسيوية يمكن أن يلقى قبولاً أكبر. كما كانوا متفائلين للغاية عام ١٩٢٠، رغم كل ما كابدوه من صد وما واجهوه من فشل، بأن أفكارهم سيقدر لها النصر فى النهاية. ففى أحد الخطابات المؤرخة ٢١ فبراير ١٩٢٠ (وهو الخطاب الذى صادرته اللجنة الاستثنائية (التشيكا))، كتب سلطان غالييف إلى رفيقه إليمدار بايبيت، أحد قدامى الاشتراكيين الثوريين الذين انضموا إلى الشيوعيين، ما نصه: «إن المركز (موسكو) يسعى ولا ريب إلى إحداث انشقاق داخل حركتنا (الشيوعية التترية). غير أنه علينا ألا نترك أنفسنا نهباً لليأس. لقد اخترنا الطريق الصحيح. وإننى لعلى يقين من أن النصر سوف يكون حليفنا.» (مقتبس عن ج. قاسموف، Pantiurkistkaïa kon trevevolutsiia i ee Agentoura Sultangalievsh China, قازان، ١٩٣٣، ص٩٥)

ومن جهة أخرى، فإن مركز سلطان غالييف كان قوياً على ما يبدو بحكم كونه من قادة مفوضية الشعب لشؤون القوميات، وأحد المعاونين المقربين لجوزيف ستالين، حيث كان على صلة يومية به. كما كان كذلك، إلى جانب تحرير صحيفة Fizn 'Natsional' nostey وغيرها من المطبوعات الصادرة عن مفوضية الشعب لشؤون القوميات، ممثل كريميه فى مجلس القوميات التابع لمجلس السوفيات الأعلى، وعضواً باللجنة المركزية التنفيذية لمجلس السوفيات الأعلى فى الجمهوريات التترية، منذ سبتمبر ١٩٢١، ثم رئيساً للمجمع التترى قِبَل مجلس مفوضى الشعب فى موسكو منذ يونية ١٩٢٢، وبالتالى الممثل الرسمى لتترستان قِبَل الحكومة السوفياتية. وهكذا فإنه كان يشغل، حتى إلقاء القبض عليه للمرة الأولى، مركزاً متميزاً فيما يمكن أن نسميه اليوم بالصفوة البيروقراطية السوفياتية حيث كان يتمتع بسلطة حقيقية.

وأخيرا، فإن سلطان غالييف كان أستاذاً يشار له بالبنان فى الجامعة الشيوعية لعمال الشرق، التى أنشئت عام ١٩٢١ فى موسكو. وكانت تلك المؤسسة البارزة ملتقى لقادة الأممية الثالثة، حيث كان المُنَظِّرون التقليديون أمثال بوخاران، وزينوفييف، وبافلوفيتش، يجلسون جنباً إلى جنب مع المنشقين الشرقيين ذوى النفوذ مثل تورار ريسكولوف، وناريمان ناريمانوف، وأحمد

باى طورسون، والهندى مويندرا-ناث روى، والهولندى سنيفليت، والإيرانى سلطان- زاد، وجميعهم تأثروا بشدة بأفكار سلطان غالييف. وقد برز من طلبة الجامعة ثوار شبان من جميع أنحاء آسيا، أصبح بعضهم زعماءً فى بلادهم فيما بعد، مثل الإندونيسى تان ملكة، واليابانى من كاتاياما، والصينى ليوشاو - تشى، والفيتنامى هوتشى - منه.

وعلى ذلك فقد نقل سلطان غالييف جهوده إلى الجمهورية التترية، إلا أن أهدافه كانت تفوق بكثير حدود تلك الدولة الصغيرة، حيث كان التتر لا يمثلون بالكاد سوى نصف عدد السكان. ومن ثم فقد اقترب، فى مرحلة أولى، من مواقع القوميين البورجوازيين التتر، أعداء الأمس، وكرس كل نشاطه للتصدى فى كل مكان لما أسماه «النزعة الوطنية الروسية الكبرى»، محاولاً استغلال مركزه فى مفوضية الشعب لشؤون القوميات لإنشاء نواة لتنظيمات الحزب ومجالس السوفيات فى تترستان كما فى غيرها من الجمهوريات الإسلامية، بالاستعانة برفاقه وأصدقائه المختارين بصفة عامة من بين معاونيه القدامى فى المجمع المركزى العسكرى الإسلامى. ويمكننا التسليم بأن سلطان غالييف كان يعد، منذ ذلك الوقت، لما أصبح يعرف فيما بعد باسم «الحزب الاشتراكى الشرقى»، حيث تألف مجلس قيادته من الشيوعيين التتر. كان رفاق سلطان غالييف يمثلون حتى عام ١٩٢٣ أغلبية قادة الحزب الشيوعى التترى. ونذكر من بين هؤلاء، برهان منصوروف، رئيس اللجنة المركزية التنفيذية فى تترستان، وآياز موهتاروف، مفوض الصحة العامة، ووالى إسحاقوف، مفوض الزراعة، ورؤوف صابروف وحسنوف، أعضاء مجلس رئاسة اللجنة المركزية التنفيذية، ومكداد بوروندوكوف، مفوض التعليم الوطنى، وجيلفيه بورناشيف، وقاسم منصوروف، وإسحق كازاكوف، و أ. مقصودوف، وش. جسمانوف... وغيرهم. وكان «الغالييفيون» فى تترستان شيوعيين حقيقيين وورثة للحركة الإصلاحية الراديكالية فى آن واحد، أى أنهم كانوا «يمينيين» على الصعيد الداخلى، وإن كانوا «يساريين» فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. فقد اجتمعت فيهم على نحو متسق تماماً شيوعية محدثة مع وطنية قوية إلى الحد الذى جعلهم يخشون احتمال عودة القوات الروسية المناهضة للثورة. وفى ذلك يقول بوروندوكوف: «علينا أن ننشىء جمهوريتنا المستقلة وأن نحافظ عليها بأى ثمن، إذ قد تتعرض السلطة السوفياتية للهجوم من جانب كولتشاك جديد؛ وربما ظهرت ثورة مضادة جديدة يكتب لها الانتصار. ولن يقدر للأمة التترية الخلاص من القهر إلا إذا أصبحت لنا دولتنا الوطنية. حينذاك.» وعلى ذلك، فإن تترستان الصغرى ينبغى أن تكون، من

وجهة نظرهم، لا مجرد مركز ثورى فحسب، وإنما معقلاً للقومية التترية كذلك. إذ كان هدفهم الرئيسى هو «إضفاء الطابع التترى» على الجهاز الإدارى فى جمهوريتهم، وهو ما يقتضى اتحاد جميع طبقات الأمة، بما فى ذلك البورجوازية. وقد تبين فى هذا الصدد أن القادة الشيوعيين التتر أكثر «اتجاهاً إلى اليمين» من سلطان غالييف ذاته. إذ كانوا ينكرون بصورة قاطعة، ربما أكثر منه، وجود البروليتاريا المحلية، وحتى إذا سلموا بهذا الوجود، فإن ذلك كان لتأكيد تعارض المصالح ليس بين البروليتاريا والبورجوازية التترية، وإنما بين البروليتاريين التتر والروس. كما كانوا يرفضون قطعياً التسليم بالصراع الطبقى فى المناطق الريفية، بدعوى أن «الفلاح التترى من التخلف على نحو يحول دون وصوله إلى الاشتراكية». إلا أن «إضفاء الطابع التترى» على قازان لم يكن سوى خطوة أولى. فقد كان الهدف النهائى الذى سعى إليه سلطان غالييف بإصرار هو أن يجعل من قازان مركزاً ثقافياً وسياسياً ضخماً، يمكن أن يحل محل موسكو كعاصمة للشيوعية الشرقية ذات يوم. وفى هذا الصدد، فإن تصريحات القادة الشيوعيين التتر لا تدع مجالاً للشك:

«إن إنشاء الجمهورية التترية، على نحو ما صرح به فى الأول من يونية عام ١٩٢٠ «فيرديف»، أحد الرفاق المخلصين لسلطان غالييف، فى مؤتمر العمال التتر بمدينة قازان، يجىء فى نفس الوقت الذى لم تعد فيه القسطنطينية محط أنظار شعوب الشرقين الأدنى والأوسط.»

كما كتب إسحق كازاكوف فى مجلة Izvestija Ts.I.K. الصادرة فى قازان (٢٥ يونية ١٩٢٢) يقول:

«إن الجمهورية التترية سوف تكون قلعة العمال المسلمين من جميع أنحاء الشرق فى مواجهة المخططات الجشعة للامبرياليين الغربيين.» وليس ثمة شك فى أن الروس يندرجون بين هؤلاء من وجهة نظره. وقد تناول هذا الرأى بتحديد أكبر فى نفس المجلة بعد ذلك بيومين فى قوله: «إن خططنا الكبرى ترمى إلى توحيد عمال الشرق والغرب فى جبهة ثورية واحدة مركزها الجمهورية التترية.»

بل كان لبعض هذه التصريحات طابع «تركى جامع» على نحو لا يقبل المنازعة، مثل تلك المقالة التى ظهرت دون توقيع فى العدد الخامس العام ١٩٢٣ من صحيفة 'Fizn 'Natsional nostey، والتى ربما تكون صادرة عن سلطان غالييف أو بوحى منه، حيث نقرأ فيها ما نصه: «إن قازان، عاصمة الجمهورية التترية، هى فى الوقت ذاته مركز مشرق جمهورية روسيا

الاتحادية الاشتراكية السوفياتية بأكملها، من الفولجا إلى المحيط الهادى، فالشرق كله يقطنه الأتراك. »

كما أعرب سلطان غالييف بالفعل عن أمله فى أن تحل قازان محل موسكو كمركز ثورى للشرق قاطبة، وذلك فى خاتمة المقالة المنشورة فى صحيفة Fizn 'Natsional' nostey (العدد ٢٤(١٢٢) الصادر فى ٥ نوفمبر ١٩٢١) بعنوان «التتر وثورة أكتوبر»، بقوله:

«وفى النهاية، فإنه ينبغى علينا أن نشير إلى الأهمية التى تمثلها الجمهورية التترية لتطور الثورة الاشتراكية فى الشرق، نظراً لخطورة الدور الذى يلعبه العنصر التترى فى هذا الصدد. فكل القوى الثقافية التى تتشكل وتأخذ طريقها إلى حيز الوجود فى تترستان فى هذه اللحظة سوف تكون، مستقبلاً، هى رائدة التطور الثقافى لحدودنا الشرقية التى لا تزال متخلفة بعد. »

«بل إننا نشهد منذ الآن تترستان وقد أصبحت مقصداً من جميع بقاع روسيا، ومن الأورال، وسيبيريا، وآسيا الوسطى، وخيفا، وبخارى، بل وحتى من أقاصى أفغانستان، لاستجلاب عمال تتر إلى الحد الذى أدى إلى استنزاف تترستان. وعلى ذلك فإنه يجدر بنا، عند تقييم الذكرى الرابعة لثورة أكتوبر ومشاركة التتر فى هذه الثورة، أن نشير إلى أن الجموع العمالية والطبقات التترية الفقيرة التى لم يكن لها دور فى الثورة تعمل الآن على نشرها فى بلدان الشرق. »

وفى تلك الفترة ذاتها، كان أحد رفاق سلطان غالييف، ويدعى تورار ريسكولوف، وهو قومى كازاخستانى قديم انضم إلى الحزب الشيوعى فى سبتمبر ١٩١٧، يسعى إلى إنشاء تنظيم شيوعى إسلامى مستقل فى تركستان. ففى يناير ١٩٢٠، خلال المؤتمر الإقليمى الخامس للحزب الشيوعى فى تركستان المنعقد فى طشقند، نجح ريسكولوف فى الحصول على موافقة المندوبين الحاضرين على تعديل اسم «جمهورية تركستان المستقلة» إلى «الجمهورية التركية»، وتغيير اسم «الحزب الشيوعى لتركستان» إلى «الحزب الشيوعى التركى». وكان لتأكيد الهوية الوطنية بدلاً من الهوية الإقليمية نتيجة عملية: إذ اقتصرت عضوية الحزب الشيوعى الجديد على مواطنى الحكومات التركية فى آسيا الوسطى، باستثناء الروس وغيرهم من الأوروبيين. وقد اصطبغ اقتراح ريسكولوف بصبغة قومية وتركية جامعة لم تخف على القادة البلاشفة فى موسكو، حيث رأوا فيه محاولة انفصالية. وهكذا أدانوا مشروع ريسكولوف فى ٢٤ فبراير

١٩٢٠. وتأكد ذلك القرار رسمياً فى ٨ مارس ١٩٢٠ بقرار أصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (ب) الروسى أعلنت فيه أن: «الحزب الشيوعى فى تركستان ما هو إلا تنظيم إقليمى يتبع الحزب الشيوعى الروسى، وتعتبر تركستان جمهورية مستقلة عن جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية. وكان ذلك إيذاناً بانتصار النزعة الأحادية والامتناع من جديد عن الإشارة من قريب أو بعيد للشيوعية الإسلامية أو التركية.

اتجهت جهود رفاق سلطان غالييف فى الجمهوريات الإسلامية إلى عدة اتجاهات: تنظيم الشباب حول أيديولوجية قومية لا ماركسية - لينينية، وتطوير التعليم وتدريس اللغات والآداب الوطنية بروح تركية جامعة لا دولانية بروليتارية، وأخيراً الحفاظ بقدر الإمكان على القيم الاجتماعية والثقافية للإسلام. وكان لتلك الجهود جميعها هدف واحد، وهو حماية المجتمع الإسلامى فى روسيا السوفياتية من هيمنة الثقافة الروسية عليه. وجاء ذلك استمراراً للكفاح الذى بدأه المصلحون فى نهاية القرن السابق. إذ لم يتغير شىء سوى الشكل الخارجى لهذا الكفاح. إلا أنه من المؤكد أن الماركسية حلت محل المسيحية الأرثوذكسية، كما استُبدل المبشر بالمفوض السياسى، إلا أن خطر الترويس ظل قائماً كما كان قبل ثورة أكتوبر، إن لم يكن أكثر. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، أضيف إلى التطلعات التركية الجامعة من جانب الإنتلجنتسيا التترية فيما قبل الثورة، شعور لدى الشيوعيين المسلمين، بالريبة تجاه روسيا، والخشية من ظهور تأثير اقتصادى وثقافى يكون من شأنه إعادة الهيمنة القديمة لتلك القوة العظمى على نحو غير مباشر. ولم يكن هذا القلق من نصيب «الغالييفيين» وحدهم، فقد ظهر كذلك فى كتابات أحد الشيوعيين التقليديين، وهو غالمجان إبراجيموف، حيث نجده، فى أحد الكتيبات الصادرة فى قازان عام ١٩٢٧ وإن كانت قد تمت صياغتها منذ عام ١٩٢١ بعنوان - الثقافة التترية... إلى أين؟ - يعارض الترويس الثقافى ويؤيد الجامعة التركية بقوله:

«لا ينبغى لأية ثقافة أن تهيمن على ثقافة الشعب التترى، وإنما يجب أن تأخذ طريقها إلى التطور بحرية استناداً إلى اللغة الوطنية (....). إلا أنه طالما أن الشعوب الناطقة باللغة التركية تنتمى جميعها إلى أسرة واحدة، فإن ذلك يجعل لزاماً علينا أن نحتفظ بصلات وثيقة مع أشقائنا الذين يعيشون خارج تترستان (....) ومع كافة الشعوب التركية الأخرى كذلك.»

وبفضل نشاط «الغالييفيين» فى تترستان، لم يترتب على ثورة أكتوبر إثارة أية اضطرابات فى المجال الثقافى، وعلى مدى عدة أعوام، ظل الكتاب الإصلاحيون فى فترة ما

قبل الثورة يسيطرون على الأدب التترى، مما كفل استمرار الأيديولوجية التركية الجامعة للبورجوازية التقدمية القديمة، بفضل الحماية الفعالة لمفوضية الشعب لشؤون التعليم الوطنى بزعامة «الغاليبيفى» بورروندوكوف. وحتى عام ١٩٢٤، استمر الأدب التترى فى نشر المواضيع التقليدية المأثورة لدى الإصلاحيين، مثل إبراز النهضة البورجوازية فى صورة مثالية، والواحدة الروحية للشعوب الإسلامية والتركية، وتمجيد الماضى الوطنى، لا سيما «العصر الذهبى لخانة قازان» - معبراً عنه برمز الملكة سويوم - بيك، بطلة المقاومة أثناء الغزو الموسكوى، وهى الموضوعات التى أضيف إليها التصوف الإسلامى المستوحى من الصوفية. ومن جهة أخرى، فإن العديد من الكتاب المسلمين فى فترة ما قبل الثورة، من التتر والبشكير على حد سواء، رفضوا بصورة قاطعة الانضمام إلى النظام الجديد واستمروا على عدائهم السافر له. ومن بين هؤلاء الشاعر ساجى راميف، وهو اشتراكى قديم تحول إلى «رجعى» بعد انتصار البلاشفة، والروائى - الشاعر ذاكر راميف (واسمه المستعار «درمون»)، وهو أبيقورى(*) متشكك وصوفى، شديد العداء للبلشفية التى كان يشبهها بأنها «رجس من عمل الشيطان»، وهو كذلك فاتح أميرهان، وثورى إصلاحى قديم «استغرق فى التصوف الإسلامى» بعد عام ١٩١٧. ورغم أن البعض قد استقبل انتصار الشيوعية بترحاب بالغ، إلا أنهم سرعان ما انفصلوا عنها، مثل الشاعر شيخ الزاد بابيش، وهو اشتراكى ثورى يسارى، انضم إلى البلشفية فى أكتوبر عام ١٩١٧، غير أنه انفصل عنها فى عام ١٩١٩ وقضى نحبه وهو «مناهض للثورة». واستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن ينضم كتّاب آخرون من أصل بورجوازى إلى السلطة السوفياتية عن قناعة بدرجة أو بأخرى. فقد ظل الشاعر الرمزى هادى تاكتاش قومياً حتى عام ١٩٢٤، قبل أن يتحول، تحت تأثير ماياكوفسكى، إلى مناضل بروليتارى وعدو لدود للبورجوازية. أما مادجيت جافورى، وهو إصلاحى قديم آخر، ومؤسس الأدب البشكيرى، فقد ظل على مدى أعوام «أيديولوجى البورجوازية»، حيث لم ينضم إلى الحزب إلا عام ١٩٣٠.

وأخيراً، فقد انضمت مجموعة هامة، من بينهم بعض كتّاب اللغة التترية المعروفين، إلى الحزب، منذ بدايات الثورة، إلا أن ذلك كان بغرض نشر الأفكار القريبة من «الغاليبيفية» داخل الحزب. ونذكر من هؤلاء، ضمن آخرين عديدين، كافى نجمى، أحد الكتاب القلائل من أصل بروليتارى ممن اشتركوا تطوعاً فى الجيش الأحمر عام ١٩١٩، وإن كانت أعماله قد عكست

(*) أبيقورية (مذهب الانغماس فى الملذات) (المترجمة)

حتى عام ١٩٢٤، بتأثير النزعة القومية، «الجماليات والتشاؤمية البورجوازية». ورغم انضمامه إلى الحزب، إلا أن «نجمى» كان أحد قادة الجماعة الأدبية المعروفة باسم، "Oktiabr," واتحاد الكتّاب البروليتاريين فى تترستان اللذين أدينا بعد عام ١٩٢٠ باعتبارهما «أوكاراً للغاليبفيين». كما نذكر كذلك من بين هؤلاء فاتح كريمى، أحد أنصار التقارب بين الشيوعية والإسلام، ويرى أنه «لا ينبغى للمسلمين أن يكونوا بلاشفة، ولا مناشفة، بل يجب أن تكون لهم دولتهم المستقلة»، ومن بينهم أيضاً جادل شاه (عادل شاه) كوتوى، أحد الغاليبفيين النشطين، حيث جرى رد اعتباره إليه بعد طول انتظار وقُبلت عضويته من جديد فى الحزب عام ١٩٤٣، وكذلك اثنان من الشعراء على وجه الخصوص، هما فتحى بورناش، أحد أرباب القلم البارزين باللغة التترية، وعضو بالحزب الشيوعى، إلى جانب كونه أحد رفاق سلطان غاليبف وقد تولى، فيما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٤، نشر أفكاره بحماس شديد بين الشباب التتر، وأحمد جوميروف، الذى نجح فى التوفيق بين الشيوعية والجامعة الإسلامية، وكانت قصائده تحظى بشعبية كبيرة لدى تنظيمات الشبيبة الشيوعية.

ومن جهة أخرى، فقد شهدت الأعوام الأولى للنظام السوفياتى انطلاقة اللغة التترية، حيث أصبحت هى اللغة الرسمية المعمول بها بموجب مرسوم أصدرته اللجنة المركزية التنفيذية فى تترستان بتاريخ ٢٥ يونية ١٩٢١. وقد أولى أنصار سلطان غاليبف أهمية قصوى للمشكلة اللغوية، على اعتبار أن تطوير اللغة المحلية هو العامل الرئيسى فى تعزيز الكوادر الوطنية، أو «إضفاء الطابع التترى» على البلاد بعبارة أخرى. فقد صرح برهان منصوروف بقوله:

«إن استخدام اللغة التترية باعتبارها اللغة الرسمية للدولة، هو الضمان الوحيد الذى لا بديل عنه للالتحام السريع من جانب قوى الشعب الوطنية ببنيان مجالس السوفيات والحزب والنقابات، أى بالهياكل العليا للاقتصاد، ومن ثم بالشيوعية.».

وعلى ذلك، فقد جرى استنساخ اللغة التترية بالحروف العربية، بعد إجراء التعديلات الضرورية طبقاً لمشروع أعد فى مؤتمر الكتّاب والصحفيين التتر فى قازان، وتصدى التتر بشدة للدفاع عن حروف الهجاء القديمة فى مواجهة مشاريع التحول إلى اللغة اللاتينية. وكانت تترستان هى آخر المعاقل المناهضة للاتينية، كما لم تتوقف مقاومة «دعاة التعريب» الذين ألصقت بهم تهمة «الوطنية البورجوازية» و «مشايعة سلطان غاليبف» إلا بعد عام ١٩٣٠. وفى عام ١٩٢٤، رفض مؤتمر العاملين فى حقل تعليم اللغة التترية فى موسكو اتباع نهج

أذربيجان من حيث اعتمادها حروف الهجاء اللاتينية. وبعد عام ١٩٢٤، شارك العديد من «الغاليفيين» فى المجادلات القلمية التى شهدتها الصحف فى تترستان ضد حروف الهجاء اللاتينية. وفى مؤتمر الدول الناطقة باللغة التركية الذى انعقد فى باكو فى شهرى فبراير ومارس من عام ١٩٢٦، كان الوفد التترى، برئاسة غالمجان شرف، هو الوحيد الذى دافع عن الخط العربى، مستعيناً فى ذلك بحجج ذات طابع «تركى جامع». وفى عام ١٩٣٠، فى الوقت الذى اعتمدت فيه جميع الشعوب التركية الأخرى فى روسيا حروف الهجاء اللاتينية بالفعل، قام أثنان وثمانون من الكتّاب والمعلمين التتر بتقديم التماس إلى موسكو يطلبون فيه الاعتراف بحروف الهجاء العربية باعتبارها حروف الهجاء الرسمية فى تترستان. إلا أن طلبهم قوبل بالرفض، بطبيعة الحال، من جانب السلطات السوفياتية التى بادرت، منذ ذلك الوقت، إلى إعلان أن حروف الهجاء العربية هى حروف «كهنوتية» و «رجعية».

ويمكن تقدير القوة المذهبية والتنظيمية «للحركة الغاليفية» بحجم النفوذ الذى مارسته على مدى عدة أعوام على تنظيم الشبيبة الشيوعية فى تترستان، حيث كان يخضع تماماً لسلطة «اليمينيين» منذ انعقاد مؤتمره الإقليمى الأول، فى ١٦ أغسطس ١٩٢٠، الذى جرى خلاله انتخاب مكتب إقليمى لتنظيم الشبيبة الشيوعية فى تترستان يتألف من أربعة أعضاء هم غالم كيلديشيف، ونوريس مختاروف، وفتحى بورناش، وشامل جوسمانوف، وكلهم مناضلون قدامى فى الجناح الراديكالى للحركة الوطنية التترية، انضموا إلى النظام الجديد منذ ١٩١٩-١٩٢٠، وتحولوا إلى رفاق وأصدقاء لسلطان غاليف. وكان تأثير سلطان غاليف على الشبان المسلمين أوضح ما يكون فى مؤتمر تنظيمات الشبيبة الشيوعية الشرقية فى موسكو، كما بدا كذلك أوضح ما يكون فى المؤتمر الرابع لتنظيم الشبيبة الشيوعية التترى، عندما نجح رفاقه فى احتكار المناصب القيادية لا فى الجهاز الجمهورى وحسب، بل وكذلك فى جميع لجان المناطق والأقاليم، وفرض سيطرتهم المطلقة على صحافة تنظيم الشبيبة الشيوعية فى الجمهورية التترية Qzyl Shärq Yäshläre (شبيبة الشرق الأحمر) و Qzyl Yäshlär (الشبيبة الحمر)، بل وحتى على صحيفة تنظيم الشبيبة الشيوعية الصادرة باللغة التترية فى موسكو Yana Eshche, (العامل الشاب)، وكان رئيس مجلس إدارتها راشد فاليدوف، أحد المدافعين بشدة عن آراء سلطان غاليف.

وفى الوقت ذاته، سعى سلطان غاليف إلى بسط نفوذه على الشبان المسلمين خارج

تترستان، من خلال إنشاء عدة اتحادات طلابية وإدارتها، مثل اتحاد الطلبة التتر فى أوفا، واتحاد الشبان التتر فى سامفوروبول فى كريميه، الخ، حيث أصبحت هذه الاتحادات فى غضون بضعة أعوام مستقلة فى الواقع عن التنظيم المركزى للشبيبة الشيوعية. وكان الهدف من ذلك الإجراء المعقد هو جعل تنظيم الشبيبة الشيوعية التترى مستقلاً من الناحية الأيديولوجية عن الحزب الشيوعى الروسى، على نحو ما يتضح من إحدى المقالات التى كتبها برهان منصوروف ونُشرت فى صحيفة Qzyxl Shärq Yäshläre «إننا نعلق آمالاً كبيرة على شبابنا التترى. (....) وغايتنا هى أن نفتح الطريق أمامه نحو الحرية والاستقلال.» وكان واضحاً لجميع قرائه أن المقصود بذلك هو الاستقلال عن الروس.

كما سعى زعماء تنظيم الشبيبة الشيوعية التترى كذلك إلى إثارة الشعور الوطنى لدى الشبان المسلمين عن طريق ترسيخ التعلق بالماضى فى عقولهم، والذى يُعتبر الأساس الجوهرى للقومية، والعقبة الكأداء التى تحول دون الهيمنة على الشباب التترى من خلال روح «الدولانية البروليتارية». وقد تناول فتحى بورناش، كاتب الافتتاحيات فى صحف تنظيمات الشبيبة الشيوعية فى قازان، هذا الموضوع بقوله:

«ينبغى توعية الشباب التترى بماضينا. إذ يتعين على شبابنا التعرف على الأعلام البارزة فى تاريخنا والتعلق بالثقافة الوطنية للشعوب التركية. وعلينا أن نركز جهودنا بوجه خاص على الشبان الذين لم تتح لهم فرصة الالتحاق بمدارس تحفيظ القرآن والذين لا يفقهون شيئاً، من جراء ذلك، فى تاريخ الشعوب التركية التترية أو آدابها.»

وأخيراً فإنه من المعروف أن قادة تنظيم الشبيبة الشيوعية تصدوا للدفاع عن آراء سلطان غالييف حول ضرورة تجانس المجتمع الإسلامى. وهذا هو المعنى الذى تناوله أحمد جوميروف فى إحدى مقالاته المنشورة بصحيفة Qzyxl Shärq Yäshläre (بالعددين ١١-١٢)، والتى يؤكد فيها «إن عدم وجود طبقة البروليتاريا عند التتر لا يجعل هناك ضرورة لتقسيم تنظيم الشبيبة الشيوعية إلى أجنحة لليمين أو اليسار». وقد حاول خصوم «الحركة الغالييفية» مراراً وتكراراً انتزاع قيادة تنظيم الشبيبة الشيوعية التترى من «اليمينيين»: إذ سعى «اليساريون» خلال المؤتمر الجمهورى الخامس لتنظيم الشبيبة الشيوعية، بتأييد من رفاقهم الروس، إقصاء «اليمينيين» بإلصاق تهمة «القومية البورجوازية» بهم، ولكن دون جدوى. ورداً على ذلك الهجوم من جانبهم، يعلق س. رمزى على القرارات الصادرة عن المؤتمر بقوله: «إن أولئك الذين

يزعمون أن القومية تبث سمومها داخل جمهوريتنا، وفى نفوس الشباب على وجه الخصوص، والذين يؤكدون أن تنظيم الشبيبة الشيوعية فى تترستان قد انفصل عن الجماهير، إنما يسلمون أنفسهم لمكيدة سياسية دنيئة. فقد برهن المؤتمر من جديد على أن الهجمات الغوغائية الحقيرة الموجهة ضد الجمهورية التترية لا أساس لها من الصحة.»

وحتى بعد إقصاء سلطان غالييف من الحزب الشيوعى عام ١٩٢٣، ظل رفاقه يسيطرون على تنظيم الشبيبة الشيوعية التترى، بل ويذكر س.فهرى أنه حتى أثناء وجود سلطان غالييف فى السجن بتهمة قيامه بأنشطة مناهضة للثورة، قام مكتب اللجنة المركزية لتنظيم الشبيبة الشيوعية التترى بالتصويت على اقتراح تقدم به فتخى بورناش يقضى بمنح كل من لينين وسلطان غالييف لقب «عضو شرفى فى تنظيم الشبيبة الشيوعية». كما كان سلطان غالييف يتطلع أكثر من ذلك إلى منحه لقب «الثورى الأعظم فى الشرق.»

ورغم أن سلطان غالييف ورفاقه قد سلموا بالماركسية كأساس للعمل السياسى، إلا أنهم اختلفوا كذلك مع رفاقهم الروس عندما رفض هؤلاء الاتجاه إلى معاداة التقاليد. فقد كانوا لا يريدون الانفصام عن ماضيهم الوطنى، ولا عن ثقافتهم الوطنية، بل ولا حتى عن ديانة أجدادهم. ومن ثم فقد سعوا، منذ وصولهم للسلطة، إلى حماية رجال الدين الإصلاحيين الذين استقبل بعضهم إعلان الجمهورية التترية بحماس، على أمل أن يلعبوا دور الوسطاء بين السلطة السوفياتية وجموع الفلاحين المسلمين. ولم يتردد القادة الغالييفيون، إبان المجاعة التى وقعت عام ١٩٢١، فى طلب العون من ذوى النوايا الطيبة جميعهم، بما فيهم الملات، كما تم فى نفس الوقت، وبمبادرة شخصية من سلطان غالييف، إنشاء «لجنة مركزية لرجال الدين الإسلامى لمساعدة ضحايا المجاعة» فى موسكو، يرأسها ملا ترجيمانوف. كما جرى كذلك، خلال الفترة القصيرة التى احتفظ فيها أنصاره بالسلطة فى تترستان، تأسيس لجنة خاصة للشريعة قبل مفوضية الشعب للشؤون القضائية فى تترستان. وأخيراً، فإنه طوال المدة التى بقى خلالها سلطان غالييف فى مفوضية الشعب لشؤون القوميات، انتهجت السلطات المركزية والجمهورية موقف الحذر تجاه الدين الإسلامى، مما أسهم فى تهدئة مشاعر التذمر من جانب الشعوب الإسلامية، فضلاً عن توطيد دعائم النظام السوفياتى فى تلك الفترة الحرجة بالنسبة له. كما جرى كذلك تخفيف الدعاية المناهضة للإسلام، فى قازان كما فى موسكو، ومن ثم فقد أثير موضوع ذلك التسامح خلال الدعاوى القضائية ضد الغالييفيين عام ١٩٢٩ باعتباره أحد

الادعاءات الرئيسية فى صحيفة اتهامهم. بل إن ذلك قد حدث فى الوقت الذى انطلقت فيه الدعاية ضد الكنيسة الأرثوذكسية، وبدأت مطاردة رجال الدين المسيحى باعتبارهم «مناهضين للثورة».

وقد بحث سلطان غالييف مشكلة العلاقة بين الإسلام والماركسية فى مقال مستفيض يعد من أعظم ما خلّفه لنا، بعنوان (أساليب الدعاية المعادية للدين بين المسلمين)، وقد ظهر فى صحيفة Fizn 'Natsional' nostey يومى ١٤و٢٣ ديسمبر ١٩٢١، ونشرته مفوضية الشعب لشؤون القوميات فى موسكو فى صورة كتيب عام ١٩٢٢. وكان هذا المقال، الذى لم يكن أى من الملات الإصلاحيين لينكره، والموجه بصفة خاصة إلى رفاقه الروس، تحذيراً صريحاً ضد تجاوزات الدعاية المعادية للدين. وقد حدد سلطان غالييف موقفه كماركسى وملحد فى مقدمة موجزة بقوله:

«ليس ثمة شك، بطبيعة الحال، فى الضرورة التى تمثلها الدعاية المضادة للدين بالنسبة لنا نحن الشيوعيين، لا بين المسلمين فى روسيا فحسب، وإنما خارج حدودها كذلك. إن جميع الأديان تتساوى فى ذلك من وجهة نظرنا. وعلى هذا الأساس، فإن المشكلة واضحة ولا تتطلب أى تحليل. (....)

ومن ثم، فإن عليك أن تعرف عدوك حتى يمكنك الانتصار عليه. فمحاربة أية قوة مهما كان شأنها دون معرفة بها، إنما يعنى مسبقاً إن لم يكن الهزيمة، فالفشل على أقل تقدير.»

ثم ينتقل سلطان غالييف بعد ذلك إلى وصف العدو، وهو ما يعتبر فى الواقع مدحاً يكاد يكون سافراً للإسلام، ولقيمه الثقافية والاجتماعية، إلى جانب دوره فى التاريخ العالمى.

«إن العامل الحاسم فى تحديد وضع الإسلام إنما يكمن فى شبابه. إذ يُعتبر الإسلام، من بين جميع «الديانات العظمى» فى العالم، أكثرها فتوة، ومن ثم أشدها صلابة وقوة من خلال ما يمارسه من نفوذ. وقد أقر جميع علماء الإسلام الأوروبيين الجادين بهذه الحقيقة. فالإسلام هو الذى حافظ أكثر من غيره على العوامل الاجتماعية والسياسية، فى حين أبرزت الديانات الأخرى قيمتالعناصر الأخلاقية والدينية على وجه الخصوص. أما الشريعة الإسلامية فهى مدونة للقوانين والضوابط القانونية التى تحكم كافة أوجه الحياة الدنيوية للمؤمن. فهى تتضمن إرشادات حول كيفية أداء الصلاة، والسلوك فى العمل، وفى المجتمع، والأسرة، وخلال الحياة اليومية، شاملة أدق التفاصيل.

وتكفى الإشارة فى هذا الصدد إلى صيغة الأمر فى التوجيه الذى يقدمه حديث الرسول الكريم «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»، وكذلك الأمر بالاشتغال بالتجارة والكسب، وإلزام الوالدين بتعليم الأبناء حتى سن الإدراك، وتقنين الزواج المدنى، وحظر الملكية الخاصة للأراضى والمياه والغابات، وإدانة الخرافات، وتحريم الشعوذة، والميسر، والبذخ، والتبذير، والتحلى بالذهب ولبس الحرير، واحتساء الخمر، والربا، وأكل لحم البشر. (وكانت لهذه النقطة الأخيرة أهميتها فى أفريقيا)، ووضع نظام تفصيلى وتقدمى للضرائب العينية والنقدية (الزكاة، والعشر، إلخ.).

بل إن قانون الأحوال الشخصية والتركات فى الإسلام ذاته يتضمن مبادىء إيجابية، فقد ساعد، أثناء إعداده بل وحتى بعد ذلك، على تنظيم الأوضاع الفوضوية للعرب الوثنيين. وهكذا فإن علماء الإسلام يرون، على سبيل المثال، أن حديث الرسول الكريم حول تعدد الزوجات إنما يعبر عن الرغبة فى الحد من ذلك.

ولأن الإسلام كدين ينطوى على دوافع اجتماعية وسياسية، فهو يتغلغل بعمق يفوق ما عداه من ديانات فى نفوس المؤمنين به. ومن ثم فإنه من الصعوبة بمكان، بل من الخطورة، أن يتم التصدى له. ولعل خير دليل على ذلك هو المركز الشخصى لرجال الدين الإسلامى، والذى كان يفوق فى قوته أوضاع ممثلى الديانات الأخرى.

ولنأخذ، على سبيل المثال، وضع رجال الدين الإسلامى لدينا هنا فى روسيا. فبينما نجد عند الروس كنيسة واحدة تخدم عدداً يتراوح بين ١٠٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ من السكان، كان للمسلمين مسجد لكل ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ نسمة، حيث يخدمه ثلاثة على الأقل من رجال الدين، الملا ومعاونه والمؤذن.

كما تتضح قوة رجال الدين الإسلامى كذلك من وضعهم الاجتماعى والسياسى بالنسبة إلى السكان المسلمين. إذ كان الملا يضطلع فى آنٍ واحد بدور رجل الدين (المنوط بأداء الشعائر الدينية)، والمعلم (حيث كان لكل ملا مدرسة دينية، أو كُتّاب، ملحق بالمسجد)، والحارس القضائى (القائم بتنظيم التركات، وتسجيل أحكام الأحوال المدنية، إلخ.)، والقاضى (العالم بأمور الزواج والطلاق والميراث)، بل والطبيب فى بعض الأحيان.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان رجال الدين الإسلامى يتم تنصيبهم بالاختيار، وهو ما جعلهم فى وضع أفضل وبالتالى أكثر قوة من الكهنة الروس على سبيل المثال. فقد كانت للقس

الروسى، المعين من قبل السلطات العليا، سلطة أقل، ولا ريب، على رعيته مما لدى الملا التترى أو العالم الأزبكى فى محله. إلا أن هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم رغم ذلك «خداماً للشعب» ويعيرون اهتماماً أكبر لرغباته. كما كانوا أكثر ديمقراطية وأشد قرباً من الشعب، فضلاً عن تمتعهم بهيبة أكبر ونفوذ أقوى مما كان يمارسه البابا على الفلاح الروسى.»

أما السمة الثانية التى يتفوق بها الإسلام على المسيحية فهى، من وجهة نظر سلطان غالييف، الطابع المميز له باعتبار أنه «دين مضطهد»:

«إن العالم الإسلامى فى مجمله قد تعرض للاستغلال طوال القرن الأخير على يد الامبريالية فى أوروبا الغربية. وقد ترك ذلك أثره العميق على ديانة المسلمين. إذ ينظر المسلمون إلى ذلك العداء مع الغرب بوصفه صراعاً سياسياً، أو حرباً موجهة ضد الإسلام فى مجموعه. ومن جهة أخرى فإن العكس مستحيل، حيث يرى المسلمون أن العالم الإسلامى كل لا يتجزأ، دون تمييز بين القوميات أو القبائل.

ولذلك كان الإسلام كدين، ولازال، من وجهة نظر المسلمين على الأقل، من الديانات المضطهدة، المرغمة على الوقوف موقف الدفاع. وبعبارة أخرى، فإن التطور التاريخى للإسلام يشجع مختلف الجماعات من المؤمنين به على التحلى بروح التضامن، فضلاً عن تعزيز قوة الدعوة إليه. ومن شأن هذه الظروف أن تجعل من الصعب شن حملة مناهضة للإسلام.»

ويخلص سلطان غالييف من ذلك إلى نتيجة عملية مؤداها: «إن شن دعاية خرقاء معادية للإسلام من شأنه أن يهدد باستثارة الماضى القريب فى نفوس المسلمين، حيث كان المبشرون يناضلون ضد الإسلام، ولن يترتب على ذلك سوى نتائج سلبية إلى حد كبير. (....) ومن ثم فإن الوضع الخاص للإسلام، الذى يتضح من خلال ما يتمتع به من حيوية كبيرة تُعزى إلى تأخر ظهوره من جهة، وإلى الوضع النفسى للسكان المسلمين المضطهدين أو الذين تحرروا بالكاد من الجور والظلم (المسلمين فى روسيا) من جهة أخرى، يقتضى انتهاج طرق وأساليب جديدة للدعاية ضد الدين.»

وهو يرى أن هناك ثلاثة أساليب رئيسية لذلك:

١. ضرورة استبعاد البيروقراطية والعدوانية بأى شكل من الأشكال. إذ لا ينبغى أن تكون المشكلة هى محاربة الدين، وإنما الدعاية ضد هذا الدين. ومن ثم فإنه علينا أن نجرد خصومنا نهائياً من الأسلحة التى يمكنهم محاربتنا بها. كما يجب أن نعلن بوضوح أننا

لا نحارب أى دين كدين فى حد ذاته، بل أن غاية ما نسعى إليه هو نشر معتقداتنا الإلحادية، وهذا هو حقنا الطبيعى. وليس ثمة نهج آخر لمعالجة هذه المشكلة على نحو يكفل عدم الخلط بيننا وبين المبشرين الروس الرجعيين. كما يتعين علينا أن نوضح للمسلمين أن نشر الدعاية المضادة للدين ليس استمراراً لنشاط أتباع بويدونوستيف والمنسكى، وإنما أنصارهم من المثقفين الذين لازالوا يقومون بهذا العمل حتى عهد قريب.

٢. وعلينا بعد ذلك أن نبعد عن صفوفنا نهائياً المبشرين القدامى، إذا كان هؤلاء قد استطاعوا التغلغل فيها، وأن نعهد إلى الشيوعيين المسلمين بمهمة تنظيم الدعاية المضادة للدين. ولا يُسمح «للمفسدين»، لاسيما المشعوذين، بالاشتراك فى هذا العمل. إذ أنه من شأن ذلك أن يقلل من اعتبارنا فى نظر السكان المسلمين.

٣. ثالثاً، أن الدعاية المضادة للدين تقتضى قدراً كبيراً من الحنكة وينبغى إدارتها بأسلوب عملى. إذ لا يكفى نشر كتيبات أو مقالات صغيرة تحمل عناوين مصطنعة (لن يقرأها أحد) أو عقد مؤتمرات فى هذا الشأن. وإنما ينبغى بث الإثارة فى الحياة اليومية من خلال القدوة والعمل؛ أو بعبارة أخرى استبدال الإثارة الكلامية بالتحريض الفعلى. كما يجب ألا يدرك الشخص الذى يراد التأثير عليه أنه ثمة استعدادات تُتخذ لإخضاعه للدعاية المناهضة للدين. وبغير ذلك، فإن شعوره بالفزع والنفور مسبقاً من شأنه أن يؤدى إلى تحوله عنا.»

وأخيراً، فقد أكد سلطان غالييف على ضرورة تنويع الدعاية المضادة للدين تبعاً لدرجات التطور الاجتماعى والثقافى للأقاليم الإسلامية المختلفة. واختتم مقاله بملاحظة استشرافية:

«ومجمل القول إنه ينبغى علينا أن نؤكد مجدداً أن الإسلام بجوهره وتاريخه يختلف عن غيره من الأديان، ومن هنا يجب استنباط أساليب دعائية أخرى لمحاربته. إلا أنه يتعين كذلك إقرار أساليب خاصة لكل قومية إسلامية على حدة طبقاً لخصائصها الجغرافية والتاريخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية المحددة؛ فما يصلح للتتر لا يصلح للكيرجيزيين، وما يلائم المسلمين فى روسيا لا ينطبق على أفغانستان أو بخارى، والعكس صحيح. بل يجب استحداث تكتيك ملائم لكل منهم، يتوافق مع حالتهم النفسية ومع عقلياتهم. كما ينبغى أن تكون إحدى المهام العاجلة للعمل الذى نقوم به فى مجال التحريض الدعائى فى الشرق، هى الدراسة

المتعمقة والتفصيلية لهذه المشكلة ميدانياً، إلى جانب تناولها بالتحليل الجاد فى صحافة الحزب. وبدون هذا الجهد، فإنه لن يمكننا الوقوف على أرض صلبة وثابتة، أو حل المشاكل التى تعترض سبيلنا، بل لن يمكننا مطلقاً الخروج من حالة التخبط العقلى التى نعيشها حالياً.»

إلا أن المؤكد أنه لم يتم أخذ أى من التوصيات التى قدمها سلطان غالييف بعين الاعتبار. فعندما انطلقت الحملة الكبرى المناهضة للإسلام عام ١٩٢٨، كانت واحدة فى جميع الأقاليم الإسلامية، كما اقتصرت إدارتها على الروس وغيرهم من «الأوروبيين».

وربما كانت تلك المقالة التى كتبها سلطان غالييف حول الدعاية المضادة للدين هى أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى إقالته بعد ذلك بعامين. والواقع أن ستالين قد استشف منها عزم سلطان غالييف على إرساء أسس «شيوعية إسلامية» تختلف عن الماركسية - اللينينية، ومن ثم فهى غير مقبولة بالقطع.

أما الدافع الثانى للانشقاق بين ستالين وربيبه السابق فهو انطلاقة القومية، واتجاه كراهية الأجانب المناوىء للروس فى تترستان والذى يعزى إلى سلطان غالييف. ففى بلاد التتر، وهو إقليم متعدد القوميات ينوء بتركة ثقيلة من التحيز العنصرى والدينى، فضلاً عن تقوض أركانه نتيجة للحرب الأهلية، كانت المصادمات بين المجتمعين الإسلامى والروسى حتمية وشبه مستمرة. كما اتهم الروس القادة التتر بإيلاء أهمية مبالغ فيها «للعمل الوطنى»، وإلصاق تهمة «التزمت الوطنى الروسى» بكل شىء، وأخيراً إثارة المسلمين ضد موسكو. فقد صرح الشيوعى الروسى «فوكس» خلال المؤتمر الإقليمى الثانى للحزب الشيوعى (ب) الروسى فى تترستان بقوله: «لا يمكننا التسليم بأن تتحول الروح الثورية للجموع الكادحة المضطهدة فى الجمهوريات الشرقية التى حررتها ثورة أكتوبر العظمى إلى مجرد ثورة قومية. كما أنه من غير الممكن أن نقبل تحول حق الشعوب فى تقرير مصيرها، ذلك الحق الذى جرى الإعلان عنه للمرة الأولى فى تاريخ البشرية فى روسيا السوفياتية، إلى مجرد تزمت وطنى.» كما اتهم التتر، من جانبهم، موسكو بأنها «تمنح الاستقلال بيد ثم تسحبه باليد الأخرى»، ووجهوا انتقادات عنيفة إلى السلوك «البيروقراطى غير الفعال» للسلطات الروسية المحلية، كما يتضح من إحدى المقالات التى كتبها آياز مقصودوف ونُشرت فى عدد ٩ يناير ١٩٢٢ من صحيفة Tatarstan Khäbärläre الصادرة فى قازان تحت عنوان «المفسدون السياسيون» (Politikany)، وهو ما يبرهن، ضمن دلائل أخرى، على أن البيروقراطية السوفياتية قد بلغت، منذ عام ١٩٢٢، حداً من

عدم الفعالية لا يختلف كثيراً عن الوضع الراهن:

«إن القادة الروس لا يخدمون السكان المحليين؛ بل إنهم على العكس يتسببون فى إلحاق أضرار جسيمة بهم، عن طريق الحيلولة دون قيامنا باتخاذ إجراءات فعالة. كما أن الأمور العاجلة تظل معلقة نتيجة للبطء البيروقراطى. فهم يرجعون إلى موسكو فى أتفه الأمور، متخطين بذلك التنظيمات المحلية. وعلى ذلك فإنه حان الوقت لكى نقول لتلك الجماعة التى لا تهتم كثيراً بمصالح الجموع الوطنية: «احملوا عصاكم وارحلوا». »

ومن ذلك يتضح أن هناك جواً من الشك المتبادل قد خيم على العلاقات بين التتر والروس. وسرعان ما تحولت القومية التترية التى لاقت تشجيعاً فى البداية، ثم تقبلتها السلطات المركزية فيما بعد، إلى عقبة تعترض بنيان الاشتراكية. إذ تشير إحدى المقالات التى كتبها س.ديمانستان وظهرت، فى أبريل عام ١٩٢٢، فى صحيفة Fizn 'Natsional' nostey إلى أن قادة موسكو كانوا يدركون تلك الحقيقة تماماً:

«لقد أخذت القومية فى الشرق طريقها نحو الانطلاق التام. ولا يمكن التصدى لهذه الحركة الطبيعية على الوجه الأكمل، وإن كانت الضرورة تقتضى أن يتم توجيهها. فالخطر الرئيسى الذى يتهددنا فى الشرق إنما ينشأ عن تطور القومية هناك بأسرع مما يمكن لطبقة العمال إدراكه. وإذا ما أسأنا تقدير هذه المشكلة، فإن ثمة صراعاً يمكن أن ينشأ وينتهى بانتصار الاتجاهات الانفصالية البورجوازية. »

وكما تنبأ «ديمانستان»، فإن الشقاق كان أمراً حتمياً، لا سيما بعد ما حدث فى مارس ١٩٢٣ - أى قبل شهر بالكاد من إلقاء القبض على سلطان غالييف - حيث أدت الانطلاقة العنيفة للقومية إلى إثارة التنظيم التترى للحزب الشيوعى (ب) الروسى فى قازان. فقد قام منصوروف، مقرر لجنة المنطقة، وهو صديق شخصى لسلطان غالييف، بطرح بعض التوصيات للتصويت بشأن «أساليب عمل الحزب بين التتر»، وهى مستوحاة من نظريات سلطان غالييف. ومرة أخرى، عاد الشيوعيون التتر من جديد إلى إنكار وجود البروليتاريا الوطنية، ومعارضة الصراع الطبقى، مع الزعم بأن استحداث اللغة التترية فى إدارة مجالس السوفيات والحزب بدلاً من اللغة الروسية ينبغى أن يكون حجر الزاوية فى السياسة الوطنية اللينينية.

الفصل الخامس
الإلحادى

الفصل الخامس

الإلحادى

يحدد المؤرخون السوفيات، ومن بعدهم قلة نادرة من المؤرخين الغربيين المهتمين بمغامرة سلطان غالييف، نقطة التحول فى حياته السياسية بربيع عام ١٩٢١، بعد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى الروسى. إذ فتح ذلك المؤتمر الطريق أمام وحدة الحزب بتصديه للانقسامات والمعارضة داخل الحزب، كما شن الهجمات الرسمية الأولى ضد «الانحرافات القومية»، على نحو ما أعلنه القرار الختامى للمؤتمر:

«إن الشيوعيين الوطنيين، الذين لم يتحرروا بعد من أطياف الماضى، يبالغون فى تقدير أهمية الخصوصية الوطنية. (. . . .) فهم يهملون مصالح طبقة العمال ويخلطون بينها وبين ما يسمونه بالمصالح الوطنية. كما أنه لا يمكنهم تمييز إحداهما عن الأخرى، أو توجيه عمل الحزب نحو الجموع الكادحة وحدها. ولعل فى ذلك الوضع ما يفسر ظهور القومية الديمقراطية البورجوازية التى تأخذ فى الشرق أحياناً شكل الجامعة الإسلامية والجامعة التركية.»

ومنذ ذلك الحين، وإزاء اختلاف سلطان غالييف مع سياسة القوميات التى انتهجها ستالين، فإنه لم يكن أمامه سوى ملاذ واحد، وهو المعارضة، إلا أنه طالما أن تلك المعارضة لم تكن مشروعة، فقد لجأ إلى العمل السرى.

ومن الأرجح، غير أنه لا يمكن الجزم بذلك طالما أن سجلات الشرطة السرية السوفياتية غير متاحة للباحثين الأجانب – ولن يظل الحال على ذلك مستقبلاً ولا ريب، أن سلطان غالييف قد وضع فى غضون هذين العامين بالقطع مذهبه الخاص بالثورة فى أوساط المستعمرات، والشيوعية الوطنية الإسلامية. وفى المقابل، فإنه من المؤكد أن أفكاره التى صاغها فى خضم العمل لم تكن نتاج تأمل نظرى يستند إلى مناقشات أو قراءات الكُتّاب الماركسيين، وإنما كانت محصلة تجربته الشخصية كمنظِّم. ورغم قدرته الفائقة على وضع النظريات، إلا أن سلطان غالييف كان مناضلاً كذلك قبل أى شىء، واختلفت نظرياته عن تلك التى وضعها البلاشفة بما لها من طابع واقعى وعملى. فقد تعارضت الاستراتيجية التى اعتنقها مع الخط الرسمى للحزب فى عدة نقاط، من أهمها نبذ الصراع الطبقى داخل المجتمع الإسلامى. وكان

سلطان غالييف يعتقد، مثل غالبية الثوار الآسيويين من معاصريه أو من جا ءوا بعده، أن الثورة فى العالم الثالث ينبغى أن تكون فى آنٍ واحد ثورة اشتراكية موجهة ضد «المستغلين المحليين»، أى البورجوازية والإقطاعيين ذوى الأملاك، ورجال الدين الإسلامى «الرجعيين»، وثورة وطنية موجهة ضد الهيمنة الأجنبية. إلا أنه أدخل تصحيحاً إلحادياً هاماً على تلك الفرضيات التى يمكن القول باختصار إنها متشددة تماماً، بإعلانه أنه لما كان هيكل المجتمع الإسلامى لا يسمح بالمواجهة بين الثورتين، فإنه من غير المجدي، بل من الخطورة بمكان، تشجيع تفتح الوعى الوطنى وإثارة الوعى الطبقى فى ذات الوقت، وأنه طالما أن الأولوية المطلقة هى للتحرر الوطنى، ينبغى تأجيل موعد الثورة الاشتراكية. وكان يستند فى تبرير ذلك الرأى إلى هيكل المجتمع المحلى، مؤكداً أن طبقة الفلاحين الفقراء والبروليتاريا الإسلامية كانت لا تزال عاجزة عن تولى السلطة، وذلك نتيجة ضعفها عددياً وأيديولوجياً، رغم الطابع المتجانس أبداً والذى كان يميز ذلك المجتمع المحلى. فقد كان يرى أن أقل فلاح روسى أو ألمانى أكثر ثراءاً من أغنى أغنياء الكولاكيين التتر.

وعلى ذلك، فإنه كان من الأفضل «الحديث لا عن الاضطهاد الطبقى الذى يمارسه الكولاكيون المحليون على غيرهم من الفلاحين التتر، وإنما بالأحرى عن تأخر طبقة الفلاحين التتر فى مجموعها بوجه عام».

وقد عبر أحد معاونى سلطان غالييف المقربين ويدعى فاليدوف، مفوض الشعب لشؤون الزراعة فى الجمهورية التترية، عن نفس الفكرة بأسلوب أكثر عنفاً بقوله: «إن الأغبياء اليساريين يريدون استحداث الشيوعية فى بلدنا تترستان، ذلك البلد الزراعى والإقطاعى. ياله من تحريف للشيوعية!» كما كتب محرر افتتاحية صحيفة Qzyl Tatarstan الصادرة فى قازان، فى معرض جداله مع صلاح أتناجولوف، أحد «اليساريين»، وبوحى من فرضيات سلطان غالييف، يقول:

«إن الرفيق صلاح يهاجم كل من ينكر وجود البروليتاريا التترية البشكيرية. وهو يبذل ما فى وسعه، استناداً إلى اعتبارات مدروسة، لإقناعنا أن هذه البروليتاريا ذات تاريخ طويل وأن التناقضات الطبقية قد ظهرت فى مجتمعنا قبل ثورة ١٩٠٥ بوقت طويل. إلا أن هذا الرأى لا يستند إلى أى أساس، سوى بعض هذيانات باطلة ثم استنباطها فى أحد دواوين العمل ولا صلة بينها وبين الواقع. والحقيقة أنه من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن العامل التترى البشكيرى يملك

أى شعور طبقى. » كما أكد بعض «الغاليفيين»، تفنيداً لهذه الدعاوى، خلال المؤتمر التنظيمى التترى للحزب الشيوعى الروسى فى قازان عام ١٩٢٣، غياب الطبقة العمالية التترية.

«إن بعض الرفاق يجزمون بوجود البروليتاريا التترية. إلا أن ذلك غير صحيح لأنه لا أثر لها (....) فوجود العمال التتر يكاد يكون معدوماً، بخلاف المناورات غير المؤهلة التى قلما يمكن تمييزها عن الفلاحين. إن البعض يدعونا إلى الاعتماد على البروليتاريا المحلية. غير أنه لا يمكننا القيام بذلك إلا إذا كان لدينا حتى ولو ثلاثة آلاف عامل مؤهل، ولكننا لم نبلغ هذا الرقم بعد...»

وقد خلص «الغاليفيون» من هذه الاعتبارات النظرية إلى نتيجة مؤداها أنه لا يمكن للطبقة العمالية أو لطبقة الفلاحين المحلية أن تزعم بقدرتها على توفير كوادر قيادية للنظام الجديد. وعلى ذلك، فقد كان التتر مهددين بالخطر، فإما التخلى عن جميع مناصب القيادة السياسية للروس – وهم وحدهم من كانوا يملكون «بروليتاريا» حقيقية، أو إسناد تلك المناصب ذاتها إلى عمال محليين غير متطورين، ويفتقرون إلى الكفاءة، بما يجعلهم مجرد ألعوبة فى أيدى الروس. وفى كلتا الحالتين، فإن الثورة سوف تفقد مغزاها المتمثل فى التحرر الوطنى، وهو الهدف الرئيسى للشيوعيين المحليين، ولن يتبقى منها سوى هدف الثورة الاشتراكية، وقلما كان يحظى بأى اهتمام من جانبهم. كما أنه فى الحالتين كذلك، سوف يكون من شأن وجود كوادر سياسية روسية أن يؤدى إلى إعادة وصاية موسكو على التتر.

كان لدى سلطان غالييف شعور عميق بعدم الثقة لا تجاه الروس وحدهم، وإنما كذلك فى الغرب بوجه عام، بل وامتد هذا الشعور بعدم الثقة، والذى يمثل أحد العناصر الأساسية فى فكره السياسى، ليشمل البروليتاريا الأوروبية التى كان يراها قادرة تماماً على مواصلة السياسية «الاستعمارية» القديمة للبورجوازية لحسابها الخاص. فقد صرح فى عام ١٩١٨ بقوله:

«لنأخذ، على سبيل المثال، حالة البروليتاريا الانجليزية، (وإن كان تفكيرة يتجه بدرجة أكبر إلى البروليتاريا الروسية)، وهى أكثرها تطوراً. فإذا ما قُدّر لإحدى الثورات أن تحقق انتصاراً فى انجلترا، سوف تواصل هذه البروليتاريا استغلال المستعمرات وانتهاج سياسة الحكومة البورجوازية الحالية، من منطلق اهتمامها باستغلال المستعمرات. وعلى ذلك فإنه حتى يمكننا أن نتجنب تعريض عمال الشرق للقهر، علينا أن نوحد الجموع الإسلامية فى حركة شيوعية محلية مستقلة.»

وقد أعرب سلطان غالييف فى وقت لاحق، عام ١٩٢٣، عن اعتقاده بأن عدو الشعوب المستعمَرة لا يتمثل فى بورجوازية القوى الامبريالية، وإنما فى المجتمع الصناعى برمته، وعلى ذلك فقد اقترح استبدال التناقض الماركسى الكلاسيكى «الرأسمالى - المستغَل» بتناقض «خاص بالعالم الثالث»، «صناعى - متخلف». وانطلاقاً من ذلك، فقد خلص إلى أنه لن يتسنى للشعوب الإسلامية أن تتحرر حتى تقوم بتنظيم تكتلها الأممى الاستعمارى الخاص، على أن يكون مستقلاً عن الأممية الثالثة التى تخضع، مثل سابقتيها، لسيطرة ممثلى المجتمعات الصناعية، أو حتى معارضاً لها. ولتحاشى أن تؤدى ثورة أكتوبر، منذ البداية، إلى إعادة الوصاية الروسية على المسلمين، فقد رأى سلطان غالييف أن يتم الانتقال إلى الاشتراكية على مراحل تدريجية.

وقد كتب أحد رفاقه، وهو الكريمى أحمد أوزنباشلى، عام ١٩٢٢ فى الصحيفة الشيوعية التى كانت تصدر فى كريميه بعنوان Yeni Dünya (العدد ١٢)، فى سامفيروبول يقول:

«ربما كان للنظام السوفياتى، الذى يمثل ديكتاتورية الطبقة العمالية وحدها، مبرراته فى روسيا، حيث بلغ رأس المال الصناعى أوج تطوره. (....) إلا أن هذا النظام ذاته لا يصلح لتطبيقه على الجموع الإسلامية البدوية، أو تلك التى دخلت لتوها عصر الرأسمالية التجارية.

«إننا نريد... اجتياز مراحل التطور الاقتصادى بصورة بطبيعية، لا أن نعبرها دفعة واحدة من أجل الوصول إلى أشكال للحكم لن يمكننا فهمها، أو استيعابها.... كما يتعين علينا أن نعتنق مبدأ السلطة الوطنية لا السلطة الطبقية فى كل من تركستان. وكيرجيزيا، وبشكيريا، وكذلك فى القوقاز، وتترستان، وكريميه.»

وعلى ذلك فإن سلطان غالييف كان يرى أنه من الضرورة بمكان، فى المرحلة الأولى للثورة، المحافظة بأى ثمن على الكوادر المحلية النادرة والتى تتمتع بالقدرة على تقرير مصائر الشعوب الإسلامية، أى المثقفين أياً كان أصلهم الاجتماعى، سواء كان أرستقراطياً، أم بورجوازياً، بل وحتى رجال الدين الإصلاحيين، بغية الحيلولة دون استمرار الوصايا الروسية. كما كان يقول بأنه لا ينبغى أن نسقط تماماً الصراع الطبقى داخل المجتمع الإسلامى، بل أن نوقف تطوره حتى يجىء اليوم الذى يمكن فيه للكوادر الوطنية البروليتارية أن تخلف الكوادر البورجوازية فى نهاية الأمر.

«طالما أن الشعوب الإسلامية لا تنقسم إلى طبقات إجتماعية متنافسة، ولا وجود فيها

للبروليتاريا الصناعية بعد، فإنه يستحيل أن تقوم فيها ثورة بروليتارية. وإنما يتعين الاكتفاء في الوقت الحالى بثورة «سوفياتية»، دون صراع طبقى.»

وحتى يتسنى له إقناع رفاقه البلاشفة الروس بأفكاره الهرطقية، فإن سلطان غالييف قد أيدها بفرضية أقرب إلى الماركسية التقليدية، وهى «انتقام المظلومين من الظالمين»، حيث دافع عنها للمرة الأولى فى مارس ١٩١٨ أمام المؤتمر الإقليمى للحزب الشيوعى الروسى فى قازان بقوله:

«إن الشعوب الإسلامية المستعمَرة هى جميعها شعوب بروليتارية، فمادامت جميع طبقات المجتمع الإسلامى تقريباً قد تعرضت للاضطهاد فيما مضى على يد الاستعماريين، فإنه يحق لها جميعاً أن تلقَّب باسم الطبقات البروليتارية. (....) وعلى ذلك فإن الشعوب الإسلامية هى شعوب بروليتارية. إلا أنه ثمة اختلاف ضخم، من وجهة النظر الاقتصادية، بين البروليتاريا الانجليزية أو الفرنسية، على سبيل المثال، والبروليتاريا الأفغانية أو المراكشية. ومن ثم فإنه يمكننا الجزم بأن الحركة الوطنية فى البلدان الإسلامية تتسم بطابع الثورة الاشتراكية.»

بل إن رفاقه قد ذهبوا مؤخراً إلى ما هو أبعد من ذلك، بإعلانهم أن الشعوب الإسلامية هى الشعوب الوحيدة البروليتارية بحق فى روسيا. وعلى سبيل المثال، فقد صرح والى إسحاقوف، أحد زعماء الحزب الشيوعى فى تترستان، ونائب رئيس إدارة التخطيط بالجمهورية، فضلاً عن كونه من الرفاق المخلصين لسلطان غالييف، عام ١٩٢٦ بقوله: «إن التتر أكثر ثورية من الروس من الناحية الموضوعية، فقد تعرضوا للاضطهاد على يد القيصرية بصورة أعنف من الروس.» وعندما انضم سلطان غالييف إلى المعارضة بعد عام ١٩٢٣، طرح فكرة إنشاء «جبهة موحدة للمضطهدين»، تضم جميع طبقات المجتمع الإسلامى، باستثناء البورجوازية الكبيرة وحدها وقلة نادرة من الإقطاعيين، مؤيداً بذلك الفكرة الإسلامية التقليدية حول الأمة كمجتمع للمؤمنين حيث تتمتع جميع الأحزاب أو معظمها بمكاسب الثورة.

إلا أن نظريات سلطان غالييف لم تكن فريدة تماماً. فقد سعى بعض القادة الشيوعيين غير الروس فى نفس الفترة إلى حماية شعبهم من عودة «التطرف الوطنى الامبريالى لروسيا العظمى»، الذى اعتبروه أمراً حتمياً. وكانت لثلاثة منهم على وجه الخصوص رؤية استشرافية للعالم الاستالينى، وهم الأوكرانى ميكولا سكريبنيك، والجيورجيان فيليب ماخارادزيه، وبودو

مديفانى. وهؤلاء الثلاثة جميعهم من البلاشفة القدامى، انضموا إلى الحزب قبل ستالين، وهم دولانيون متشددون وماركسيون حقيقيون لا يرقى الشك إلى أفكارهم «القومية البورجوازية». كما أسهموا بحماس، مثل سلطان غاليف تماماً، بدور فعال فى الثورة والحرب الأهلية.

وحتى عندما تغلبت الثورة التى كُلِلَت بالنصر أخيراً على آخر معاقل المقاومة المناهضة للثورة عام ١٩٢٠، أعرب هؤلاء عن مخاوفهم من المستقبل. والواقع أن شكل الحزب البلشفيكى قد شهد تغيرات عميقة خلال العامين الأخيرين من الحرب الأهلية. إذ وجد البلاشفة الدولانيون القدامى، ومن بينهم مثقفون من أصل بورجوازى، ومسؤولون حكوميون تلقى معظمهم تعليمه فى جامعات ألمانيا ويتحدثون الألمانية كلغة للتخاطب فى كثير من الأحيان، أنفسهم وجهاً لوجه أمام وافدين جدد ناضلوا من أجل الثورة، وهم روس فى غالبيتهم، من أصل عمالى أو ضباط صف قدامى فى الجيش القيصرى. ورغم جهلهم واستخفافهم بدقائق فن الجدل والحوار، إلا أنهم كانوا يتسمون بالطموح والواقعية، فضلاً عن القدرة على ارتكاب أسوأ الفظائع على المستويين الشخصى والجماعى، ومن ثم فقد التفوا تلقائياً حول ستالين. ومنذ ذلك الوقت، لم يخفوا مشاعر الغطرسة والازدراء بل والكراهية تجاه الغرباء. وقد لاحظ من يتمتعون بفكر ثاقب من بين القادة البلاشفة غير الروس ظهور ذلك الجيل الجديد من «البلاشفة الشبان» بشىء من التخوف. فقد رأوا فيهم أسوأ عيوب التطرف الوطنى للشعبية الروسية القديمة التى تبجلها الديناميكية البروليتارية فى الوقت الحالى. كما كانت تربط سلطان غاليف علاقة معرفة شخصية بكل من سكريبنيك وماخارادزيه ومديفانى، وثلاثتهم وقعوا ضحايا لستالين فيما بعد، ومن الأرجح، وإن لم نكن على يقين من ذلك، أنه قد أتيحت له فرص عديدة للتناقش معهم حول استراتيجية موحدة للتصدى لرفاقهم الروس. والواقع أن الأوكرانيين والجيورجيين والتتر قد اتخذوا مواقف تكاد تكون متطابقة حول معظم المسائل الجوهرية التى تتعلق بمستقبل شعبهم: وعلى رأسها استقلال حزبهم الشيوعى، إلى جانب الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لأقاليمهم ثم، وبدرجة أقل، حق غير الروس فى تعديل السياسة الخارجية لروسيا الجديدة وللأممية الشيوعية. إلا أن مطالبهم لم تتضمن، فى البداية على الأقل، الانفصال عن موسكو بأى شكل من الأشكال. بل اكتفوا بالمطالبة بأن يتم الاعتراف، داخل الحركة الشيوعية، بما أسموه (الذاتية الوطنية) الأوكرانية أو الجيورجية أو التترية، حيث رأوا أنها أكثر ملاءمة للتقاليد الوطنية وللظروف الاجتماعية لشعوبهم من النموذج الروسى.

غير أن أهم مشكلة واجهتهم، وشكلت موضوعاً للخلاف فيما بعد ، كانت تتعلق بالمطالبة باستقلال لجان الأحزاب الجمهورية. وقد تناولنا فى موضوع سابق محاولات سلطان غالييف فى سبيل إنشاء حزب شيوعى (بلشفيكى) إسلامى وفشله فى هذا المجال. كما تقدم الجيورجيون، من جانبهم، بنفس الطلب إلى المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى (ب) الروسى فى أبريل عام ١٩٢٣ ، ولكن بشكل مختلف. فقد أدرك فيليب ما خارادزيه، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعى فى جيورجيا ، وكان يتمتع بخبرة أكبر من سلطان غالييف فيما يتعلق بدقائق الحزب البلشفيكى، أنه لا مجال لوجود حزب شيوعى جيورجى حر أو حتى مستقل، ومن ثم فقد قصر مطالبه على مجرد استقلال اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى جيورجيا ، حيث طالب بأن يكون لها وحدها حق اختيار وترقية كوادر الحزب. وأيد ما خارادزيه فى ذلك بودو مديفانى، رئيس مجلس مفوضى الشعب فى جيورجيا ، وهو أصغر سناً وأكثر تشدداً من سابقه، حيث اتهم الرفاق أعضاء اللجنة المركزية للحزب البلشفيكى بالتدخل فى الشؤون الداخلية للحزب الشيوعى فى جيورجيا عن طريق نقل الكوادر الشيوعية الجيورجية إلى موسكو بصورة تعسفية، مضيفاً قوله: «وهو ما اعتبره الجيورجيون مصدراً دائماً للإزعاج». إلا أن مطالب الجيورجيين قوبلت جميعها ولا ريب بالرفض التام من جانب ستالين.

أما فى أوكرانيا ، فقد تقدم ميكولا سكريبنيك نفسه بطلب إنشاء تنظيم شيوعى مستقل عن الحزب البلشفيكى الروسى للمرة الأولى فى أبريل ١٩١٨ إلى مؤتمر الحزب الشيوعى فى أوكرانيا الذى انعقد فى تاجانروج. وقد دافع المؤتمر عن مبدأ استقلال الشيوعية فى أوكرانيا ، مطالباً بإنشاء حزب شيوعى فى أوكرانيا المستقلة لا يرتبط بالحزب الشيوعى الروسى إلا بواسطة اللجنة الدولية التابعة للأممية الشيوعية. إلا أن هذا القرار لم يقدر له أن يرى النور. فبعد استعادة الجيش الأحمر لأوكرانيا ، اعتباراً من عام ١٩٢٠ ، خضع الحزب الشيوعى تماماً لسيطرة الروس أو الأوكرانيين المروّسين الذين ينتمون أصلاً إلى أوكرانيا الشرقية.

إلا أن التشابه بين مطالب سلطان غالييف وادعاءات الشيوعيين الوطنيين الجيورجيين والأوكرانيين قد اتضح بدرجة أكبر فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وكان الجيورجيون هم الأكثر جرأة، بدفاعهم عن فكرة الاقتصاد الجيورجى المستقل، انطلاقاً، على حد قول بودو مديفانى، من أن «تبعية جيورجيا لموسكو من الناحيتين الاقتصادية والمالية هى نهاية أى استقلال سياسى». كما اتهم الأوكرانيون موسكو، ممثلين فى شخص ميخائيلو

فولوبويف، وهو أحد الاقتصاديين من رفاق سكريبنيك، بممارسة سياسة القوة العظمى تجاه أوكرانيا، تلك السياسة التى لا تختلف كثيراً عن سياسة القياصرة، فضلاً عن معاملتها باعتبارها مستعمرة تخضع للاستغلال. ومن ثم فقد اقترحوا إعادة توجيه علاقات التبادل التجارى التى تربط أوكرانيا بالبلدان الرأسمالية فى أوروبا الوسطى. وقد وُجِّهت إلى فولوبويف تهمة الانشقاق القومى البورجوازى، وأجبر القادة الشيوعيون الأوكرانيون على التراجع عن أية مطالب للاستقلال الاقتصادى فى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى الروسى عام ١٩٣٠. وكانت التضحية، على امتداد الاتحاد السوفياتى، بالاقتصاد المحلى من أجل المصالح العليا للمركز. فقد اصطدمت الأهداف اللامركزية للقادة المحليين، والتى كان من شأنها أن تضفى على الشيوعية السوفياتية لمسة إنسانية، بالأحادية المركزية التى انتهجها ستالين.

هذا وقد اقتربت المطالب الثقافية للشيوعيين الأوكرانيين كثيراً من الاستراتيجية الإسلامية الجامعة التى وضعها سلطان غالييف. وتعرض العديد من واضعى النظريات البارزين لهذه المطالب بالشرح والتوضيح فيما بين الأعوام ١٩٢٠ و ١٩٣٠، وعلى رأسهم شومسكى وميكولا خفيلوفيى، وهم من أنصار «إضفاء الطابع الأوكرانى» على الجهاز الإدارى فى أوكرانيا، وتوجيه الثقافة الأوكرانية تجاه أوروبا بدلاً من موسكو. إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل. وأقدم سكريبنيك على الانتحار مدفوعاً باليأس عام ١٩٣٣، كما لقى معظم رفاقه حتفهم بتهمة القومية، وذلك فى خضم حملات التطهير الدموية للحزب الشيوعى فى أوكرانيا التى أعقبت وفاته.

غير أن الشيوعية الوطنية الإسلامية قد تجاوزت التطلعات القومية للشيوعيين الجيورجيين والأوكرانيين على صعيدين. فقد طالب سلطان غالييف ورفاقه بمنح الشيوعيين المسلمين حق إقامة علاقات مباشرة مع الحركات الثورية فى الشرق الإسلامى، بدءاً بالأحزاب الشيوعية فى الشرق الأوسط، كالحزب التركى والإيرانى والمصرى، دون حاجة إلى وساطة من جانب الحزب الشيوعى الروسى أو الأممية الشيوعية.

كما طالب سلطان غالييف، قبل إلقاء القبض عليه للمرة الأولى ببضعة أسابيع، بمنح مواطنيه التتر الحق فى حمل لواء الثورة إلى جميع أنحاء الشرق، وذلك فى صحيفة Fizn Natsional' nostey عام ١٩٢٣، ص٢٥ بقوله: «إن العمال التتر، وهم يقطنون مساحة شاسعة تمتد من فولجا الوسطى وحتى سيبيريا وآسيا الوسطى، هم خير من يحمل الزخم الثورى

إلى أرجاء الشرق.» كما طالب رفيقه، اللزجينى نجم الدين أفنديف - سامورسكى، السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى داغستان، وعضو الحزب الشيوعى الروسى منذ عام ١٩١٧ الذى أعدمه ستالين بعد ذلك ببضعة أعوام، بنفس الشرف لمسقط رأسه داغستان بقوله:

«إن داغستان من البلدان الشرقية التى نجحت فى المحافظة على علاقاتها بالبلدان الشرقية المجاورة. ومن ثم فإنه يمكن - بل ويتعين - أن تكون بمثابة جسر يربط الاتحاد السوفياتى بالشرق، كما ينبغى أن تصبح، أكثر من أى إقليم آخر فى الاتحاد السوفياتى، قناة لنشر الأفكار الشيوعية فى الشرق الأدنى.» (فى داغستان، موسكو، ١٩٢٤، ص ص ١١٧-١١٨.)

إلا أن هذه الادعاءات التى كان من شأنها أن تعهد إلى المسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بدور قيادى فى الحركة الثورية للبلدان المستعَمرة فى آسيا وأفريقيا، كانت غير مقبولة ولا ريب من وجهة نظر القادة البلاشفة جميعاً. فقد انضم كل من تروتسكى وزينوفييف وبخاران إلى ستالين هذه المرة. إذ رأوا فى الشيوعية الشرقية بدعة مستهجنة قد تؤدى إلى تحريف كامل للماركسية، ولم تصبح فكرة الذاتية الآسيوية للشيوعية حقيقة ملموسة حتى ظهور ماو تسى تونج.

أما الاختلاف الثانى بين سلطان غالييف وغيره من الشيوعيين الوطنيين، الأوكرانيين أو الجيورجيين على حد سواء، والذى جعل نظرياته الإلحادية تمثل خطورة بالغة بالنسبة للقيادة البلشفية فى موسكو، فقد كان ذا طابع عملى لا سياسى. ففى حين شن الأوكرانيون والجيورجيون حرباً سياسية سافرة ضد رفاقهم الموسكويين، نجد أن الشيوعيين المسلمين الأكثر واقعية أو الأشد تشاؤماً فيما يتعلق باحتمالات انتزاع أية تنازلات من الروس قد اتجهوا، منذ عام ١٩٢٠ بل وربما قبل ذلك، إلى النضال السرى. ومن المعروف، فى واقع الأمر، أن العديد من الساسة المسلمين، وهم من الزعماء القوميين القدامى الذين انضموا إلى النظام السوفياتى، قد تبنوا للمرة الأولى، فى ربيع عام ١٩١٩ فى كل من طشقند وقازان وبشكيريا، فكرة إنشاء حزب سرى اشتراكى وإن كان معادياً للروس. ورغم أننا نجهل أسماء هؤلاء المبشرين، إلا أنه من الأرجح أن يكون سلطان غالييف وأحمد زكى فاليدوف، رئيس المجلس العسكرى الشورى ومفوض الشعب للشؤون الحربية فى الجمهورية البشكيرية، ضمن هؤلاء. وفى نوفمبر من نفس العام، اجتمع بعض القادة الاشتراكيين المسلمين الذين لا نعلم أسماءهم جميعاً، من طشقند

وبخاري وقازان وكازاخستان وبشكيريا ، سراً في موسكو تحت رئاسة سلطان غالييف. وقرروا، اقتناعاً منهم بأن القادة البلاشفة لن يسمحوا مطلقاً باستقلال الشيوعية الإسلامية، إنشاء حزب اشتراكي إسلامي مستقل عن الحزب الشيوعي الروسي وعن الأممية الثالثة في آنٍ واحد. ونذكر من بين هؤلاء المتآمرين الأوائل أسماءً ثلاثة: أحمد زكي فاليدوف، وعبد الحميد أريفوف، وكان آنذاك مفوض الشعب للشؤون العسكرية في جمهورية بخاري، وجانيزاكوف ممثل جمهورية تركستان. ومن الأرجح كذلك أن يكون من بين المتآمرين أحمد باي طورسون وعلي بوكيخانوف، وهما من زعماء الحزب الكازاخستاني في آلاش أوردا ، إلى جانب الأوزبكستانيين فيظ الله خوجاييف، الذي شغل فيما بعد منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي في أوزبكستان، وعثمان خوجاييف، مفوض الشعب للشؤون المالية في جمهورية بخاري. وقد اجتمع بعضهم في مؤتمر شعوب الشرق الذي انعقد في باكو في سبتمبر ١٩٢٠، حيث قاموا بإعداد القوانين الأساسية للحزب السري الذي لم يكن يحمل أي اسم بعد.

وفي عام ١٩٢٠ كذلك (طبقاً لبعض المصادر السوفياتية مثل بيترز، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في أوزبكستان، في صحيفة برافدا فوستوكا Pravda vostoka الصادرة في طشقند يومي ١٦و ١٨ ديسمبر ١٩٣٤) ،جمع سلطان غالييف في موسكو الأوزبكستانيين نظام الدين خوجاييف وطورسون خوجاييف، والبشكيري أحمد زكي فاليدوف، والكازاخستاني أحمد باي طورسون، وأسس تنظيماً سرياً أطلق عليه اسم (الاتحاد والترقي)، بهدف ثلاثي وهو إنشاء نواة للجهاز السوفياتي من خلال الكوادر الإسلامية التركية، ووضع اليد على المنشآت التعليمية في الجمهوريات الإسلامية بغرض تحويلها إلى مراكز للجامعة التركية والجامعة الإسلامية، وإقامة صلات مع مختلف الحركات المناهضة للثورة، لا سيما البسماتشيين، بغية الإطاحة بالنظام السوفياتي وإقامة «دولة بورجوازية تركية جامعة» بدلاً منه.

وبعد ذلك مباشرة، في يناير ١٩٢١ ، اجتمع بعض الشيوعيين القوميين المسلمين في بخاري. فهل كان سلطان غالييف ضمن هؤلاء؟ ليس هذا بالأمر المستبعد ، فقد كانت مهامه في مفوضية الشعب لشؤون القوميات تقتضي منه التنقل باستمرار في أنحاء الاتحاد السوفياتي. وتقرر في هذا الاجتماع إطلاق اسم جماعة الاشتراكيين في تركستان على تلك الجماعة السرية، وهي التي عُرفت بعد ذلك ببضعة أعوام باسم الحزب الاشتراكي في تركستان، -

Erk (الإرادة)، حيث احتفظ بطابع السرية.

غير أننا لا نعرف الكثير عن الفترة الأخيرة من الحياة الرسمية لسلطان غالييف. فقد اتهمه ستالين عام ١٩٢٣ بأنه قام منذ عام ١٩٢٠ بإنشاء تنظيم سرى «إجرامى، ومناهض للثورة، ومعادٍ للبروليتاريا الروسية». كما اتهمه على وجه التحديد بالعمل على الإطاحة بالنظام السوفياتى بالتعاون الوثيق مع زعماء حركة البسماتشين الذين كانوا يناضلون خلال نفس الفترة، بقوة السلاح، ضد الجيش الأحمر فى تركستان، بل وحتى بالاشتراك مع تنظيمات معادية للسوفيات من المهاجرين المقيمين فى تركيا وإيران، وأخيراً بمحاولة «الإضرار بحركة تحرير المستعمرات من نير الامبريالية».

ولا ريب أن الأسلوب المستخدم فى تلك الاتهامات، والذى يتضمن بعض العبارات الشهيرة من أقوال فتشنسكى مثل «الأفاعى الفاسقة» و «الجرذان اللزجة»، وغير ذلك من سيل الإهانات التى صبها ستالين بعد ذلك ببضعة أعوام على خصومه التروتسكويين أو غيرهم قبل أن يحكم عليهم بالإعدام، لا يستند إلى أى أساس فى الحقيقة. وواقع الأمر أن سلطان غالييف لم يكن يسعى بعد، حتى عام ١٩٢٣، إلى الانفصال عن الحزب الشيوعى الروسى، كما أن الصلات التى احتفظ بها ولا شك مع الخصوم المحتملين للنظام، أى غيره من الشيوعيين المسلمين الذين انخدعوا مثله بالتوجيه الروسى الصرف لثورة أكتوبر على نحو مبالغ فيه، بل وربما البسماتشين كذلك، لم تكن تستهدف بعد إنشاء تنظيم مناهض للثورة، بل مجرد «جبهة للمتذمرين». ومن هنا فإنه لا يمكننا الحديث، حتى إقصائه من الحزب، إلا عن «انشقاق» سلطان غالييف، لا عن حركة «غالييفية» منظمة.

وفى مارس ١٩٢٣، اعترضت الإدارة السياسية للدولة (الجى بى يو) رسالة من سلطان غالييف إلى رفاقه فى أوفا، ينتقد فيها من جديد سياسة القوميات التى انتهجتها الحكومة السوفياتية بمقارنتها بسياسة الحكومة القيصرية، كما يشكو فيها من عدم الوفاء بالوعود المبذولة فى عام ١٩١٧ بقوله:

«يمكننى أن أؤكد لكم بالقطع، استناداً إلى دراية وثيقة بالحكومة المركزية، أن سياسة الحكومة فى مواجهة الشعوب غير الروسية لا تختلف كثيراً عن السياسة الامبريالية القديمة التى انتهجها الروس العظام. إن الوعود المبذولة عام ١٩١٧ لم تتحقق. ومن ثم فإنه يتعين علينا، فى المؤتمرات المقبلة (للحزب الشيوعى ومجالس السوفيات)، أن ننضم إلى

الكازاخستانيين والتركستانيين لإنشاء جبهة موحدة من أجل الدفاع عن مصالحنا الوطنية. »

وفى ذات الوقت، ثارت أزمة قومية عنيفة فى الجمهورية التترية التى أصبحت إقطاعية شخصية له بفضل نشاط رفاقه. وقامت الأغلبية التترية، خلال المؤتمر الإقليمى السابع للحزب الشيوعى الروسى فى قازان، بالتصويت على اقتراح مستوحى من فرضيات سلطان غالييف يقضى بإقصاء المستوطنين الروس و «إضفاء الطابع الوطنى» على الجهاز الإدارى للجمهورية بصورة جذرية، ورفض المضى قدماً، طبقاً لما كان يراه الرفاق الروس، فى تطهير الحزب الشيوعى والإدارة من جميع العناصر غير البروليتارية التترية. ومن ثم فإن الاقتراح كان بمثابة تمرد سافر ضد موسكو.

وقد شارك سلطان غالييف فى المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى الروسى فى الفترة من ١٧ إلى ٢٥ أبريل ١٩٢٣، باعتباره مجرد مندوب له صوت استشارى، وهو ما يكاد يصل إلى حد الطرد. ولم يلبث أن ألقى القبض عليه فى موسكو بأمر شخصى من ستالين صدق عليه كل من تروتسكى وكامينيف وزينوفييف. وكانت تلك هى المرة الأولى التى يأمر فيها ستالين باعتقال أحد الشيوعيين ممن يشغلون مركزاً بارزاً فى الهيكل التنظيمى للحزب. كما كان ذلك مؤشراً على الانفصال بين البلاشفة، الذين تضامنوا جميعاً هذه المرة، وبين الثوريين المسلمين، بعد أن استمر التعاون بينهم على مدى ستة أعوام.

الفصل السادس
التآمرى

الفصل السادس
التآمرى

حتى يتسنى لنا فهم الفصل الأخير من حياة سلطان غالييف، فإنه يجدر بنا الرجوع قليلاً إلى الوراء، عشية المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى الروسى.

إذ يرى أى مراقب لظواهر الأمور أن التعاون بين ستالين ورفاقه المسلمين عام ١٩٢٢ قد جرى دون مصادمات على ما يبدو. إلا أنه على الرغم من الابتسامات المتبادلة بين الرفاق، كان ستالين يشن هجماته ضد الشيوعيين المسلمين خلف ستار التعاون الشخصى. فقد جرى بأمر منه تطهير الحزب الشيوعى فى بخارى رأساً على عقب، وكان يتألف برمته من الإصلاحيين القدامى الذين انضموا إليه، مما جعل منه أحد المعاقل الرئيسية للشيوعية الوطنية. إذ تم شطب ١٤٠٠٠ عضو من قوائم الحزب، حيث لم يبق منه سوى تنظيم هيكلى يضم ١٥٦٠ عضواً أغلبيتهم من الروس. كما شددت موسكو، فى ذات الوقت، قبضتها على الأجهزة الإدارية فى الجمهوريتين الخاضعيتين للحماية: بخارى وخورزم، ضد إرادة الكوادر المحلية. وفى نهاية عام ١٩٢٢، تم اتخاذ الإجراءات الأولى لتقسيم آسيا الوسطى طبقاً للحدود العرقية لا التاريخية، وهى العملية التى انتهت عام ١٩٢٥ بإنشاء الجمهوريات الوطنية، أوزبكستان، وكازاخستان، وكيرجيزيا، وتركمانيا، وطاجيكيستان، وكانت تلك هى نهاية أحلام الشيوعيين المسلمين فى إقامة جمهورية تركستان الإسلامية والتركية الموحدة. وفى أبريل ١٩٢٣، خلال المؤتمر الثانى عشر للحزب الشيوعى (ب) الروسى، تفجرت بوضوح أولى الصراعات الكبرى بين ستالين والشيوعيين الوطنيين، إلا أنه لو لم يكن المسلمون مستهدفين مباشرة، لما كان أى من القائدين التترى أو التركستانى الحاضرين للمؤتمر، سلطان غالييف وريسكولوف، قد بادر بالهجوم، رغم اتهامها بالانشقاق. وقد سيطرت على المؤتمر مناقشات لاذعة بين ستالين وأتباعه المخلصين جريجورى أوردجونيكيدزيه وماميا أورا خيلا شفيلى من جانب، وبين «المؤسسين التاريخيين» للشيوعية الجيورجية من جانب آخر، فيليب ماخارادزيه وبودو مديفانى، اللذين وُجهت إليهما تهمة عصيان أوامر اللجنة المركزية للحزب، فضلاً عن المطالبة بمطالب اقتصادية «غير مقبولة» وممارسة «الامبريالية» تجاه القوميات الصغيرة التى تقطن جيورجيا، مثل الأبخازيين والأوسيتيين، وأخيراً حماية ممثلى الطبقات المالكة القديمة. وكانت المناقشات المتخبطة التى

دارت في المؤتمر، والتي اتسمت بالإسفاف في كثير من الأحيان، تخفي وراءها مشكلتين أساسيتين لم يكن أمرهما ليخفى على أي من المندوبين الحاضرين. فقد تلقت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في جيورجيا، ومعها ضمناً اللجان المركزية لجميع الأحزاب الأخرى بما فيها تلك الخاصة بالجمهوريات الإسلامية، أوامر تقضي بالامتثال بدقة ودون تراجع على أي نحو، لتوجيهات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي. بل والأخطر من ذلك أنه قد حدث تغير جذري في طابع «المشكلة الوطنية» ذاته داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. إذ لم يعد ما أسماه لينين «التطرف الوطني للقوة الروسية العظمى» يمثل الخطر الأول، بل تراجع إلى المكانة التالية خلف «القومية المحلية». وبالتالي فقد أصبح بالإمكان مهاجمة الشيوعية الوطنية وجهاً لوجه، سواء كانت جيورجية أو أوكرانية أو إسلامية. وأدرك سلطان غالييف، الذي حضر مناقشات ذلك المؤتمر الثاني عشر ملتزماً الصمت على نحو سلبي، أن ذلك لم يكن سوى إعلان ضمني لإدانته. وقد اختتم المؤتمر أعماله في ٢٥ أبريل، وبعد ذلك ببضعة أيام، في نهاية شهر أبريل أو مستهل شهر مايو من عام ١٩٢٣- لا أحد يعلم على وجه التحديد، تم إلقاء القبض على سلطان غالييف بواسطة إدارة الجي بي يو، إلا أنه من المؤكد أن ذلك قد حدث قبل ٢٥ مايو، إذ اتهمته الصحيفة التترية Eshche (العامل) التي كانت تصدر في قازان، وهي الجريدة الرسمية للجنة المنطقة التترية، بالخيانة في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ مايو.

غير أنه لم يتم الإعلان عن اعتقال سلطان غالييف إلا بعد ذلك ببضعة أشهر، خلال المؤتمر الرابع الذي عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي مع العمال المسؤولين بالجمهوريات والأقاليم الوطنية، والذي انعقد في موسكو برئاسة ستالين وحضره جميع القادة الشيوعيين المهمين من غير الروس. وكانت المناقشات عاصفة، على ما يبدو، إذ رفض بعض الرفاق قبول الترجمة الرسمية، محاولين إنقاذ سلطان غالييف دون جدوى، استناداً إلى مزاياه كثورى. إلا أن هذا المؤتمر لا يزال من الألغاز التي يكتنفها الغموض حتى يومنا هذا، حيث لم يتم نشر التقرير الموجز الصادر عنه، ولا النص الكامل لإدانة سلطان غالييف. ولا نعلم عن هذا المؤتمر شيئاً سوى الخطاب الذي ألقاه ستالين والقرار الختامي المتعلق بما أصبح يُعرف من ذلك الوقت فصاعداً باسم «الحركة الغالييفية». وقد استهل ستالين خطابه بالاعتذار بدهاء أمام رفاقه في اللجنة المركزية على قيامه بحماية «أحد الخونة»، مع الزعم بنقص الكوادر في الجمهوريات الشرقية بقوله:

«إن الجمهوريات والأقاليم الشرقية لا تضم سوى قلة من المثقفين ورجال الفكر، أو حتى أولئك الملمين بالقراءة والكتابة، وهم لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة. فكيف لا نحيطهم بالرعاية إذن؟ إنها لجريمة ألا تُتخذ فى الشرق كافة الإجراءات الضرورية لحماية هؤلاء الرجال الصالحين من الفساد والحفاظ عليهم من أجل الحزب. إلا أن لكل شيء حدوداً. وهذه الحدود قد تم تجاوزها بانتقال سلطان غالييف من معسكر الشيوعيين إلى معسكر البسماتشيين. فقد انتهى وجوده بالنسبة للحزب منذ تلك اللحظة. بل إنه كان يتقبل السفير التركى أكثر من قبوله للجنة المركزية لحزبنا.»

ولا يمكننا إدراك ما يلمح إليه ستالين من اتصالات جرت بين سلطان غالييف والسفير التركى. إلا أن الاتهام الأكثر تحديداً هو «التآمر» وإجراء اتصالات مع البسماتشيين وأحمد زكى فاليدوف، الزعيم البشكيرى الذى كان قد انضم لتوه إلى المتمردين فى آسيا الوسطى، بل وحتى مع «الامبريالية الدولية». ولم يدع القرار الختامى مجالاً للشك حول خطورة تلك الاتهامات. ونورد فيما يلى النص الكامل لهذا القرار:

«بعد الاطلاع على تقرير اللجنة المركزية للرقابة فيما يتعلق بمسألة الحركة الغالييفية، يرى المؤتمر ما يلى:

أولاً: أن سلطان غالييف، وقد عينه الحزب فى أحد المناصب المسؤولة (عضواً فى مجتمع مفوضية الشعب لشؤون القوميات)، قد استغل موقعه والعلاقات التى أقامها، بفضل هذا المنصب، مع العمال المحليين، لإنشاء تنظيم غير مشروع، بالتعاون مع بعض العمال فى الجمهوريات والأقاليم (الأعضاء فى الحزب أو الذين لا ينتمون لأى حزب)، الذين لم يكتسبوا الخبرة الكافية بعد، فضلاً عن عدم ثباتهم على مبدأ، بغرض معارضة الإجراءات المتخذة من جانب الأجهزة المركزية للحزب. كما لجأ فى ذلك إلى أساليب تآمرية وإلى استخدام معلومات سرية بهدف التزييف المتعمد لقرارات الحزب فيما يتعلق بالسياسة الوطنية.

ثانيا: أن سلطان غالييف حاول استغلال هذا التنظيم المناهض للحزب من أجل تقويض ثقة القوميات التى قاست الظلم فيما مضى فى البروليتاريا الثورية، كما حاول الإضرار بوحدة هاتين القوتين، والتى تمثل أحد العناصر الأساسية لوجود السلطة السوفياتية وتحرير شعوب الشرق من الامبريالية.

ثالثا: أن سلطان غالييف قد سعى إلى توسيع نطاق تنظيمه خارج حدود اتحاد الجمهوريات السوفياتية، محاولاً إقامة علاقات مع أنصاره فى بعض البلدان الشرقية (فارس وتركيا)، وجمعهم حول برنامج سياسى معارض لسياسة القوميات فى ظل السلطة السوفياتية.

رابعاً: أن الأهداف المناوئة للحزب والمناهضة للثورة التى تبناها سلطان غاليف بشكل موضوعى، بل وحتى المنطق المحرك لنشاطه المعادى للحزب، قد أدت به إلى الخيانة، وإلى التحالف مع القوى الحقيقية المضادة للثورة والتى تناضل للإطاحة بالنظام السوفياتى. ومن ثم فإنه قد سعى إلى الإرتباط بالبسماتشيين فى تركستان وبخارى الذين يحظون بتأييد الامبريالية الدولية، من خلال أحد زعمائهم، وهو زكى فاليدوف.

خامسا: وعلى ذلك فإن المؤتمر يرى أن الأعمال الإجرامية التى ارتكبها سلطان غاليف تجاه وحدة الحزب والجمهورية السوفياتية، وهى الأعمال التى أقر بها تماماً فى اعترافاته، تحتم عليه الانفصال عن الحزب الشيوعى.

سادساً: يسجل المؤتمر أن التحول القومى من جانب بعض العمال المحليين فى الجمهوريات والأقاليم هو رد فعل فى مواجهة التطرف الوطنى الروسى الأعظم الذى تجلى فى سلسلة كاملة من الأخطاء التى ارتكبها الرفاق الروس على النطاق المحلى. وعلى ذلك فإن مقاومة هذا التزمت الوطنى هو أحد الأهداف الرئيسية للحزب. ويمكننا أن نعتبر نشاط سلطان غاليف، فى مرحلته الأولى على الأقل، تعبيراً عن هذا التحول القومى فى أسوأ صوره. إلا أن المؤتمر يرى لزاماً عليه، فى الوقت ذاته، الإشارة إلى أنه كان يمكن تجنب النشاط المعادى للحزب والمناهض للسوفيات من جانب سلطان غاليف أو تحييده على الأقل فى الوقت المطلوب داخل إطار الحزب، لو كان العمال المحليون أنفسهم فى الجمهوريات الشرقية، لا سيما فى تترستان وبشكيريا حيث شهدت «الحركة الغاليفية» شيئاً من التوسع، قد شنوا حرباً منظمة وضارية ضد التحول القومى.

سابعاً: وعليه، فإن المؤتمر يرى أن أحد مهام حزبنا هى إنشاء كوادر دولانية وشيوعية بين العمال المحليين فى الجمهوريات والأقاليم الوطنية، يتم اختيارها من بين الأوساط البروليتارية وشبه البروليتارية على وجه الخصوص، وتكون من المرونة بحيث يمكنها اجتذاب عناصر الإنتلجنتسيا المحلية إلى عمل مجالس السوفيات، وهى العناصر التى

تتسم بشيء من الولاء، إلى جانب تمتعها بالخبرة الكافية لمقاومة التأثيرات المنشقية البورجوازية والقومية، ولقيادة النضال بفعالية ضد التحول القومي، وضد مخلفات عدم التكافوء الوطني التي من شأنها تعزيز هذا التحول في الوقت نفسه.

ثامنا: على التنظيمات الشيوعية داخل الجمهوريات والأقاليم الوطنية أن تمارس رقابة صارمة بغية الحفاظ على الإطار التنظيمي والأيديولوجي للحزب. وفي حين يتعين على الحزب النظر بعين الاعتبار إلى الاتجاهات الوطنية بل وحتي القومية، عندما يكون من شأن هذه الأخيرة أن تؤدي إلى إثارة القطاعات الشعبية العريضة، فإنه لا ينبغي له السماح لهذه الاتجاهات ذاتها بإفساد أي من أجزائه التنظيمية. إذ لا ينبغي لأي شيوعي المطالبة بتعديل السياسة الوطنية إلا في داخل تنظيم الحزب وفي إطار الخط المرسوم للحزب.»

وتشير إقالة سلطان غالييف إلى مرحلة في تاريخ الحزب الشيوعي الروسي، شهدت انفصالاً بين ستالين وبين أولئك الشيوعيين المسلمين الذين كانوا يأملون استغلال ثورة أكتوبر لإرضاء نزعاتهم الوطنية الخاصة. كما كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها إلقاء القبض على أحد القادة الشيوعيين المحليين وإقصاؤه من الحزب استناداً إلى مثل هذه الأسباب. ولم يكن ذلك الإجراء المدوي الذي جرى اتخاذه في أعقاب المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي الروسي حيث احتلت المشكلة الوطنية مكاناً بارزاً، سوى بداية للهجوم الطويل الذي شنه ستالين على مدى أعوام ضد الشيوعيين الوطنيين. وهكذا اكتسبت إدانة سلطان غالييف قيمة رمزية. فقد أصبح تقييم التحولات التركية والإسلامية الجامعة في الماضي والمستقبل يتم مروراً به. ويوضح التصريح الذي أدلى به فاليريان كويبيتشيف في المؤتمر الرابع ذلك على النحو التالي:

«إن بعض الرفاق يعتقدون بأنه من الخطأ استخدام تعبير «الحركة الغالييفية» للإشارة إلى تحول ما. وهم بذلك إنما يحاولون تجاهل الأسباب الداعية إلى عقد هذا المؤتمر. كما يزعمون بأن سلطان غالييف ظل يعمل في الحزب دون أن يقترف أي جرم، وأن كل ما فعله هو التراسل مع غيره من الرفاق، وهو أمر قانوني، ثم كبا كبوته فجأة. إلا أن مثل هذا التبسيط للمشكلة من شأنه أن يجعل دراستها غير مجدية. فسقوط سلطان غالييف لا يُعزى للأسف إلى تركيب حالته النفسية وحدها، أو إلى قوانين علم النفس التي قد تؤدي إلى تحول عضو بالحزب إلى مجرم فجأة. وهذه المسألة برمتها هي ظاهرة نموذجية يجدر بنا دراستها بجدية وإحقاقها حق قدرها

(. . . .) فقد مهدت لتحول سلطان غالييف إلى المعارضة سلسلة كاملة من الحقائق البديهية داخل حزبنا، فى قلب الحقيقة الروسية. »

غير أن سلطان غالييف لم يمثل أمام القضاء لمحاكمته. فقد أدلى، طبقاً لما أوردته الصحافة السوفياتية، باعترافات كاملة، كما قطع على نفسه عهداً بالرجوع إلى حيدة الصواب، وهى الاعترافات والوعود التى أنقذته من حبل المشنقة وفقاً لبعض المصادر. ورغم إطلاق سراحه بعد ذلك بقليل، إلا أنه ظل مستبعداً من الحزب، كما قضت اللجنة المركزية على رفاقه القدامى بقطع أية صلة تربطهم به.

وتُعتبر الفترة الواقعة بين إقصاء سلطان غالييف من الحزب الشيوعى وإلقاء القبض عليه للمرة الثانية فى نوفمبر ١٩٢٨، هى أكثر الفترات الجديرة بالاهتمام فى حياته دون شك، وإن كانت أقلها شهرة. فالمصادر السوفياتية لا تفيدنا بأكثر من أنه قد عاد، بعد إبعاده عن الحزب رغم إطلاق سراحه، إلى مزاولة عمله الصحفى حيث عمل حتى عام ١٩٢٨ فى مختلف دور النشر الرسمية، ومن أبرزها Gosizdat فى موسكو. وطبقاً لمصادر أخرى، تميل إلى الحذر كذلك، فقد تم ترحيل سلطان غالييف إلى جيورجيا، وإلقاء القبض عليه من جديد عام ١٩٢٤، ثم نقله إلى موسكو. وعقب الإفراج عنه، بعد ثمانية أشهر من السجن، «من أجل ما أسداه لقضية الثورة من خدمات»، عاش إذ ذاك فى العاصمة السوفياتية. وهذه المعلومات، وإن كانت تفتقر إلى الدقة، تتفق فى نقطة واحدة: فعلى الرغم من خضوع سلطان غالييف للمراقبة، إلا أنه قام فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٨ بممارسة نشاط مكثف مذهبياً وتنظيمياً فى آنٍ واحد، كما استغل تلك الأعوام الخمسة فى وضع نظرية جديدة لثورة المستعمرات، إلى جانب إنشاء تنظيم سرى «مضاد للثورة».

هذا وليس من السهل تصوير الجانب النفسى لسلطان غاليف خلال الأعوام الأخيرة لحياته العملية. إذ لم يترك الاعتقال والسجن أثراً كبيراً فيه. والأرجح كذلك أنه لم يتعرض لسوء المعاملة. إذ أن كونه من الشخصيات البارزة فى الحزب الشيوعى، رغم سقوطه، قد منحه الحق فى بعض الامتيازات. كما أن أجهزة الشرطة فى عهد ستالين لم تمارس التعذيب على المعارضين «التروتسكويين» أو «اليمينيين» إلا فى وقت لاحق، بعد عام ١٩٣٤. وعلى أى الحالات، فقد ظهر فى يولية عام ١٩٢٣ بمظهر من لم يتعرض لمعاناة القهر فى غياهب السجون. كان فى الثالثة والأربعين من عمره، شاباً يتسم بلياقة بدنية فائقة وحدة ذهن فريدة. ورغم تمتعه

بروح ثورية متقدة، إلا أنه لا يمكننا أن نطلق عليه لقب شيوعى، مع استمراره فى الاستشهاد الدائم بالماركسية على نحو ما كان يفعل وهو لا يزال بعد ضمن قادة الحزب. وقد خلص على ما يبدو، من صراعه مع ستالين، إلى قناعة مؤداها أن الوفاق جد مستحيل بين الشرق والغرب، وأن الثورة البلشفية ليست سوى آخر المحاولات من جانب الغرب، وأكثرها خطورة، لفرض هيمنته، كما أن القادة السوفيات ما هم إلا امتداد للسياسة الامبريالية التى انتهجها أسلافهم فى العصر القيصرى. وبعد خروجه من السجن، أخذ يشن معركة جديدة ضد رفاقه الروس القدامى بنفس الحماس الذى أظهره من قبل فى مواجهة مواطنيه «القوميين البورجوازيين» وضد الجيوش البيضاء.

وليس هناك من سبيل للتعرف على الفكر السياسى لسلطان غالييف بعد عام ١٩٢٣ إلا من خلال الانتقادات التى وجهها له خصومه، الذين يخلطون عمداً بين أفكاره الشخصية وأفكار رفاقه، وهى تختلف عن معتقداته فى بعض الأحيان أو عن آراء بعض القادة القوميين البورجوازيين الأصليين التى أعربوا عنها فى المهجر، وهو أمر ليس بذى أهمية. المهم هو أن أولئك المسلمين الثوريين الذين أتوا إلى الشيوعية تحدوهم إرادة قومية لتحرير الإسلام من أية تأثيرات خارجية وخدعهم اتجاه الثورة، قد انضووا، فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٨، تحت لواء أيديولوجية عُرفت منذ ذلك الوقت فصاعداً باسم «الحركة الغالييفية»، وهى الأيديولوجية التى سوف يقدر لها أن تصبح، حتى عام ١٩٣٦ بل وحتى بعد ذلك، السلاح المذهبى لجميع حركات المقاومة الإسلامية فى مواجهة النظام المركزى فى موسكو. فقد مثلت «الحركة الغالييفية» أحد الانتقادات الأولى، بل وأكثرها جرأة وخطورة على الإطلاق، ضد سياسة الحزب الشيوعى الروسى والأممية الشيوعية. إذ تعاظم تأثيرها فى جميع الجمهوريات الإسلامية داخل الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، حيث ظلت على مدى أعوام تشهد تطوراً مستمراً، وإن كانت قد ابتعدت عن الشيوعية بل وحتى عن الفكرة المبدئية لمؤسسها، لكى تقترب من القومية السابقة على الثورة على نحو مطرد.

وقد تناولت الدراسات السوفياتية التى نُشرت بعد عام ١٩٣٠ حول سلطان غالييف والحركة الغالييفية «برنامجه» الذى قام بوضعه فى خريف عام ١٩٢٣ ونُقل إلى اللغة التترية خلال فترة غير معلومة فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٨ تحت عنوان (تأملات حول أسس التطور الاجتماعى السياسى والاقتصادى والثقافى للشعوب التركية). (Türk khalklarynyng

باللغة sotsial-söyasi, iktisadi, häm kultura yshlärynyng nigizläre karashlar التترية) ولا نعلم على وجه اليقين ما إذا كان هذا «البرنامج» قد تم طبعه بالصورة اللائقة، أم أنه لم يجر تعميمه إلا بصورته المخطوطة. إلا أن الخطوط العريضة لهذا البرنامج، بل وحتى مقتطفات كبيرة منه، تتضمنها المجموعة القّيمة المعنوية Kantr-Rivolütsion Soltan galieftchelekkä qarshy, والمكرسة بصفة خاصة «للحركة الغاليبيفية» وكذلك فى أحد أعمال أ. أرشارونى و خ. جابد اللين بعنوان: Ocherki panislamizma i pantiurkisma v Rossii، حيث يعالج فى الفصل الرابع (ص ص ٧٦-٩١) تحول سلطان غاليبف، والعمل الذى قدمه ل. روبنشتاين تحت عنوان: V bor'be za leninskouy'ou natsional 'nouy 'ou politikou، والذى يعرض فيه كفاح الحزب ضد رفاقه في تترستان. ويتضح لنا من المضمون المذهبى لهذا البرنامج أن سلطان غاليبف وأتباعه المخلصين كانوا يزعمون، رغم تأكيدهم على إخلاصهم للماركسية، أن «الشيوعيين فى روسيا وأوروبا قد احتكروا لأنفسهم المادية الجدلية(*) دون وجه حق»:

«لقد زعم أنصار سلطان غاليبف بأن المادية الجدلية التى يطلقون عليها اسم «المادية الفعالة» ليست نتاج الفكر الأوروبى، وإنما جرت صياغتها للمرة الأولى فى الشرق، وبالتحديد على يد المنغوليين أبناء جنكيز خان. وعلى ذلك فهى تمثل جانباً من التراث التقليدى للشعوب التركية المنغولية.»

غير أننا لا نعلم تفاصيل أدق حول هذه المحاولة المثيرة للاهتمام من أجل ربط المادية الجدلية بتقاليد امبراطورية جنكيز خان، ولا يمكننا تقييم ذلك المذهب الذى يتضح من خيبة الأمل العميقة التى أصيب بها الإصلاحيون القدامى وهم يرون الثورة الروسية تغتال أهدافهم، إلا من خلال الاستراتيجية الخاصة بالحركة الغاليبفية. فقد رأى أنصار سلطان غاليبف أن الثورة الاشتراكية لم تكن قادرة، على الصعيد الدولى، على حل مشكلة عدم التكافؤ الاقتصادى بين الشعوب المستعمَرة والبلدان الأصلية الصناعية. إذ صرح سلطان غاليبف فى برنامجه بقوله:

«إننا نعتقد بأن الخطة الرامية إلى استبدال الديكتاتورية العالمية لإحدى طبقات المجتمع الأوروبى (البورجوازية) بالديكتاتورية العالمية لعدوها (البروليتاريا)، أى لطبقة أخرى فى هذا

(*) مادية جدلية (مبدأ يقول بأن المادة هى كل الموجود وأن مظاهر الوجود نتيجة تطور متصل فى القوى المادية) (المترجمة).

المجتمع الأوروبى ذاته، لن تؤدى إلى إحداث تغييرات ملموسة فى مصير الشق المظلوم من البشرية (الشعوب المستعَمرة). وحتى إذا ما كان ثمة تغيير، فإنه لن يكون نحو الأفضل وإنما للأسوأ.»

أما على الصعيد الداخلى، فقد رأى سلطان غالييف ورفاقه أن السياسة الاقتصادية الجديدة هى عودة إلى النظام السابق على عام ١٩١٧، وبداية «تصفية الثورة الاشتراكية فى روسيا»، فضلاً عن قدوم طبقة جديدة من القادة الشيوعيين وصفهم بأنهم «بونابرتيون» و «دعاة للجامعة التركية»، وأنهم قد حولوا الحزب الشيوعى إلى تنظيم يتألف من الروس ويخضع لسيطرتهم، أى «حزب روسى جامع». كما رأوا كذلك فى كل ما تقوم به حكومة موسكو من تصرفات «الامبريالية الروسية عينها» بمعنى الكلمة. فقد أصبح الحزب الشيوعى الروسى، من وجهة نظرهم، «مجلس قيادة الامبريالية الروسية الحمراء»، و «عدو العمال الشرقيين»، الذى يحول دون الانطلاق السياسى والثقافى والاقتصادى للشعوب التركية الإسلامية، ويسعى إلى إعادة «روسيا الواحدة التى لا تتجزأ». والمؤكد أن هذه الهجمات الشرسة ضد الحزب الشيوعى وضد السياسة العامة للحكومة السوفياتية لم تكن إلا تعبيراً عن النزعة القومية التترية فى أكثر صورها تطرفاً وكراهية للأجانب. إلا أن أنصار سلطان غالييف لم يشاركوه جميعاً هذا التشدد، رغم أنه كان انعكاساً لعقلية عدد كبير من الشيوعيين المسلمين فى تلك الفترة. إذ كانوا يرون أن الثورة الروسية فقدت كل مغزى لها منذ عام ١٩٢٣.

وثمة وثيقة فريدة فى حوزتنا تتيح لنا - لحسن الحظ - تقييم موقف سلطان غالييف بعد عام ١٩٢٣. وهى برنامج الحزب السرى التركستانى المعروف باسم Erk، والذى أنشأه بعض الشيوعيين المسلمين الذين أصيبوا بخيبة الأمل من جراء السياسة «الامبريالية» و «الاستعمارية» التى انتهجتها موسكو بصورة مطردة. ويتضمن ذلك البرنامج الذى ربما جرى وضعه فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٦، عدة نقاط مستوحاة من نظريات سلطان غالييف مباشرة. فقد سعى قادة الحزب، مثل هذا الأخير، إلى اعتناق الاشتراكية لثلاثة أسباب جوهرية:

أولاً: بسبب «القيمة التربوية» للاشتراكية، أى قدرتها على التعبئة والترابط الاجتماعيين؛ **ثانيا:** لأنهم رأوا ضرورة القضاء على التخلف الثقافى والاجتماعى والسياسى فى العالم الإسلامى بصفة عامة وفى آسيا الوسطى على وجه الخصوص بأسرع وقت ممكن، كما اعتقدوا أن الماركسية جديرة أكثر من أى مذهب آخر بالعمل على نقل حضارة العصور الوسطى

إلى العالم الحديث، ثالثاً: وأخيرا، لأنهم اعتبروا أن الحركة الاشتراكية الدولية هى وحدها القادرة على حماية تركستان من النفوذ «الاستعمارى» للروس. ورغم أن أحداً من الاشتراكيين الأجانب لم يهب لنجدتهم عام ١٩٢٠ وما تلاه من أعوام، إلا أن رؤيتهم كانت استشرافية. فبعد وفاة سلطان غالييف بخمسين عاماً والتصفية الجسدية لقادة حزب Erk، ألا تبدو الصين الشيوعية هى العقبة الكبرى التى تحول دون تقدم روسيا تجاه المحيط الهندى؟

وقد انضم قادة الحزب إلى سلطان غاليف فى انتقاداتهم لما أسموه «الاستعمار السوفياتى الجديد». إذ كتب ريسكولوف، الشيوعى التركستانى وصديق سلطان غاليف، يقول:

«لقد عهد انقلاب أكتوبر بالسلطة العليا إلى البروليتاريا. إذ لم يكن هناك من سبب، على ما يبدو، لعدم الثقة (بين الروس والمسلمين). إلا أن العكس تماماً قد ثبت للأسف بعد عامين من ممارسة حكومة العمال والفلاحين للسلطة فى تركستان. فقد تحقق المسلمون من أن المثل الأعلى للثورة لا يتفق بأى حال من الأحوال مع السياسة الفعلية المطبقة على الصعيد المحلى.»

كما كتب سلطان غاليف، من جانبه، فى إحدى الرسائل السرية التى وجهها إلى المتعاطفين معه عام ١٩٢٣-١٩٢٤ يقول:

«إن روسيا لا يمكنها على الإطلاق المضى قدماً على طريق الثورة، إلا أنه ليس بوسعها التنكر للماركسية أكثر من ذلك، أو العودة إلى المواقع السابقة على الثورة. وليس أمامها سوى مخرج واحد، وهو الاتجاه شيئاً فشيئاً نحو المواقع اليمينية، لتمهد الطريق بذلك لنظام يتولى مقاليده اليمينيون.»

وفى معرض الحديث عن تصوره لمستقبل روسيا السوفياتية على وجه التحديد يقول:

«إننى أتوقع احتمالين لتصفية الثورة الاشتراكية فى روسيا:

أولاً: التحول التدريجى للحزب الشيوعى وللسلطة السوفياتية إلى رأسمالية الدولة والديمقراطية البورجوازية.

ثانياً: انهيار السلطة السوفياتية فى أعقاب نشوب صراع مسلح بينها وبين البورجوازية الغربية.

وفى حالة تحول السلطة السوفياتية إلى رأسمالية الدولة، فإن العناصر الوطنية المتطرفة

«اليمينية» (الروسية)، التى لا تزال على عدائها للحزب حتى وقتنا الحالى، سوف تبادر حتماً إلى تولى مقاليد السلطة ووضع حد للتجربة الثورية، وذلك بتصفية أجهزة السلطة الفعلية، أى مجالس السوفيات والحزب الشيوعى.»

بل إن قادة حزب Erk قد تمادوا فى ذلك، ولا تزال بعض جوانب برنامجهم سارية إلى وقتنا الحالى:

«إن الأمة التى هزمت تركستان هى الأمة الروسية. ومن ثم فإن السياسة الاستعمارية الروسية تتميز عن السياسة الاستعمارية الانجليزية أو غيرها من القوى الأوروبية الأخرى بما تسعى إليه من ترويس كامل وقطعى للأقاليم المحتلة. فقد وضعت الامبريالية الروسية نصب عينيها تحويل تركستان إلى إقليم روسى صرف، فضلاً عن استبدال الأغلبية المحلية بأغلبية من المهاجرين الروس القادمين من روسيا الأوروبية، واتخاذها قاعدة للانطلاق نحو غزوات جديدة للإغارة على آسيا الوسطى والجنوبية والشرقية. وتحقيقاً لذلك، فقد شرعت الامبريالية الروسية فى إبادة وتقتيل الأهالى، فى أعقاب الثورات التى كان الامبرياليون أنفسهم هم المحرضون عليها. (....) إذ لقى مليونان من المواطنين حتفهم جوعاً عام ١٩١٧-١٩١٨. (....) وما فتأ الروس الذين احتكروا الإعلام الموجه إلى الشعوب المتحضرة الأخرى يرددون أنهم قد وجدوا فى تركستان المحتلة أرضاً بكراً، يقطنها بعض الهمج مثل الهنود الحمر فى أمريكا، المعادين لأى شكل من أشكال التقدم الاقتصادى، وأنه لا يمكن فرض الثقافة إلا بقوة الغزاة، كما أن قدر هؤلاء المواطنين هو الاندثار «الطبيعى»، على أن يحل محلهم «الحكام الشرعيون» للبلاد، أى المستوطنون، حتى يمارسوا الهيمنة على الأهالى «بصورة قانونية» ويحولوا ذلك البلد الهمجى إلى أمريكا أخرى.»

ولم يكن المسلمون هم وحدهم الذين حملوا على «الاستعمارية(*) السوفياتية». فقد وصف أحد البلاشفة القدماء، وهو جريجورى سافاروف، الذى أوفده لينين إلى آسيا الوسطى عام ١٩٢١ لمراقبة سلوك التنظيمات السوفياتية المحلية فى مواجهة المسلمين المحليين، الفظائع التى ارتكبها الحكام الجدد لآسيا الوسطى بصراحة منقطعة النظير. ومن ثم فإنه يمكن اعتبار تصريحاته انعكاساً لكتابات أنصار الحركة الغاليفية:

«إن الهوة سحيقة بين المدنية الروسية الخاضعة لسيطرة مجالس السوفيات والجموع

(*) استعمارية (نزوع دولة إلى استعمار البلدان الأخرى) (المترجمة).

المحلية (. . . .) بل إنه يمكن تحديد موقف الجموع الأخيرة تجاه السلطة السوفياتية بعبارة وجيزة هى: «متى تحين ساعة الخلاص من الحرية (svobodka)الروسية؟» إذ كانت الحرية الروسية بالنسبة لهم هى المرادف للمجاعة والموت، وغارات فرسان الحرس الأحمر، فضلاً عن المجازر العشوائية، والمصادرات الجماعية، والاستيلاء على الممتلكات بصورة تعسفية....»,(Kolonial'naïa Revolutsiia: opyt Turkestana) موسكو، ١٩٢١، ص١٢٥).

رمزى زكى بطرس

وكان سلطان غاليف يرى أنه فى ظل هذه الظروف، وأياً كان السبب المباشر لإنهاء التجربة الاشتراكية فى روسيا، فإن «الشعب الروسى سوف يضطلع من جديد بدوره كشعب مسيطر»، مما سيفقده كل حق أدبى له فى قيادة شعوب الاتحاد الأخرى. إذ يقول فى برنامجه:

«إن روسيا القديمة، التى واصلت نموها فى صورة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، لن يقدر لها الاستمرار. ومن ثم فإن روسيا السوفياتية لا تعدو أن تكون ظاهرة عابرة ووقتية، ولسوف تختفى سيطرة الشعب الروسى على غيره من الشعوب، لتحل محلها حتماً ديكتاتورية هذه الشعوب على الشعب الروسى».

ولم يكن سلطان غاليف يرى إلا حلاً واحداً لتحاشى إحكام قبضة الغرب من جديد على الشعوب الإسلامية: وهو فرض سيطرة العالم المستعَمر النامى على القوى الأوروبية، الصناعية والاستعمارية: «إننا نعتقد أن العوامل المادية التى يتوقف عليها تحول البشرية لا تتحقق إلا بإرساء ديكتاتورية البلدان المستعمَرة وشبه المستعَمرة على الحواضر الصناعية.» كما اهتم كذلك بالتأكيد على أن روسيا السوفياتية تندرج ضمن تلك العواصم الأخيرة. فقد صرح بقوله:

«حتى يتسنى للبلدان المستعَمرة تحقيق هذه الخطة العظيمة، فإنه يتعين توحيدها فى «أممية استعمارية»، شيوعية، وإن كانت مستقلة عن الأممية الثالثة، بل وحتى معارضة لهذه الأخيرة، يسيطر عليها ممثلو الدول الصناعية. وهذه الأممية الاستعمارية ينبغى أن تشمل كافة الشعوب المقهورة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا...

ويُستثنى من ذلك الاتحاد السوفياتى، وهو قوة شيوعية وإن كانت صناعية، فى حين تندرج الأقاليم الإسلامية فى روسيا ضمن هذه الأممية.»

ومن الأرجح أن سلطان غاليف، وهو يضع خطته الرامية إلى إقامة «أممية استعمارية»، ان يفكر قبل أى شىء آخر فى مصير مواطنيه، المسلمين فى روسيا. إلا أنه قد أدرك، وهو يتنبأ

بانقلاب موازين القوى بين الروس والمسلمين لصالح الطرف الأخير الذى سيبادر إلى بسط سيطرته على الطرف الأول، أن هذه التجربة لم تكن سوى يوتوبيا من نسج الخيال، طالما أن الثورة الاشتراكية لم تمتد لتشمل العالم الإسلامى برمته، بل وحتى العالم الثالث قاطبة. إذ كان يتعين أن يتساوى المسلمون مع الروس، بل وحتى أن يتفوقوا عليهم، من الناحية العددية، وهو ما يقتضى ضمناً اعتناق المسلمين الأجانب للشيوعية: من أتراك، وإيرانيين، وأفغان، وعرب. ولعل فى ذلك تفسيراً للاهتمام الكبير الذى أولاه سلطان غالييف ورفاقه لامتداد الشيوعية إلى الشرق الإسلامى.

وكانت المرحلة الأولى للأممية الاستعمارية هى إنشاء دولة وطنية تركية كبرى فى روسيا، وهى «جمهورية توران». ويشير المؤرخون السوفيات، فى معرض تحليلهم لبرنامج سلطان غالييف، إلى أن الإصلاحيين التتر، وعلى رأسهم عبد الرشيد إبراجيموف، قد تصدوا للدفاع عن هذه الفكرة. فى حين يقارن البعض الآخر بينها وبين مشروع امبراطورية الوسط الرامى إلى إحياء دولة جنكيزخان التى كان يحلم بها البارون فوق أونجرن سترنبرج عام ١٩٢٠-١٩٢١، وهى الفترة التى كان فيها حاكم منغوليا. إلا أن الكتّاب السوفيات قد اختلفوا حول حجم الدولة التورانية. إذ يرى البعض أنها قد اشتملت على الجمهوريات المستقلة الإسلامية فى الفولجا - الأورال، وتترستان، وبشكيريا، إلى جانب الجمهوريات الخمس فى آسيا الوسطى؛ وهى كازاخستان، وكيرجيزيا، وأوزبكستان، وتركمنستان، وطاجيكستان. بينما يضيف البعض الآخر إلى ذلك جمهورية التشوفاش - وهى تركية وإن كانت غير إسلامية - وأذربيجان. ويتجاوز عدد السكان فى هذه الدولة الشاسعة ٣٠ مليون نسمة، منهم زهاء ٧٥٪ من المسلمين من أصل تركى. وكان سلطان غالييف يرى أن توران، وهى دولة مستقلة وذات سيادة فى مواجهة جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية والقوى الرأسمالية، ينبغى أن تكون جمهورية فيدرالية ديمقراطية شعبية واشتراكية تقوم على أساس رأسمالية الدولة.

هذا ويقدم لنا برنامج حزب Erk معلومات تكميلية حول دولة توران أو النسخة المصغرة منها، أى جمهورية تركستان. وكانت هذه الدولة، كما تخيلها مؤسسوها، دولة ذات سيادة، تتمتع باستقلال اقتصادى وسياسى تام. كانت جمهورية ديمقراطية اشتراكية، متحررة لا من «نير الامبرياليين الأجانب وحدهم، بل والإقطاعيين الأهليين ورجال الدين المحليين كذلك»، وتملك جهازاً للدولة وقوات مسلحة خاصة. وهى أخيرا دولة موحدة حول ثقافة تركية أو

تركستانية جامعة واحدة، تتحدث بلغة إدارية فريدة ولها تشريع موحد. وتحقيقاً لتماسكها، فإنه يجب إيقاف الهجرة الروسية إليها. وعلى الجانب المقابل، فإنه حتى يمكن تعزيز الطابع الإسلامى لهذه الدولة الجديدة، تُشجع هجرة السكان «المجاورين للتركستانيين» إليها، من تتر، وإيرانيين، وأفغان، وهنود مسلمين. كما أنه لكى يتسنى تحرير دولة تركستان المستقلة مستقبلاً من احتكار الأسواق الروسية، يتم إعادة توجيه اقتصادها نحو البلدان الآسيوية المجاورة، لا سيما الهند وإيران والصين. وأخيراً فإنه تعويضاً للتخلف الفكرى والعملى لطبقة النخبة فى الدولة الجديدة، عقد قادة حزب Erk العزم على «تعريف التركستانيين بثقافة أوروبا الحقيقية، التى تفوق فى تقدمها ثقافة الروس».

وقد عُهد بالإدارة السياسية لتوران إلى حزب واحد، متكتل، استبدادى ومركزى، تحول عن الحزب الشيوعى الإسلامى القديم بزعامة سلطان غالييف الذى تم حله عام ١٩١٨، ويطلق عليه الكتاب السوفيات اسم «الحزب الاشتراكى للعمال والفلاحين Eshche-Krestien) (Sotsialislar Partiase وهذا الحزب من الأحزاب الجماهيرية، حيث تشمل قاعدته الاجتماعية الواسعة الفلاحين،والبروليتاريا الحضرية الأهلية (باستثناء العمال الروس)، بالإضافة إلى البورجوازية الوطنية الصغيرة والمتوسطة. وتتألف مجموعة القيادية من الاشتراكيين الأهليين، من أصل عمالى على النحو الأمثل وإن لم يكن ذلك أمراً حتمياً، حيث انضمت إليها الإنتلجنتسيا الإسلامية الشابة. وكان من شأن هذه المجموعة أن تفرض الديكتاتورية الطبقية على طبقات السكان الأخرى، أى الإقطاع من ذوى الأملاك، والبورجوازية الكبيرة ورجال الدين الإسلامى، وبالأحرى على الروس المقيمين على أرض الدولة التورانية.

ولم يكن الاختلاف الكبير بين سلطان غالييف وذلك العدد الذى لا يُحصى من المعارضين لستالين، سواء كانوا «يمينيين» أو «يساريين»، تروتسكويين، أو بخاريين، زينوفيسيفيين أو مجرد «قوميين بورجوازيين»، يُعزى إلى تفوق آرائه، رغم كونها أكثر واقعية من أفكار الخصوم الآخرين لذلك الجيورجى وما تنطوى عليه من قدرة على التنبؤ فى كثير من الأحيان. بل كان هذا الاختلاف يكمن فى أن سلطان غالييف، الذى يميل إلى الواقعية بدرجة أكبر، بما يجعله يحجم عن عرض نظريات مجردة، كان يسعى إلى التمهيد لقيام الدولة التورانية والأممية الاستعمارية من خلال إنشاء تنظيم سرى، يعد نواة للحزب الاشتراكى فى الشرق.

وفى ذلك كتب صفا برهان، أحد خصوم سلطان غالييف، يقول:

«حتى يمكن تصفية ديكتاتورية البروليتاريا (أى السلطة الروسية)، فإنهم (أنصار سلطان غالييف) كانوا يعملون فى اتجاهين. إذ قاموا، من جانب، بتجميع المتطرفين القوميين فى تنظيم سرى مضاد للثورة، واستغلوا، من جانب آخر، المتعاطفين معهم، أى الشيوعيين اليمينيين الذين ظلوا أعضاءً فى الحزب الشيوعى، حيث قاموا، دون الاشتراك فى التآمر على نحو مباشر، بتسهيل المكائد المضادة للثورة من جانب هذا التنظيم السرى، كل ذلك بغرض هدم الحزب من الداخل وتخريب أعماله.»

هذا وقد ظل التنظيم الخاص بالحركة الغاليبفية تنظيماً سرياً، حتى بعد إلقاء القبض على سلطان غاليبف للمرة الثانية، كما أن المعلومات المتصلة به ضئيلة إلى درجة حدت برفاقه القدامى، خلال الدعوى المقامة ضده عام ١٩٢٩، إلى محاولة التقليل إلى الحد الأدنى من أهمية وقوة التنظيم عن طريق «تصوير سلطان غاليبف بأنه قائد بلا جيش». والواقع أن هذا التنظيم كان واسع الانتشار على ما يبدو، حيث استغل التنظيم القائم بالفعل لمجالس السوفيات. كما يُعتبر هيكله نسخة حرفية من الحزب الشيوعى، إذ كانت له لجنة مركزية وخلايا فى جميع الأقاليم التى يقطنها المسلمون. وكانت اللجنة المركزية السرية، التى يرأسها سلطان غاليبف بنفسه، تتألف بصفة رئيسية من الشيوعيين التتر ونذكر من بينهم: كشاف مختاروف، وقاسم منصوروف، وإبنابيف، ورؤوف صابروف، ووالى إسحاقوف، ومحمود بوديلى، وميكداد بوروندوكوف. كما كان لها مقر فى موسكو («مركز موسكو»)، ومقر آخر فى قازان، حيث كانت تُعقد مؤتمرات إقليمية دورية فى كريميه وموسكو وقازان. وكانت تعتزم، عام ١٩٢٩، عقد مؤتمر عام سرى، إلا أن اعتقال سلطان غاليبف قد حال دون ذلك. ومن المحتمل كذلك أن الفريق القيادى السرى لهذا التنظيم السرى قد ضم بعض الشيوعيين المسلمين. كما يمكن القول بأنه كان من بين هؤلاء كازاخستانيون، وهم القادة القدامى لحزب آلاش - أوردا، أحمد بايطورسون، وعلى خان بوكيخانوف، ومير يعقوب دولاتوف، إلى جانب تيرار ريسكولوف، وإسماعيل صادفوكاسوف، ومنديشيف، وخودجانوف، وسيف اللين، وسلطان بيكوف، وكذلك عدد كبير من الأوزبكستانيين من بينهم فيظ الله خوجاييف، وأكمل إكراموف، وأخيراً التتر فى كريميه، والى إبراهيموف وفيرديف. إلا أنهم تعرضوا جميعاً للتصفية الجسدية على يد ستالين بعد ذلك ببضعة أعوام.

ورغم تعدد التنظيمات الإقليمية الخاصة بالحركة الغاليبفية وقوتها فى تترستان

وبشكيريا على وجه الخصوص، إلا أنها وُجدت كذلك فى أذربيجان، وفى آسيا الوسطى وشمال القوقاز. إذ يشير المؤرخون السوفيات، فى الواقع، إلى أنه فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٨، «شارك قسم هام من الشيوعيين المسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية على نحو فعال بدرجة أو بأخرى فى الحركة الغالييفية». وفضلاً عن ذلك، فقد كان هناك ارتباط مباشر بين العديد من التنظيمات أو الجماعات السرية الإسلامية وبين المركز الخاص بالحركة الغالييفية فى موسكو، حيث كانت تتلقى توجيهات منه. وكان أهم اثنين من هذه التنظيمات أو الجماعات، تلك الجماعة المؤلفة من الأعضاء القدامى فى حزب ألاش - أوردا فى كازاخستان، والتى انتهجت سياسة «كازاخستان للكازاخستانيين»، وحزب ملى فرقة فى كريميه. وقد وصف بوتشاجوف، مؤرخ ذلك الحزب الأخير، العلاقات بين التنظيمين بقوله:

«إن حزب ملى فرقة ليس تنظيماً منعزلاً، وإنما هو جماعة قوية ومؤثرة، بل يمكن القول بأنه أفضل الحركات الانفصالية الإقليمية التى قامت بها الحركة الغالييفية».

« (. . . .) ولا يُعزى التطابق المطلق فى الفرضيات وبرامج العمل (بين حزب ملى فرقة والحركة الغالييفية) إلى تشابه هياكلهما الاجتماعية فحسب، بل وبصفة خاصة كذلك إلى الدور القيادى الذى كان مركز الحركة الغالييفية فى موسكو يمارسه بصفة مستمرة على حزب ملى فرقة. كما كان هذا الحزب ممثلاً كذلك لدى مركز موسكو بواسطة العديد من قادته، والى إبراهيموف، ونوجاييف، وفيرديف... »

أما فى أذربيجان، فقد قام بعض المجاهدين القدامى من حزب الهمة، وكانوا قد انضموا بالجملة إلى الحزب الشيوعى فيما بين عامى ١٩١٨ - ١٩٢٠، بتكوين حزب «وطنى - شيوعى» تحت رعاية خان بوداجوف، عضو اللجنة المركزية للحزب الجمهورى، حيث طالب، على غرار أتباع الحركة الغالييفية فى تترستان، بإعادة المستوطنين والعمال الروس المقيمين فيما وراء القوقاز. إلا أن خان بوجادوف تعرض للتصفية الجسدية فى حملات التطهير التى جرت عام ١٩٣٠ وما بعده.

وفى أوزبكستان، قام بعض «البخاريين الشبان»، الذين انضموا إلى الحزب الشيوعى، بإنشاء جمعية سرية تركية جامعة حوالى عام ١٩٢٣، وهى الاتحاد الوطنى (Milli Ittihad)، ترتبط بالمركز الخاص بالحركة الغالييفية فى موسكو. وكان القائد الرئيسى لهذا الاتحاد هو فيظ الله خوجاييف، إمام الشيوعية فى تركستان، الذى تم اعدامه رمياً بالرصاص عام ١٩٣٧.

وأخيراً، فإن الكتاب السوفيات يشددون على العلاقات الوثيقة التى أقامها التنظيم السرى الخاص بالحركة الغاليبفية مع الجماعات «المضادة للثورة» علناً، سواء كانت إسلامية أم غير إسلامية، وهم البسماتشيون فى تركستان، والقوميون الجيورجيون، والمعارضة العمالية، بل وحتى التروتسكويين. كما يشير بعضهم كذلك إلى الصلات التى كانت قائمة مع المسلمين المهاجرين إلى تركيا وألمانيا، بل وحتى مع أجهزة الأمن الوطنى البولونية والانجليزية والألمانية واليابانية. فقد ورد فى أحد الأعمال المغفلة من التوقيع "Desiatiletic Sovetskogo Tatar-stana" (قازان، ١٩٣٠، ص٥٠):

«كانت لأنصار سلطان غاليف اتصالات بالمارشال بيلسودسكى بواسطة حزب ملى فرقة، كما كانوا يتبعون أركان الحرب الانجليزية الكبرى من خلال البسماتشيين والمهاجر الأبيض إسحاقى من برلين. وعلى ذلك، فإن تنظيم الحركة الغاليفية لم يكن إلا تعبيراً عن وحدة الجيش الامبريالى الأعظم المناهض للسوفيات، حيث كان مقر قيادة أركان حربه فى لندن.»

إلا أننا لا نزال نجهل الكثير عن نشاط تنظيم الحركة الغاليبفية. وغاية ما نعرفه هو أنه قام بشن دعاية مكثفة مناهضة للروس «بهدف إحداث انشقاق بين الجمهوريات الوطنية وموسكو». إذ عمد أنصار الحركة الغاليفية لبعض الوقت إلى نشر صحيفة سرية، يتم طبعها فى إحدى القرى الواقعة فى ضواحى طشقند وتوزّع على نطاق واسع فى جميع الجمهوريات الإسلامية، بل وحتى فى موسكو. كما لجأوا كذلك إلى ترويج مؤلفات «تخريبية» فى صورة منشورات، ونداءات وبيانات. ويستشهد الكاتب السوفياتى ك.قاسموف، على سبيل المثال، بأحد المنشورات التى قام أنصار الحركة الغاليفية فى تترستان بتوزيعها فى ربيع عام ١٩٢٩ بين طلبة المدارس العليا فى قازان، بهدف حثهم على الانفصال عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية:

«إن الشعب البلجيكى ضئيل العدد، والذى لا يتجاوز تعداد السكان فيه مليوناً ونصف نسمة، له دولته المستقلة الخاصة. كما أن البولونيين، والليتوانيين، والإستونيين، والفنلنديين، الذين كانوا منذ أحد عشر عاماً مضت خاضعين لنير الروس، قد أصبحوا سادة بلادهم فى الوقت الحالى، بل إنهم أرسوا دعائم نظم يمكن أن تكون نماذج تُحتذى فى العالم قاطبة. فلتأخذوهم مثلاً لكم. إن فى الاتحاد قوتنا. فلا تنخدعوا بتلك الكلمات المعسولة «البروليتاريا» أو «الصراع الطبقى». فهى لا تخدم سوى مصالح البلاشفة الروس وحدهم.»

وقد أولى سلطان غاليبف أهمية فائقة للجيش، على غرار البلاشفة الروس الذين حاكى تنظيمهم. إلا أنه ذهب إلى أبعد من ذلك عندما جعل من الوحدات العسكرية الإسلامية، التى كانت تخضع لقيادة ضباط مسلمين، طليعة تنظيمه السرى ورأس حربته بدلاً من البروليتاريا. وكان يسعى، كما فعل الصينيون فى وقت لاحق، إلى جعل الجيش مدرسة لتأهيل الكوادر الوطنية سياسيا حتى تحل محل النقابات العمالية التى لم يكن لها وجود. إذ تشير التقديرات إلى أنه فى نهاية الحرب الأهلية، كان عدد الجنود المسلمين تحت قيادة ضباط مسلمين فى الجيش الأحمر يتراوح بين ٢٢٥٠٠٠ و ٢٧٠٠٠٠ جندى. وكان هؤلاء من المحاربين القدامى الذين اكتسبوا صلابة من جراء أربعة أعوام من المعارك التى تكاد لا تنقطع، حيث كان سلطان غاليبف ورفاقه يعولون عليهم كأساس لأية ثورة مسلحة محتملة. ويورد لنا قاسموف فى هذا الصدد نص أحد استقصاءات الرأى التى أجراها أنصار الحركة الغاليبفية بين سكان المناطق الريفية فى تترستان حيث برزت، إلى جانب غيرها، أسئلة تُعتبر موضع اهتمام مباشر للتنظيم شبه العسكرى.

«هل يوجد فى قريتكم جنود مسرّحون اشتركوا فى الحرب الكبرى والحرب الأهلية؟ وكم يبلغ عدد من خدموا فى الجيش الأحمر؟ وهل من بينهم صف ضباط وضباط؟ وما هى الحالة المعنوية للسكان؟ هل هم راضون عن النظام؟ وما مدى النفوذ الذى يتمتع به الدعاة والمعلمون؟»

غير أننا لا نعلم عن التنظيم السرى الذى أنشأه سلطان غاليبف إلا معلومات سطحية للغاية ونادرة من خلال ما يقدمه لنا أعداؤه. فقد ظل هذا التنظيم سرياً، على ما يبدو، بعيداً عن التحريات التى كانت تجريها إدارة الجى بى يو حتى عام ١٩٢٩، أى بعد الاعتقال الثانى لسلطان غاليبف. ولم يكن السبب وراء سقوطه نهائياً هو الكشف عما كان يحيكه من «مؤامرات»، وإنما بالأحرى النشاط العلنى الذى كان يمارسه رفاقه ممن شكلوا الجناح اليمينى للحزب الشيوعى فى تترستان عام ١٩٢٨، وهو العام الذى شهد بدء الحملات الجماعية واستحداث «الصراع الطبقى» داخل المجتمع التترى. وقد اقتصر نشاط «اليمينيين» التتر حتى عام ١٩٢٨ على انتهاج الطريق المرسوم قبل عام ١٩٢٣. وتمثل ذلك فى معارضتهم للصراع الطبقى واستحداث الأبجدية اللاتينية، والتصدى، فى جميع المناسبات، للدفاع عن مبدأ «إضفاء الطابع التترى» على الجهاز الحكومى، وأخيراً النضال من أجل رد الاعتبار إلى

سلطان غالييف، ذلك الموجّه الذى كانوا يعتبرونه «زعيم البروليتاريا التترية».

وفى مارس ١٩٢٤، خلال المؤتمر الإقليمى الاستثنائى الثامن الذى عقده تنظيم تترستان المنبثق عن الحزب الشيوعى (ب)، تعين عليهم تفويض القيادة لحزب اليسار، الذى كان يرأسه سعيد غالييف، وهو ستالينى، وكان يضم نسبة أكبر من الروس. وقد شكل اليمين، الذى يحظى بتأييد الرأى العام، حزباً قوياً بحيث أمكنه، فى أبريل عام ١٩٢٤، تقديم التماس إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى (ب) الروسى موقع من ٣٩ قائداً، يطالب برد اعتبار سلطان غالييف، مع تحذير قادة الكرملين من انتهاج سياسة تتمثل نتائجها الحتمية فى «حل الحزب الشيوعى فى تترستان، وعودة التزمت الوطنى بين الشيوعيين الروس والأهالى، وأخيراً فقد الثقة نهائياً فى السياسة الوطنية للحزب الشيوعى من وجهة نظر القوميات المقهورة».

وفى مايو ١٩٢٤، اندلع الصراع من جديد بين «اليمينيين» و «اليساريين» خلال المؤتمر الإقليمى التاسع للتنظيم التترى المنبثق عن الحزب الشيوعى (ب). وكانت هذه هى المرة الأولى التى تعرض فيها «اليمينيون» للهجوم المباشر من قبل الشيوعيين الروس الذين أعلنوا أن خطر «التطرف الوطنى الروسى الأعظم»، وهو الحجة الأثيرة لدى أنصار سلطان غالييف، لم يكن سوى «أسطورة ملفقة تماماً اخترعها القوميون البورجوازيون المحليون لتغطية أعمالهم التخريبية». وكما ورد فى تصريح أدلى به موروزوف، أحد المندوبين الروس، فإن «الاتجاهات الوطنية المتطرفة من صنع «اليمينيين» التتر؛ ومن ثم فإنه ليس لها وجود بين الشيوعيين الروس.» كما أكد كوربوت، وهو من القادة الروس للحزب الشيوعى فى تترستان، أن المشاكل الهامشية التى لا تهم سوى الجالية التترية لا ينبغى أن تصبح عقبة فى طريق المسيرة الاشتراكية. «إنه لمن الأجدر ألا نخلط بين أهداف الثورة العالمية والتطلعات الوطنية للتتر. ورغم أننى لا أنكر أهمية استنفار القوميات المقهورة، إلا أنه علينا ألا ننسى أن مستقبل الثورة إنما يتوقف على الغرب والغرب وحده.» وتكررت الأزمة ذاتها فى العام التالى، عام ١٩٢٥، فى التنظيم التترى داخل تنظيم الشبيبة الشيوعية، وإن اتخذت شكلاً أعنف وأكثر خطورة، إذ انقسم الشبان الشيوعيون لا إلى «يمينيين» و «يساريين» على نحو ما كان عليه الحال من قبل، وإنما إلى تتر وروس.

ويعترف المؤرخون السوفيات فى الوقت الحالى بأن السياسة التى انتهجها «اليساريون» التتر فيما بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٨، قد افتقرت إلى الحكمة وكانت نذيراً بالشؤم، فضلاً عن

تشجيعها بصورة غير مباشرة لظهور موجة جديدة وعنيفة من النزعة القومية الإسلامية داخل الحزب الشيوعى التترى وتنظيم الشبيبة الشيوعية التترى كذلك. وبعد أبريل ١٩٢٦، انضم الشيوعيون التتر الذين كانوا ينقسمون فيما مضى إلى شقين متنافسين، يسار ويمين، فى جبهة قومية واحدة، ضد رفاقهم الروس. وفيما بين عامى ١٩٢٦-١٩٢٧، أعيد أنصار سلطان غالييف الرئيسيون من التتر، م.بوروندوكوف، مفوض الشعب لشؤون التعليم الوطنى، وف. إسحقوف، الرئيس المساعد للجوسبلان Gosplan، وعالموف، و أ. مقصودوف، وغيرهم، ممن جرى إبعادهم عن السلطة عام ١٩٢٤، إلى مناصبهم فى مكتب التنظيم الإقليمى للحزب الشيوعى (ب). وعلى ذلك فقد ووجه الروس منذ ذلك الحين بتكتل تترى صلب وموحد، أعرب عن معارضته بقوة وفى مناسبات عديدة، وهى معارضة قومية على نحو نموذجى، داخل خط الحزب، لا سيما فى المؤتمر المخصص لتنمية الثقافة الوطنية فى تترستان والذى انعقد فى ربيع عام ١٩٢٧. ولم يلبث عشرة من مفوضى الشعب أن أعلنوا حالة الإضراب – وهو حدث فريد فى تاريخ الحزب الشيوعى – ، تعبيراً عن الاحتجاج، حيث تخلوا عن مناصبهم وتوجهوا إلى موسكو لتقديم شكوى إلى اللجنة المركزية ضد الشيوعيين الروس فى تترستان، متهمين إياهم بانتهاج «سياسة وطنية متطرفة وامبريالية، ضد المصالح الوطنية لتترستان». ولا ريب أن هذا الإجراء الذى أعقب تجمع القادة الشيوعيين التتر فى جبهة قومية ترتبط مباشرة بالمركز التابع لأنصار سلطان غالييف فى موسكو، كان السبب الرئيسى فى اعتقال سلطان غالييف للمرة الثانية فى نوفمبر عام ١٩٢٨.

الفصل السابع
اعتقال سلطان غالييف للمرة الثانية
وتصفية «الحركة الغالييفية»

الفصل السابع
اعتقال سلطان غالييف للمرة الثانية
وتصفية «الحركة الغالييفية»

فى نوفمبر عام ١٩٢٨، تم إلقاء القبض على سلطان غالييف حيث قُدم إلى المحاكمة عام ١٩٢٩. إلا أنه لم يحق له فى هذه المرة التمتع بأى اعتبار، حيث وُجهت له تهمة الخيانة ومعاداة الثورة والعمالة للامبريالية. غير أنه أفلت من عقوبة الإعدام. وبعد الحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة عشرة أعوام، تم ترحيله إلى المعسكر الخاص بدير آل سولوفكى على البحر الأبيض. وعند هذه النقطة فقدنا كل أثر له. إذ تختلف الدلائل فيما يتعلق بمصيره. وتشير إحدى الروايات المحتملة إلى أن سلطان غالييف قد أُطلق سراحه عام ١٩٣٩ بعد تمضيته لفترة العقوبة، مع حظر إقامته فى قازان وموسكو وغيرها من عواصم الجمهوريات داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، ومنعه من ممارسة عمله الصحفى. كما حُددت إقامته فى كويبيشيف، على نهر الفولجا. ووفقاً لرواية أخرى، محتملة كذلك، فإنه تم إلقاء القبض عليه للمرة الثالثة عام ١٩٤١ أو ١٩٤٢، حيث جرى إعدامه داخل السجن بعد ذلك مباشرة.

وقد جاءت إدانة سلطان غالييف لتصنع نهاية مأساوية لفترة عشرة أعوام من التعايش بين الحزب الشيوعى وجناح المسلمين الذين اعتقدوا أنهم وجدوا فى الشيوعية وسيلة لإرضاء تطلعاتهم الثورية والوطنية.

وقد أفاض المؤرخون فى وصف الأسباب غير المباشرة والمباشرة وراء فشل سلطان غالييف، إلا أنه من المتعذر الجزم، بل ولا حتى القول على قدر علمنا، بأن عجز سلطان غالييف عن إحراز النجاح المطلوب إنما يُعزى إلى محاولته الجمع بين متناقضين يتعذر التوفيق بينهما، النزعة القومية التركية الجامعة من جانب، والماركسية على الطراز الروسى من جانب آخر. إذ استعصى على فهمه فى ذلك الوقت، أى عام ١٩٢٨، أن الشيوعية وقد أصبحت روسية كانت فى الواقع شيوعية إحدى القوى الامبريالية الكبرى، مثقلة بتراث ممتد عبر خمسة قرون من العداء للإسلام، كما عجز عن إدراك أنه لا يمكن لعشرة أعوام من الدولانية البروليتارية المجردة أن تمحو الماضى المتراكم عبر الأجيال من الأحقاد العرقية والدينية.

هذا ويُعتبر الاعتقال الثانى لسلطان غاليف نقطة تحول رئيسية فى تاريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والأممية الشيوعية. فقد حقق ستالين انتصاراً حاسماً على منافسيه، ونجح مذهبه المتمثل فى «الاشتراكية فى بلد واحد» فى إقامة تعايش مطرد بين روسيا السوفياتية، الامبراطورية التى خلفت امبراطورية القياصرة و «موطن الاشتراكية». كما لم تعد الأممية الشيوعية مؤسسة مستقلة. بل أصبحت فى حقيقة الأمر مجرد فرع من فروع مفوضية الشعب للشؤون الخارجية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وأداة خاضعة للحزب الشيوعى الروسى. وواجهت الاستراتيجية السوفياتية فى أنحاء آسيا هزائم متتالية ألقى ستالين مسؤوليتها على عاتق قادة الأممية الشيوعية. أما فى تركيا وإيران، فقد اتجهت الحكومتان القوميتان بزعامة كمال أتاتورك ورضا شاه، والتى سعت موسكو إلى إقامة علاقات حسن جوار معهما، إلى التقرب للغرب الرأسمالى وانتهاج موقف عدائى سافر تجاه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية من خلال تعقب الشيوعيين. إلا أن الأحزاب الشيوعية فى تركيا وإيران جرى استبعادها من الساحة السياسية قرابة عام ١٩٢٨ . وفى الوقت ذاته، انهار الحزب الشيوعى المصرى، أقدم أحزاب العالم العربى وأفضلها من الناحية التنظيمية، على يد حزب الوفد القومى. وسبق انهيار النفوذ الروسى والشيوعى فى الشرق الأوسط كارثة أعظم فى الصين. فقد انتهت المحاولتان اللتان قام بهما الحزب الشيوعى الصينى عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ للاستيلاء على السلطة فى شنغهاى وكانتون بفشل دموى ذريع.

«وقد اعترف ستالين فى المؤتمر السادس الذى عقدته الأممية الشيوعية فى موسكو عام ١٩٢٨ بالدروس المأساوية المستفادة من تركيا وإيران ومصر والصين. كما شهدت آسيا نهاية الاستراتيجية التى وضعتها الأممية الشيوعية لمساندة الحركات «القومية البورجوازية» التقدمية الديمقراطية، بزعامة كمال، ورضا شاه، والوفد، والكومنتانج، على أمل استغلالهم كحلفاء ضد العدو المشترك - الامبريالية البريطانية أو الفرنسية - بما اقتضاه ذلك ضمناً من تعاون تكتيكى بين الشيوعيين المحليين والحركات القومية. وحلت محلها استراتيجية معارضة تماماً لما عُرف باسم «المواجهة الطبقية» وتقضى بأن تقوم البروليتاريا وطبقة الفلاحين بمهاجمة البورجوازية، التقدمية منها أو الرجعية على حد سواء. وعلى ذلك، فإن الأحزاب الشيوعية فى العالم الإسلامى، التى أوهن القمع قواها بشدة، أو بالأحرى البقية الباقية من هذه الأحزاب، كانت مطالبة بالدخول فى معركة متزامنة على جبهتين، إحداهما فى مواجهة الامبريالية،

والأخرى على الصعيد الداخلى ضد الأعداء الطبقيين، من إقطاعيين، ورجال دين وبورجوازيين.

غير أن مثل هذه الاستراتيجية المغامرة كانت تفتقر إلى الواقعية تماماً. فقد بالغت بصورة خطيرة فى تقدير الإمكانات الثورية لجموع الفلاحين والعمال فى البلدان الإسلامية، فى حين هونت من شأن ديناميكية الحركات القومية - البورجوازية. وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى العزلة التامة للشيوعية فى بلدان آسيا، واختفاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فى العالم الثالث قاطبة. إذ لم يكن لدى السوفيات، فى واقع الأمر، ما يقدمونه إلى البلاد المستعمَرة أو التى كانت مستعمَرة من قبل، فى مجال المساعدات الاقتصادية أو العسكرية، ولا حتى أى نموذج للأيديولوجية السياسية. وعلى ذلك فقد انفصل العديد من قادة الشيوعية الآسيوية الأكثر أهمية عن الأممية الشيوعية، ومن أبرزهم الهندى موبندرا - ناث روى، والإندونيسى تان ملكة.

وبدت فرص قيام ثورة فى الشرق معدومة حتى عام ١٩٤١. إذ لم يعد بالإمكان، على نحو ما كان سلطان غالييف يأمل، استخدام الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز كقاعدة انطلاق للغزو الثورى لآسيا. وبدءاً من عام ١٩٢٨، أسدل ستار حديدى منيع يعزل الشرق الأوسط عن الأقاليم الإسلامية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وانقطعت جميع الصلات التى كانت تربط بين المسلمين السوفيات وإخوتهم فى الدين المقيمين فى الخارج. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أصبح الروس أو العملاء الأوروبيون فى الأممية الشيوعية يمثلون وحدهم موطن الاشتراكية فى العالم الإسلامى، باستثناء واحد على قدر علمنا، وهو حكيموف، ذلك التترى من قازان، حيث قاد بعثة سوفياتية فى ذلك الوقت ببلاط الإمام يحيى باليمن. وبدأ حلم سلطان غالييف فى أن يجعل من مواطنيه التتر وسطاء بين الشيوعية والشرق فى الانهيار، بل والتداعى التام.

أما فى داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، فقد شهد هذا العام ذاته، أى عام ١٩٢٨، بداية عصر الخطط الخمسية. فقد أدى توطيد دعائم النظام الاستالينى، إلى جانب تشديد نظام العمل، وضرورة تعويض التخلف الاقتصادى والتقنى الضخم، ونشوب الصراع الطبقى دون هوادة فى المناطق الريفية أو ما يسمى "de'Koulakisation"، والذى أودى بحياة ملايين البشر، وأخيراً البرنامج الذى بدأ منذ عام ١٩٣٢ بهدف التصفية الجماعية لجميع المعارضين، كل ذلك قد جعل هذه الخطط تفوق فى أهميتها حتميات السياسة الخاصة

بالقوميات. وفى ظل المناخ الجنونى الذى ساد عام ١٩٣٠ وما بعده، لم يعد لعقائد سلطان غالييف مكان. غير أن أفكاره، التى أصبحت مرادفاً «للرجعية القومية»، ظلت تتمتع بجاذبية قوية بالنسبة للإنتلجنتسيا والشبان الشيوعيين فى تترستان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية، حيث كان نفوذها عميقاً ومتواصلاً. وكان على موسكو، فى مواجهة «التحولات» المختلفة عن «الحركة الغالييفية» بدرجة أو بأخرى، أن تشن حملة طويلة، بدأت فى تترستان وكريميه، وامتدت إلى بشكيريا، وأذربيجان، وكازاخستان، وآسيا الوسطى، حيث صحبتها حملات تطهير جماعية ودموية لسائر الأحزاب الشيوعية الجمهورية.

غير أن تصفية الشيوعيين المسلمين بدأت فى تترستان. فقد أدانت اللجنة العليا الحاكمة للحزب الشيوعى (ب) فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية رفاقه التتر الرئيسيين، بعد زهاء شهر من اعتقال سلطان غالييف، حيث قضت اللجنة الإقليمية للحزب الشيوعى فى تترستان بطردهم واعتقالهم.

والمعلومات المتعلقة بهذه الأزمة، والتى كانت أولى الأزمات التى لحقت بالرجعيين الوطنيين فى أحد الأحزاب الشيوعية، متوفرة لدينا بفضل الوثائق الرسمية العديدة المتاحة عن ذلك العهد. وكان أول ضحايا تلك الأزمة هم الشيوعيون «اليمينيون» كشاف مختاروف، رئيس اللجنة المركزية التنفيذية فى تترستان، وعضو الحزب منذ عام ١٩١٨؛ وقاسم منصورروف، رئيس شعبة الدعاية فى السى سى إى، وعضو الحزب منذ عام ١٩١٧؛ إلى جانب رؤوف صابروف، السكرتير الأول للجنة المنطقة فى الحزب الشيوعى (ب)، وعضو الحزب منذ عام ١٩١٨؛ والكريمى فيرويف، عضو الحزب منذ عام ١٩١٧؛ وإنبابييف، عضو الحزب منذ عام ١٩١٩، بالإضافة إلى تترى آخر من كريميه، وهو دران إيرلى، عضو الحزب الشيوعى منذ عام ١٩١٨. ولم يلبث قادة شيوعيون آخرون من التتر أن انضموا إلى تلك القائمة الأولى وهم: آياز مقصودوف، ووالى إسحاقوف، وجانيف، ومكداد بوروندوكوف، ومحمود بوديلى. وقد وُجهت إليهم تهمة الاشتراك، تحت قيادة سلطان غالييف، فى تأسيس حزب غير مشروع «مضاد للثورة، ومناهض للسوفيات والشيوعية والروس، يتمثل هدفه فى الإطاحة بديكتاتورية البروليتاريا وإقامة نظام بورجوازى ورأسمالى». وأخيراً فقد وُجه إليهم اللوم لارتباطهم بعلاقات مع المناوئين للثورة من أعضاء ملى فرقة، والبسماتشيين فى تركستان، إلى جانب المهاجرين البيض والامبرياليين الإنجليز. ولم يلبث أن تم إعدامهم جميعاً، باستثناء دران إيرلى

على ما يبدو، والذى كان «نصف أمى» طبقاً لقرار الاتهام.

وأعقب إدانة قادة الحزب الشيوعى التترى هجوم منظم ضد الحركة الغالييفية التى كانت لا تزال راسخة، على نحو ما ورد فى القرار الصادر عن لجنة المنطقة فى تترستان بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٢٩:

«إن الانهيار الأيديولوجى والتنظيمى للحركة الغاليفية لا يعنى ضرورة وقف التصدى للنزعة القومية. ومن ثم فإن الجلسة تدعو أعضاء الحزب جميعاً إلى ملاحقة هذه الحركة، وإلى تشديد الكفاح ضد المتعصبين القوميين فى الجموع المتخلفة، وكشف أنصار الحركة الذين لا يزال وجودهم قائماً فى أجهزتنا بأعداد كبيرة.»

ونظراً لتعاظم نفوذ الحركة الغاليفية بين أوساط المثقفين على وجه الخصوص، فإن جهود الحزب اتجهت أولاً إلى الأوساط الجامعية والأدبية التترية. ففى خريف عام ١٩٢٩، تم حل جمعية التترية،(Obshchestvo Tatarovedeniya) أحد المراكز النشطة للنزعة القومية الإسلامية، واستبدالها بالرابطة الدراسية لتترستان-Obshchestvo Izoutcheniya Tatar) (stana، وهى أكثر ميلاً إلى البروليتارية وتخضع لسيطرة الروس. ولم يلبث معظم قادتها أن جرى اعتقالهم وإعدامهم. وفى ربيع عام ١٩٣٠، أتى الدور على معهد الدراسات التربوية الشرقية فى قازان، حيث قام «أنصار الحركة الغاليفية»، مقصودوف وعبد الرشيدوف وصيفى، فى إطاره بإنشاء «مجموعة قومية» ذات هدف ثلاثى، كما ينص قرار الاتهام:

(١) إنشاء تنظيم جامعى يتألف من الشيوعيين التتر وحدهم؛

(٢) حماية الطلبة التتر المنتمين إلى الطبقات المعدمة؛

(٣) إنشاء نواة للمنشآت الدراسية التترية من «أنصار الحركة الغاليفية».

وفى خريف عام ١٩٣٠، قامت السلطات بكشف وتصفية أحد التنظيمات الأخرى «التابعة للحركة الغاليفية»، والتى تأسست عام ١٩٢٧ فى قازان، وهى الشعبة الأدبية السرية المعروفة باسم Djidigan، وكانت لها فروع فى بشكيريا وتضم خيرة الكتاب التتر فى ذلك العصر، ومن بينهم ناجى إسامبات، وفتحى برناش، وس. سنشاليف، وشنيكى، وج.منسكى، وجاد الشا كوتوى، و أ.شاموف، وش.مانور، وفتيح كريمى، وس.كوداش، وغيرهم، حيث أدينوا بوصفهم «ممثلين للحركة الغاليفية فى الأدب التترى» ووُجهت إليهم رسمياً تهمة «انتهاج سياسة بورجوازية تحت ستار السلطة السوفياتية، والتقليل من شأن الحقيقة السوفياتية والحزب

البلشفى، (. . . .) فضلاً عن تمجيد الأصالة الثقافية والروحية للشعب التترى، والدفاع عن مبدأ وحدة جميع الشعوب الإسلامية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية التى كان مقدراً لها، من وجهة نظرهم، إقامة امبراطورية إسلامية كبرى واحدة». وتشير المصادر السوفياتية لعام ١٩٣٠ والأعوام التى تلته إلى أنه قد تم اعتقال العديد من هؤلاء الكُتّاب منذ عام ١٩٣٠ مثل شنيكى وسانشالى. بل إن الشاعر فتحى برناش، أحد الرفاق المتحمسين لسلطان غالييف، والذى وصفته الموسوعة الأدبية Literaturnaya Entsiklopediia السوفياتية الصادرة عام ١٩٢٩ بأنه «شاعر متميز يتمتع بشعبية غير عادية بين التتر»، قد توقف عن الكتابة عام ١٩٣٥، واختفى اسمه من الطبعة الثانية للموسوعة السوفياتية الكبرى (الجزء السادس، ١٩٥١)، والأرجح أنه قد جرى إعدامه. أما الروائى جاد الشا كوتوى، وكان مجرد «رفيق طريق» ممن تم اعتقالهم عام ١٩٣٠، فقد تنكر للنزعة القومية، حيث أُطلق سراحه، بل وانضم كذلك إلى الحزب عام ١٩٤٣، كما ذاع صيت فتيح كريمى مرة أخرى وقت إعلان الحرب، وهو أحد رواد الأدب السوفياتى التترى، حيث كان مغضوباً عليه، بل وربما تم احتجازه بالسجن فيما بين عامى ١٩٣١ و ١٩٤٠.

وفى مايو ١٩٣١، إتجه هجوم السلطات ضد أنصار سلطان غالييف، وكانوا لا يزالون فى تنظيم الحزب الشيوعى فى بشكيريا بأعداد كبيرة، يطالبون بإعادة توحيد جمهوريتهم مع تترستان.

وفى عام ١٩٣٢، تصدى الحزب للهجوم على اثنين آخرين من «أوكار أنصار سلطان غالييف»: اتحاد الكتاب البروليتاريين التتر، حيث جرى حله فى ٢٣ أبريل، والمطبوعات الحكومية فى تترستان(Tatgosizdat)، التى تم تطهيرها من العناصر القومية، ثم، فى نهاية ذلك العام ذاته، مجموعة المنشآت التعليمية فى الجمهورية، إذ تم إبعاد جميع الطلبة ذوى الأصول البورجوازية منها.

وفى عام ١٩٣٣، انتهت الحركة الغالييفية المنظمة من الوجود، وإن ظلت أيديولوجيتها قائمة فى الأوساط العلمية والأدبية فى الجمهورية، لاسيما الشباب. وحتى يمكن استئصالها نهائياً، استمرت حملات تطهير الإنتلجنتسيا التترية والبشكيرية حتى عام ١٩٣٩، دون تفرقة بين أنصار سلطان غالييف وأعدائه القدامى. وهكذا استهدفت تلك الحملات جميع أولئك الذين تصدوا، مباشرة أو بصورة غير مباشرة، للدفاع عن مبدأ الاستقلال السياسى أو الثقافى

للمسلمين، مثل علماء اللغة المعارضين لاستحداث الأبجدية اللاتينية، بدعوى أنه من شأن ذلك أن يشجع على ترويس اللغة التترية، وكذلك الكتّاب الذين كانت أعمالهم تعكس، ولو بصورة مبهمة، الأفكار القومية السابقة للثورة. ومن بين هؤلاء الروائى غالمجان إبراجيموف، أشهر ممثلى الإنتلجنتسيا الإصلاحية التى اعتنقت النظام الجديد وأكثرهم تمسكاً بها.

وأخيراً، فإن حملات التطهير امتدت حتى إلى الاتحاد التترى للمجاهدين الملحدين – «المعقل الأخير للحركة الغالييفية» –، حيث أدين رئيسه، برهان منصورروف، أحد الأصدقاء القدامى لسلطان غالييف، عام ١٩٣٧، وما لبث أن تم إعدامه بتهمة «خلق نواة لتنظيمه من القوميين، والبخاريين، والتروتسكويين، وتحويل مجلة Sugushchan Allahsyz (المجاهد الملحد) إلى «منبر للعناصر المناوئة للسياسة السوفياتية».

وعندما هدأت حدة الحملة الأيديولوجية الموجهة ضد النزعة القومية عشية الحرب، لم تعد هذه النزعة تمثل، فى صورتها الموالية للحركة الغاليفية، قوة معارضة خطيرة. فقد اختفى الجيل السابق على الثورة من المثقفين ذوى الأصول البورجوازية الذين شهدوا، فيما بين عامى ١٩٠٥و١٩١٧، فورة الحركة الإصلاحية، والذين لم يكن اعتناقهم الشيوعية إلا بشروط، تاركين موقعهم للجيل الجديد من المثقفين من أصل عمالى أو ريفى ذوى النشأة السوفياتية، الذين كانت الحركة الإصلاحية بأحدث مظاهرها، أى الحركة الغاليفية، تراثاً من الماضى من وجهة نظرهم.

وقد استمرت حملة التطهير للقوميين المسلمين الذين تسللوا إلى الأحزاب الشيوعية المحلية، وهى الحملة التى بدأت فى تترستان وبشكيريا، فى الجمهوريات الإسلامية داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. وكانت البداية فى كريميه، حيث وُجهت الضربة الأولى إلى حزب ملى فرقة القديم. إذ تم إلقاء القبض على والى إبراهيموف، رئيس مجلس مفوضى الشعب بجمهورية تتر كريميه والزعيم القديم لحزب ملى فرقة، وأدين باعتباره «مناهضاً للثورة وجاسوساً لحساب الامبريالية»، ثم أعدم رمياً بالرصاص فى يناير ١٩٢٨. وقد أثار إعدامه حملة تطهير للإنتلجنتسيا الكريمية استمرت حتى عام ١٩٣٧ وأبيدت خلالها النخبة التترية بأكملها تقريباً، ومن بينهم خيرة كتابها، حسن صبرى آيفازوف وعثمان أكشوكراكلى.

وفى أذربيجان، جاءت أولى حملات التطهير، عام ١٩٢٩–١٩٣٠، لتصيب أنصار خانبوداجوف، وهم من الأعضاء القدامى بحزب الهمة الذين انضموا إلى الحزب وإن ظلوا

قوميين أكثر منهم شيوعيين. وأعقب ذلك موجة ثانية من التصفية الجسدية للشيوعيين - القوميين عام ١٩٣٣، بعد وفاة نارِيمان نارِيمانوف - الزعيم القديم لحزب الهمة، والذى أصبح سكرتيراً أول للحزب الشيوعى ورئيس مجلس مفوضى الشعب فى أذربيجان. وقد حظى نارِيمانوف بميزة نادرة وهى وفاته على فراش المرض، إلا أنه أدين بعد وفاته بتهمة أنه «خائن، وشخص محرض، ورجعى، وقومى بورجوازى». كما هلك معظم رفاقه، وهم من الأعضاء القدامى فى حزب الهمة، فى حملات التطهير التى استمرت حتى عام ١٩٣٨. ونسجل من بين الضحايا بعض الأسماء مثل سلطان مجيد أفنديف، وكان رئيس اللجنة المركزية التنفيذية فى أذربيجان ومفوض الشعب لشؤون الزراعة، ودداش بونيات زاد، رئيس مجلس مفوضى الشعب فى أذربيجان عام ١٩٣٠ ومفوض الشعب لشؤون التعليم الوطنى، وحامد سلطانوف، مفوض الشعب للشؤون الداخلية، وغيرهم كثيرون....

أما فى كازاخستان، حيث هيمن أنصار سلطان غاليف على الساحة السياسية، فقد تفجرت الأزمة عام ١٩٢٨. وتزامن ذلك مع بدء برنامج التحضير الجبرى الصارم للقبائل البدوية بهدف نقلها من حالة الترحل إلى حالة الإقامة، وهو البرنامج الذى راح ضحيته أكثر من مليون كازاخستانى. وقد استمرت الحملة المناهضة للقومية على مدى عشرة أعوام، حيث هاجمت بنفس الشراسة القادة القدامى لحزب آلاش أوردا - مثل على خان بوكيخانوف، ومير يعقوب دولاتوف، وأحمد باى طورسون، وكانت أفكارهم قريبة من آراء الرفاق التتر لسلطان غاليف - والقادة الشيوعيين الذين كانوا أعداءً لحزب آلاش أوردا - مثل تورار ريسكولوف، أو إسماعيل صادفوكاسوف، أو منديشيف، أو سيف اللين -، وأخيراً جميع أولئك الذين تصدوا، باسم حق الشعب الكازاخستانى فى البقاء، لمعارضة الإبادة الجماعية للبدو. إلا أنهم اختفوا جميعاً خلال حملات التطهير الدموية.

وفى تركستان فى نهاية الأمر، بدأ تدمير النخبة الأهلية القديمة فى وقت متأخر نسبياً بالقياس للأقاليم الإسلامية الأخرى، وربما بسبب استمرار حركة البسماتشيين فى المقاومة داخل بلاد تركمانستان وفى أوزبكستان الجنوبية حتى منتصف عام ١٩٣٠ وما بعده. وقد استهدفت حملة الإبادة، وقت انطلاقها، المثقفين الإصلاحيين الذين ظلوا على ولائهم للمثل الخاصة بالجامعة التركية، وكان لسان حالهم الكتّاب منيفر قارى، وعبد الرؤوف فطرة، وشولبان؛ و و«الشبيبة البخارية» القديمة و «الشبيبة الكيفية»، الذين انضموا إلى النظام السوفياتى على

مضض فى كثير من الأحيان؛ كما أصابت الحملة على السواء القادة المحنكين للأحزاب الشيوعية الجمهورية فى آسيا الوسطى، ومن بينهم فيظ الله خوجاييف، رئيس مجلس مفوضى الشعب، وأكمل إكراموف، السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى أوزبكستان، الذين حُكم عليهم بالإعدام وتم تنفيذ الحكم بالدعوى المقامة فى موسكو عام ١٩٣٨.

وهكذا لم يعد ثمة وجود، عشية الحرب العالمية الثانية، للحركة القومية الإسلامية كتنظيم داخل الحزب الشيوعى الروسى، وهى الحركة التى كان مذهب سلطان غالييف هو مثالها ونموذجها المُحتذىَ.

الفصل الثامن

النبى

الفصل الثامن
النبى

ماذا بقى لنا حالياً من حلم سلطان غالييف فى تكييف الماركسية وفقاً للظروف الخاصة بالعالم الإسلامى؟ هو سؤال صعب ولا شك، إلا أنه علينا أن نحاول الإجابة عليه، طالما أنه ربما أصبح بالإمكان أخيراً، بالرجوع إلى الوراء لأكثر من نصف قرن، التكهن بحقيقة سلطان غالييف: أهو نبى لم يُعرف قدره، أم مبشر وجدت نظرياته برهانها أخيراً بظهور العالم الثالث، أم هو ساحر بما سببه من أحداث عجز عن إيقافها، أم هو حالم رومانسى يفتقر إلى الواقعية، أم مجرد مثير للشغب مثل كثيرين ممن عايشوا أعوام الثورة والحرب الأهلية؟ الأجدر بنا بدايةً أن نشير إلى حقيقة هامة. إن سلطان غالييف، على عكس معظم الضحايا المسلمين الآخرين لستالين، لم يتم رد اعتباره إليه حتى يومنا هذا، وربما لن يتحقق ذلك فى المستقبل المنظور. بل إن مؤلفاته هو ورفاقه يتعذر الحصول عليها حتى بالنسبة للباحثين السوفيات أنفسهم. كما لا يمكن الرجوع إلى مجموعات مجلة Fizn Natsional' nostey ، حيث توجد معظم مقالاته، فى مكتبات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وينطبق نفس الشىء على الأعمال والدوريات التترية التى تتناول أعوام الثورة والحرب الأهلية. إذ كانت هذه الأعمال مكتوبة بالحروف العربية، ومن ثم فقد تعذرت قراءتها إلا لقلة نادرة من الباحثين. أما فيما يتعلق بالأعمال التى أعيد طبعها مؤخراً من مؤلفات رفاق سلطان غالييف الذين استردوا اعتبارهم، مثل تيرار ريسكولوف أو فيظ الله خوجاييف، فقد تمت تنقيتها تماماً من أية إشارة إلى نظريات سلطان غالييف. وعلى ذلك فإن أى مثقف مسلم شاب فى عصرنا الحالى قد يجد صعوبة فى إعادة اكتشاف سلطان غالييف، تفوق ما يمكن أن يواجهه أى منشق روسى يحاول التعرف عن كثب على برديف أو تروتسكى. إلا أن الأدب السياسى السوفياتى المعاصر لا يغفل سلطان غالييف تماماً. بل إنه يحتل موقعاً متميزاً فيه بين الأشرار، أو «الشياطين»، وإن كانت صورته ذات طابع أسطورى أكثر منه واقعى. فقد أصبح نوعاً من التروتسكويين المسلمين، رمزاً للعدو الذى لا يمكن إسقاطه، أو «القومى البورجوازى» المؤيد للرأسمالية الكبرى ولرجال الدين الرجعيين التتر والذى نجح، بأية حيلة لا ندرى، فى التسلل إلى الحزب الشيوعى الروسى بل والاضطلاع بدور معين فيه، مشؤوم بلا شك، قبل كشفه وإنزال أقصى العقوبات عليه. كان

نصير البسماتشيين وعميلاً للامبريالية الأجنبية، إذا ما سلمنا بصدق الكتابات السياسية التى قدمتها إدارة التحريض والدعاية Agitprop. وفضلاً عن ذلك، فإنه يخلع قناعاً ليضع آخر مكانه: فقد كان ألمانياً ويابانياً قبل الحرب، ثم أصبح انجليزياً وتركياً فيما بين عامى ١٩٤٥ و١٩٧٠، وهو اليوم أمريكى، ومن المنتظر أن يتحول إلى صينى...

ويمكننا أن نطرح السؤال: «لم كل هذا التعصب ضد أحد مؤسسى النظريات رغم وفاته منذ نصف قرن؟» ألا نرى فى ذلك مؤشراً على أن أفكاره لم تدخل تماماً فى طى النسيان، وأنها لا تزال على قيد الحياة بعد موت صاحبها، كما يحدث كثيراً فى حالة المبشرين السابقين على عصرهم؟

غير أن الأوضاع السياسية والإدارية والثقافية للأقاليم الإسلامية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تختلف اختلافاً كبيراً فى الوقت الحالى عما كانت عليه عام ١٩٢٠ والأعوام التى تلته. فعلى الصعيد الإدارى، لم يتحقق أى من الأهداف التى سعى إليها سلطان غالييف. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدا مشروع إقامة جمهورية إسلامية تترية بشكيرية على الفولجا الوسطى، وبالأحرى إنشاء دولة تورانية مستقلة تضفى على تتر الفولجا مكانة متميزة فى العالم الاشتراكى، حلماً بعيد المنال، لا بسبب المعارضة الرسمية للحزب فحسب، بل وكذلك نتيجة لتطور الشعوب الإسلامية ذاته الذى أخذ شكل التميز.

وهكذا انهار حلم سلطان غالييف فى الوحدة السياسية التركية والإسلامية، وأصبحت الشعوب الإسلامية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تنقسم حالياً إلى بضعة عشرات من الجمهوريات، اتحادية أو مستقلة، ومن الأقاليم المستقلة. كما صارت الوحدة التركية الجامعة حول لغة أدبية، كاللغة التترية فى قازان أو الشاجاتية، والتى كان من الصعوبة بمكان تحقيقها إبان الثورة، وهماً من نسج الخيال اليوم أكثر من أى وقت مضى. إلا أن التقدم الذى تحقق منذ الثورة أسفر عن نهضة ثقافية سريعة لشعوب لم تكن تملك، قبل عام ١٩١٧، سوى مجموعة ضئيلة من المثقفين ذوى النشأة التقليدية. وأصبحت للشعوب الإسلامية جميعها فى الوقت الراهن، لا سيما التركستانيين والقوقازيين، كوادرها العلمية الجامعية، والإدارية، والسياسية الخاصة. وقامت هذه الكوادر بسد فجوة التخلف التى كانت تفصلهم عن التتر، ومن ثم لم تعد بهم بحاجة، مثل أسلافهم فى مستهل هذا القرن، إلى الاستعانة بخدمات المثقفين فى قازان. وهكذا فقد التتر فى الفولجا مكانتهم المتميزة بوصفهم Kulturträger مكلفين بنقل

الثقافة والمدنية الحديثة إلى أشقائهم وإخوتهم فى الدين الذين أصابوا حظاً أقل من التطور. إذ لم يعد بوسع التتر، بعد أن ظلوا على مدى أعوام مصدراً يستلهم منه المسلمون روح المقاومة للمركزية الروسية، أن يزعموا بحقهم فى الزعامة الأيديولوجية، ولا السياسية بالأحرى، للجاليات الإسلامية والتركية فى الاتحاد السوفياتى. وأصبحوا لا يشكلون سوى أمة إسلامية، هامة ولا ريب وإن كانت أكثر قابلية للهجوم، وأشد عرضة للتهديد بخطر الترويس من غيرها. بل إن التشتت، الذى كان مصدراً لقوة التتر فيما مضى، قد تحول إلى عامل من عوامل الضعف فى الوقت الراهن.

وأصبح التعبير عن الاستقلال السياسى منذ ذلك الحين فصاعداً يتم فى إطار النظام الفيدرالى السوفياتى، أما الاستقلال الثقافى - أحد الأسس الأخرى للحركة الغالييفية - فقد عرّفته النظرية الاستالينية بأنه الثقافة «الوطنية شكلاً، وإن كانت بروليتارية واشتراكية من حيث المضمون»، وهو الكفيل وحده، من وجهة نظر السلطات، بتحقيق التطلعات الوطنية للشعوب المختلفة دون مساس بترابط العالم السوفياتى. فهل تشعر الإنتلجنتسيا الأهلية الجديدة بالرضا عن ذلك الكادر؟ من الصعوبة بمكان إصدار حكم عام على مسلك المنتمين إليه. إذ يمكن الاعتقاد بأن بعضهم فخور بالنجاح الذى حققه النظام، ويشعر بالعرفان تجاه الحزب على إتاحته الفرصة لهم، وإن كان ذلك قد تم بأساليب قسرية، لاجتياز الفاصل بين مجتمع تقليدى الطراز شبه إقطاعى ومجتمع حديث على مدى جيل واحد. إلا أن البعض الآخر، وهم الأغلبية على الأرجح، قد أظهروا تشبعاً بالشعور الوطنى مثل أسلافهم خلال الأعوام الأولى للثورة، وهو الشعور الذى اتخذ شكل معارضة لخط الحزب دون إغفال لبعض الأفكار التى اعتنقها سلطان غالييف فيما مضى. ومما سهل من هذه المعارضة ظاهرة لم يتنبأ بها سلطان غالييف ورفاقه، وهى التحول الذى طرأ على الاتجاهات الديموغرافية فى الاتحاد السوفياتى.

ففى عام ١٩٢٦، كان المسلمون، البالغ عددهم ١٧ مليون نسمة، يمثلون ٥ر١١٪ من مجموع السكان فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، حيث كانوا يتزايدون، حتى نشوب الحرب، بمعدل أبطأ من الروس (بلغ ٤١٪ فى مقابل ٤٧٪ فيما بين عامى ١٩٢٦ و١٩٣٩). وعلى ذلك، فإن خطر هيمنة الروس على المسلمين كان خطراً حقيقياً. إلا أن الوضع تغير تغيراً ملحوظاً غداة الحرب. فقد كشف التعداد السوفياتى للسكان الذى تم إجراؤه عام ١٩٥٩ عن أنه، فى حين شهدت المجموعات السلافية الثلاث - الروسية، والأوكرانية،

والبيلوروسية – وهى المجموعات التى تحملت كل أعباء الحرب وعانت خسائر جسيمة، انخفاضاً كبيراً فى معدلات الخصوبة لديها، فإن نفس المعدل قد تفجر لدى المسلمين الذين كانوا يتمتعون بحماية نسبية. إذ أصبحوا يمثلون، عام ١٩٧٠، نسبة قدرها ١٤٫٥٪ من إجمالى السكان، حيث بلغ عددهم ٣٥ مليون نسمة، وارتفعت هذه النسبة إلى ١٦٫٨٪ عام ١٩٧٩، بتعداد قدره ٤٤ مليون نسمة. وفى عام ١٩٨٥، تجاوز عددهم ٥٠ مليون نسمة على الأرجح، أى بنسبة تتعدى ١٨٪ من المجموع الإجمالى للسكان فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. بل إن بعض الديموغرافيين السوفيات يتوقعون أن يتجاوز عدد المسلمين ٨٠ مليون نسمة، أى ربع عدد السكان فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بحلول عام ٢٠٠٠. وإذا ما تحققت هذه التوقعات، فإنه من بين كل أربعة مواطنين سوفيات سوف يكون هناك واحد مسلم، وآخر تركى من بين كل خمسة. إلا أن الديموغرافيين الأمريكيين، لا سيما أفضلهم وهو موراى فشباك، ينتهجون نهجاً أكثر اعتدالاً وعقلانية من وجهة نظرنا على ما يبدو. فهم يقدرون عدد المسلمين عام ٢٠٠٠ بما يتراوح بين ٦٣ إلى ٧٠ مليون نسمة، أى بمعدل مواطن واحد من بين كل خمسة.

هذا ويحتل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فى الوقت الراهن المرتبة الخامسة بين القوى الإسلامية فى العالم بعد إندونيسيا، والهند، وباكستان، وبنجلاديش. كما أن عدد المسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية يتجاوز نفس العدد فى مصر أو فى إيران، بل إنه يضم من الأتراك ما يفوق مثيله فى تركيا ذاتها. وليس ثمة شك فى أن التزايد المطرد فى عدد السكان المسلمين، مضافاً إلى الانخفاض الحاد فى معدل الخصوبة لدى السكان السلافيين، يمثل أخطر المشاكل التى ستواجه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية على مدى العشرين عاماً المقبلة. إذ يدرك جميع المختصين فى مجال الاقتصاد السوفياتى أن الأقاليم الروسية والأوكرانية سوف تشهد فى المستقبل القريب نقصاً فى اليد العاملة الصناعية، فى حين أنه سيكون لدى آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية فائض فى الأيدى العاملة الريفية التى تحجم عن الهجرة، فى الوقت الحالى على الأقل. ومن ثم، فإن المجادلات التى تبحث فى أفضل السبل لحل هذه المشكلة تجرى على قدم وساق فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. ما هو الحل إذن؟ هل ننقل الفائض من اليد العاملة فى آسيا الوسطى إلى المناطق الصناعية الجديدة فى غرب سيبيريا وروسيا؟ أم نحوّل العمالة الإسلامية الريفية

من كولكوز وسوفكوز بالكامل إلى الأقاليم الريفية الروسية، بهدف إعفاء الكولكوزيين الروس من هذه الأعمال وتحويلهم إلى عمال صناعيين؟ إن هذه التجربة موضع اختبار فى الوقت الحالى، وإن كان ذلك على نطاق ضيق. أم هل يتعين علينا نقل الصناعة إلى اليد العاملة، من روسيا إلى آسيا الوسطى؟ كلها حلول تنطوى على مخاطر محققة. فالنقل الجماعى للسكان، على نحو ما أمكن تحقيقه فى عهد ستالين، لم يعد ممكناً فى وقتنا الحالى، بل إنه يهدد بإثارة المقاومة بصورة غير مأمونة العواقب. أما تحويل آسيا الوسطى، ذلك الإقليم الذى يتحرك سريعاً فى اتجاه «المحلية»، إلى منطقة صناعية كبرى على حدود الصين، إنما يعنى إعطاء دفعة جديدة للاتجاهات الطاردة المركزية الكامنة للصفوة المحلية، وهى الاتجاهات المستلهمة من أفكار سلطان غالييف بدرجة أو بأخرى.

وأياً كان الأمر، فإن خطر هينمة الروس «بيولوجياً» على المسلمين يبدو مستبعداً بصورة قاطعة. ومن جهة أخرى، فإننا نشهد، منذ عام ١٩٧٠، ظاهرة جديدة فى الجمهوريات الإسلامية يمكن أن نطلق عليها «إضفاء الطابع القومى» على الحزام الجنوبى للاتحاد السوفياتى بأكمله. فقد توقفت هجرة الروس وغيرهم من «الأوروبيين» إلى آسيا الوسطى والقوقاز فى الوقت الحالى؛ بل إننا بدأنا نشهد فى بعض الأقاليم، لا سيما فى القوقاز، نزوح الروس لأسباب سياسية مثل كره أهل البلاد، أكثر منها اقتصادية. وفى المقابل، فإننا نرى تزايداً مطرداً فى هجرة الأتراك المسلمين من الفولجا الوسطى إلى آسيا الوسطى. ففى عام ١٩٧٩، كان هناك أكثر من مليون تترى، أى ما يعادل سدس عدد السكان التتر، يعيشون فى آسيا الوسطى، إلى جانب ما يزيد عن ١٠٠٠٠٠ بشكيرى. وسرعان ما أصبحت جميع الأقاليم الجنوبية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية المتاخمة لتركيا وإيران وأفغانستان يسكنها عدد أكبر من السكان الأصليين ومن المسلمين. بل إنه من المقدر، بحلول نهاية هذا القرن، أن يبلغ عدد السكان فى آسيا الوسطى ما يتراوح بين ٦٠ إلى ٦٥ مليون نسمة فى مقابل ٤٠ مليون نسمة حالياً، حيث يُقدر أن يتجاوز عدد المسلمين فيهم ٥٠ مليون نسمة.

وعلى صعيد آخر، فإن وضع المسلمين فى مواجهة الروس يُعد أقوى كثيراً مما كان عليه فى عهد سلطان غالييف. فرغم ضخامة جهاز الدعاية الموجهة ضدهم، إلا أن هيمنة الروس عليهم لغوياً أو ثقافياً أو من الناحية المادية، أو حتى خلق تجانس سوفياتى homo sovieticus ، ذلك المفهوم الخيالى إلى حد كبير، كل ذلك لم يتجاوز حد الكلام ولم يحقق أدنى نتيجة ملموسة.

فقد ظل الروسى روسياً، ولا يزال المسلم، كما كان قبل الثورة، تركياً ومسلماً.

هذا ولم يعد المسلمون فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فى موقف دفاعى حالياً كما كانوا فى عهد سلطان غاليف. إذ لم تعد مشكلتهم الرئيسية هى السعى إلى البقاء، بل انتزاع أقصى قدر من التنازلات من سادتهم الروس بأفضل الشروط، والانضمام إلى صفوف المسلمين بهدف تكوين جبهة صلبة فى مواجهة الروس. ومن المؤكد أنه ثمة عملية للتقارب (Sblijenie) بل وحتى الاندماج المادى(Sliyanie) تجرى بين شعوب آسيا الوسطى أو القوقاز، إلا أن هذه العملية لا تعنى سوى المسلمين ولا تخص الروس فى شىء. وليس ثمة شك فى أن المثقفين المسلمين المعاصرين يناضلون خطوة خطوة، كما فعل سلطان غاليف، من أجل المشاركة بنصيب أكبر فى السلطة السياسية والاقتصادية، ورد الاعتبار إلى ثقافتهم الوطنية التقليدية على نحو متكامل، إلا أن كفاحهم لم يعد يتسم بطابع القنوط الذى كان يميز نضال سلطان غاليف بعد عام ١٩٢٠. فهم متفائلون بشأن المستقبل الذى ينتظرهم. كما أنهم قد تحاشوا عملية الهيمنة، ويدركون أنهم أقوى من الروس مادياً وأن الزمن يعمل لصالحهم.

وعلى ذلك، فإنه لم يعد للهدفين الرئيسيين اللذين سعى سلطان غاليف إلى تحقيقها، وهما إنشاء جمهورية توران وتصدير الشيوعية إلى بلدان الشرق الأوسط الإسلامية - إيران وأفغانستان وتركيا - نفس المدلول كما فى الوقت الحالى، إذ أنه من شأن التضخم الديموغرافى للسكان فى هذه البلدان أن يتيح للصفوة الإسلامية أن تتطلع إلى التحرر ذات يوم من السيطرة الروسية من خلال ما تتمتع به من ثقل عددى، دون حاجة إلى جلب أعداد من المسلمين الأجانب. فضلاً عن ذلك، فإن الأمل فى الوحدة السياسية والإدراية للشعوب الإسلامية، والذى جاء نتيجة لإنشاء جمهورية توران، قد تراجع حالياً إلى المرتبة الثانية بين اهتمامات الصفوة من سكان البلاد الأصليين، بعد الوحدة الثقافية والنفسية التى تحققت بالفعل.

والاختلاف جد كبير بين الصفوة الإسلامية المعاصرة وتلك التى كانت قائمة عام ١٩٢٠ وما تلاه من أعوام، والتى تعرضت للإبادة خلال حملات التطهير الاستالينية. فهى تفوقها عدداً إلى حد كبير، فضلاً عن انتمائها إلى طبقات إجتماعية مختلفة. فالصفوة فى عهد سلطان غاليف كانت من أصل بورجوازى وأرستقراطى، إلى جانب التنوع البالغ فى نشأتها الثقافية. أما النخبة فى عصرنا الحالى فهى تنتسب، فى غالبيتها، إلى أصول ريفية، كما أنها نشأت فى المدرسة السوفياتية ذاتها، أى تشكلت بنفس القالب. وقد أصبحت اللغة الروسية هى اللغة

الثانية لهذه الكوادر الجديدة، وهم أكثر شباباً بوجه عام من رفاقهم الروس. ورغم كونهم أقل رقياً ولا ريب من أسلافهم، إلا أنهم أقل عداءً للتقاليد كذلك وأكثر احتراماً للماضى ولعادات أجدادهم وتقاليدهم. كما كانوا لا يكنون أى عداء ازدرائى تجاه الإسلام على وجه الخصوص، على نحو ما كان يستشعره المثقفون السابقون على الثورة تجاه ديانة اعتبروها رجعية. إذ يرى المسلمون الشبان فى آسيا الوسطى أو القوقاز حالياً، على الرغم من (أو بسبب) نصف قرن من الاضطهادات، أن الإسلام جزء لا يتجزأ من هويتهم الوطنية اليوم أكثر من أى وقت مضى فالجميع يعرفّون أنفسهم بأنهم «مسلمون»، بما فى ذلك الملحدون الرسميون، وأعضاء الحزب، ومحركو الفتن المناهضون للدين.

كما تتفق جميع المصادر السوفياتية كذلك على الاعتراف بأن جيل الشباب من الصفوة الإسلامية يضارع، إن لم يكن يفوق، فى نزعته القومية جيل رفاق سلطان غالييف، بل ويفوقهم أحياناً من حيث كراهة الأجانب ربما لكونهم أكثر عدوانية وتشدداً فى المطالب. غير أنه سوف يكون من غير المجدى البحث عن صلة مباشرة تربط المثقفين المسلمين رفاق سلطان غالييف بخلفائهم المعاصرين. فالفريق الأول قوميون أتوا إلى الشيوعية من كل حدب وصوب، لاعتقادهم بأن الماركسية اللينينية هى القادرة وحدها على تحريرهم من ربقة الروس. إلا أنهم ظلوا ماركسيين من الظاهر فقط. أما الفريق الثانى فهم شيوعيون عن قناعة بوجه عام، وإن كانت النزعة القومية ليست، من وجهة نظرهم، أحد مخلفات «العقلية الرأسمالية» أو التقاليد «البورجوازية» السابقة على الثورة، وإنما هى تعبير عن إحدى الخصائص السياسية والثقافية الجوهرية التى تميزهم عن رفاقهم الروس، بل وتضعهم فى موقف المواجهة معهم إذا ما اقتضت الضرورة ذلك.

وعلى ذلك، فإن «قوميتهم» تختلف إذن، من حيث الأصل، عن الحركة الغالييفية، رغم أن موقف الجيل الجديد تجاه المشاكل الأساسية لشعوبهم، وعلى رأسها العلاقات التى تربطهم بالشعب الروسى، لا يختلف كثيراً عن موقف سلطان غالييف قبل انفصاله عن الحزب. فهم يرتبطون، مثل سلطان غالييف بل وربما أكثر منه، ارتباطاً وثيقاً بثقافتهم الوطنية لا من حيث الشكل فقط بل والمضمون كذلك. كما أنهم يولون الاهتمام لتدبر شؤون الدين الإسلامى والتراث التقليدى، حتى وإن كان هذا التراث لا يتفق والثقافة «البروليتارية» السوفياتية الجديدة. وهم يتمثلون الماضى الوطنى لشعبهم، حتى إذا ما كان يتعلق بالنضال ضد الروس على وجه

الخصوص. وأخيراً - وهو ما يوضح التأثير المباشر لأيديولوجية الحركة الغاليـيفية - ، فإنهم كانوا يودون لشيوعيتهم أسلافاً غير البلاشفة الروس، وهو ما ينطوى بصورة غير مباشرة على اعتراف ضمنى بأصالة الشيوعية الشرقية.

غير أن الاختلاف الجوهرى بين الحركة الغاليـيفية فى العشرينات من هذا القرن وبين النزعة القومية للشبان المسلمين المعاصرين، هو موقفهم حيال الدين. ويُعزى ذلك إلى ظاهرة تاريخية عجز سلطان غاليـيف عن التنبؤ بها ؛ وهى عودة الإسلام بصورته الأصولية أو المتطرفة إلى الظهور فى العالم الإسلامى قاطبة فى قالب سياسى. وتتضح هذه الظاهرة المتمثلة فى العودة إلى التقليدية الإسلامية فى جميع أنحاء دار الإسلام، من المغرب إلى الفلبين، إلا أنها تبرز كأوضح ما يكون فى البلدان المتاخمة لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، فى إيران وأفغانستان وتركيا. بل إن آسيا الوسطى والقوقاز اللذين كانا، منذ العصر الوسيط الأكبر، من أكثر مواطن الحضارة الإسلامية تميزاً، لم يكن أمامها سوى مسايرة الاتجاه العام. وتقدم لنا المصادر السوفياتية، التى لم تعد تشير إلى «بقاء» الإسلام فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وإنما إلى «عودة ظهوره»، أمثلة لا حصر لها حول هذه الظاهرة. إذ يرجع أصل هذه النهضة إلى خيبة الأمل فى الغرب. فبعد السعى على مدى قرن كامل إلى محاكاة جميع المذاهب الاجتماعية السياسية الواردة من أوروبا ومن روسيا - من ليبرالية، واشتراكية معتدلة، وشيوعية، وشعبية، وفاشية -، عاد المسلمون اليوم إلى الجذور العميقة لمجتمعهم، محاولين الكشف فى التقاليد الإسلامية عن أقرب النظريات السياسية إلى وضعهم الحالى.

أما فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، فقد اتخذت العودة إلى الأصول شكلاً مزدوجاً، يتمثل جانب منه فى التيار الثقافى الليبرالى الذى خلف الحركة الإصلاحية فى القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين، أما الجانب الآخر، وهو الأقوى والأكثر ديناميكية، فيتمثل فى الأصولية المحافظة، التمامية(*)، المناهضة للروسية وللشيوعية، والتى تستشهد بالجهاد المقدس للشيخ منصور، والإمام شامل، وأذن حاج فى ١٩٢٠-١٩٢١، وتستند إلى ثورة البسماتشيين. ويمكن مقارنة هذا التيار الأخير، مع الحفاظ على التناسب الضرورى، بالأصولية الإيرانية والأفغانية، أى الحزب الإسلامى والجامعة الإسلامية، وبحركة النورجويين (Nurcular) و«الإخوة المسلمين» المصريين والسوريين.

(*) تمامية (مذهب يحاول الاحتفاظ بتمام نظام (كالدين مثلاً) (المترجمة)

غير أن المذهب المحافظ الإسلامى الجديد فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية يستند، خلافاً للحركات الأصولية الأخرى، إلى أساس تنظيمى استثنائى، وهو الأساس الذى تقدمه الطرق الصوفية، تلك التنظيمات السرية ذات الهياكل القومية والمتدرجة، التى يحكمها نظام حديدى وطاعة مطلقة من قبل المشايعين تجاه الملات.

وفى ذلك كتب لوسيان كليموفيتش، وهو من خيرة علماء الإسلام السوفيات، يقول:

«ثمة تياران متعارضان فى الإسلام: التيار الرسمى «داخل المسجد»، والذى يمثله رجال الإفتاء، وشيخ الإسلام، وممثلو المذاهب الروحية الإسلامية الأربعة.... والتيار غير الرسمى، «خارج نطاق المسجد»، أى التيار الصوفى الذى يمثله الإشانيون، والبيريون، والمشايخ، وأساتذة الطرق الدينية. إلا أن رجال الدين المنتمين إلى التيار غير الرسمى يفوقون من ينتمون منهم إلى التيار الرسمى من الناحية العددية بدرجة كبيرة فى كافة الأنحاء. ففى بعض الأقاليم، مثل شمال القوقاز على سبيل المثال، نجد أن القائمين على خدمة الشعائر الدينية ينتمى جميعهم تقريباً إلى إحدى الطرق الصوفية.» (Voprosy Naoutchnogo Atcizma, موسكو - ثانيا - ١٩٦٦، ص ص٦٦-٦٧).

هذا وتتمتع الصوفية، ذلك المذهب الغامض الذى ينتمى إلى العصور الوسطى وإن كان لا يزال يتسم بالفتوة والديناميكية، بنفوذ متزايد فى الوقت الحالى على الجيل الجديد من الإنتلجنتسيا المسلمة على حساب الماركسية اللينينية، تلك الأيديولوجية الهرمة التى لم يعد لديها، لا سيما فى صورتها الروسية، ما تقدمه من وسائل للجذب على المستوى الفلسفى بسبب ما تتسم به من فظاظة تدعو إلى القنوط، أو على الصعيد السياسى طالما أنها لم تنجح فى تحرير المسلمين من خضوعهم للروس؛ ولا بوصفها أحد المذاهب الاقتصادية على وجه الخصوص، مادام المسلمون فى آسيا الوسطى قد تميزوا بمستوى معيشى يفوق مستوى الروس الذين يعيشون فى روسيا، رغم كونهم أكثر قرباً من العاصمة العالمية للشيوعية. كما أن الفضل فى ذلك لا يرجع إلى الشيوعية العلمية، بل إلى الاقتصاد الموازى بطابعه الرأسمالى إلى حد كبير - غير المشروع وإن كانت السلطات المحلية تبيحه بدرجة أو بأخرى. إلا أن حلم التعايش بين الماركسية - اللينينية، وتجريد الإسلام من الجوانب الروحية مع الحفاظ على جميع قيمه الاجتماعية والثقافية على نحو ما أراد سلطان غالييف، قد يبدو جذاباً فى بعض البلدان الإسلامية الأجنبية التى لم تعرف الاشتراكية المحلية، ولا الاحتلال الروسى بصفة خاصة. ولكنه

يبدو حالياً، فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وبعد مضى خمسين عاماً، كحلم جميل لم يقدر له أن يتحقق على نحو يرثى له.

هذا وقد نجح اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، منذ الحرب العالمية الثانية، فى تصدير الثورة الشيوعية إلى العالم الثالث فى كل من آسيا وأفريقيا، فى الصين، ومنغوليا، وفى كوريا الشمالية، وفيتنام، وفى لاوس، وكمبوديا، وفى أفغانستان - وإن كان ذلك على الصعيد الرسمى فى الواقع -، وإثيوبيا، وفى اليمن الجنوبية، وأنجولا، وفى موزمبيق، ونيكاراجوا، وكوبا... وهذه البلدان جميعها تشكل جانباً من العالم السوفياتى وتحكمها أحزاب شيوعية. كما حققت ثورة المستعمرات انتصاراً بوجه عام فى العديد من البلدان الأخرى، من خلال حركات تتزعمها قيادات بورجوازية، وهكذا اقتربت الاستراتيجية الثورية، التى أثبتت جدارتها بالنسبة للعالم الثالث من الآن فصاعداً، من الفرضيات التى تبناها سلطان غالييف عام ١٩١٨. كما بدأت موسكو فى الإعلان عن وجود طرق عديدة يمكن أن تؤدى إلى الاشتراكية، وهو ما يمثل اعترافاً بشىء من الاستقلال للحركة الثورية فى المستعمرات بل وحتى، فى ظروف معينة، بإمكانية عدم التقيد الحرفى بالنموذج الروسى.

وخلافاً للقرارات المتخذة فى مؤتمر شعوب الشرق الذى انعقد فى باكو فى سبتمبر ١٩٢٠، فقد أصبح هناك تسليم فى الوقت الحالى بضرورة تحالف جميع طبقات المجتمعات المستعمَرة فى مواجهة «الامبريالية»، مع المبالغة، كما فعل سلطان غالييف، فى مدح التكتيك الخاص بالجبهات الوطنية التى تتزعمها قيادات بورجوازية وليست بروليتارية أو ريفية بالضرورة. وهكذا أصبحت الثورة الوطنية تحظى بالأولوية على الثورة الاجتماعية، وهو ما أدى إلى استبعاد الصراع الطبقى لفترة غير محددة، مع افتراض وجود تحالف تكتيكى دائم بين الحركات الشيوعية والقومية. وأخيراً فإن زعماء الكرملين، وقد سلموا طبقاً للأمر الواقع بأن بلدان الغرب الصناعية ليست هى البيئة المواتية لانتشار الشيوعية بالمقارنة بآسيا ما قبل الرأسمالية، قد اعترفوا ضمناً بأن سلطان غالييف كان على حق عندما أكد، فى معرض الجدل مع رفاقه الروس، أن مستقبل الشيوعية فى آسيا.

غير أن الثورة قد انتقلت إلى الشرق، خلافاً لما كان يرجوه سلطان غالييف، على يد الروس وحدهم وليس المسلمين السوفيات. فعدد المسلمين الذين عملوا فى الحقل الدبلوماسى، أو كمستشارين اقتصاديين وعسكريين فى البلدان الإسلامية منذ نهاية الحرب، لا يتجاوز عدد

أصابع اليد الواحدة. ورغم «الانفراج»، النسبى من جهة أخرى، الذى نشأ بين ستالين والزعماء الدينيين الإسلاميين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية أثناء الحرب، إلا أن الحكومة السوفياتية لا تزال تنظر بعين الريبة إلى المسلمين بنفس القدر من عدم الثقة الذى تعكسه أعوام العشرينات والثلاثينات من هذا القرن. وعلى ذلك فإن مسؤولية نشر الثورة فى العالم الإسلامى بكل من آسيا وأفريقيا قد عُهد بها إلى عناية الروس وحدهم. وكان على المسلمين السوفيات أن يعملوا، فى أفضل الأحوال،ر كمعاونين فنيين، أو مترجمين فوريين أو تحريريين، طالما أنه ليس من حقهم العمل فى الكوادر السياسية.

ويُعد المشروع السوفياتى فى أفغانستان أوضح مثال على هذه الريبة وعدم الثقة. فالمعروف أن وحدات الجيش السوفياتى التى قامت بغزو أفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩، كانت تضم نسبة هامة نسبياً (تصل إلى ٤٠٪) من الجنود المسلمين الذين ينتمون إلى آسيا الوسطى، فى حين كان الضباط من الروس أو غيرهم من السلافيين. وكانت هذه هى المرة الأولى، منذ ثورة عام ١٩١٧، التى تولد فيها لدى المسلمين السوفيات الانطباع بأنهم يعاونون «شقيقهم الروسى الأكبر» فى بناء الشيوعية بأحد البلدان الإسلامية الأجنبية. فهل يقدر أخيراً لحلم سلطان غالييف والشيوعيين المسلمين خلال العشرينات من هذا القرن أن يرى طريقه إلى النور؟ لا ندرى على وجه اليقين كيف استقبلت الصفوة الإسلامية فى آسيا الوسطى المأساة الأفغانية. إلا أنه يمكننا افتراض أن البعض قد نظر إلى هذه المغامرة بعين الرضا. إذ تصور البعض أنهم سوف يحررون أشقاءهم الأوزبكستانيين والطاجيكستانيين من نير «الإقطاعيين المحليين» والامبرياليين الأمريكيين أو الصينيين؛ فى حين اعتقد البعض الآخر أن العون الذى قدموه إلى الروس فى أفغانستان يمكن أن يكفل لهم وضعاً تجارياً أفضل فى مواجهة موسكو؛ وأخيراً فإن البعض كان يأمل فى تحويل أفغانستان إلى جمهورية اشتراكية سوفياتية سادسة، وهو ما كان من شأنه أن يضيف قرابة ١٥ مليون من المسلمين الجدد إلى العدد الذى يضمه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بالفعل والبالغ ٤٥ أو ٥٠ مليوناً. وعلى ذلك فإنه كان يمكن للمسلمين أن يشكلوا تكتلاً يتراوح قوامه بين ٦٠ إلى ٦٥ مليوناً فى مواجهة ١٣٧ مليوناً من الروس...

وفى المقابل، فإنه من الصعوبة بمكان إدراك الأسباب التى دعت القادة السوفيات إلى استغلال مسلميهم فى أفغانستان على هذا النحو السافر. أهو الجهل «بوضع» مسلميهم بل

وحتى مشاعرهم الحقيقية؟ أم هي مجرد الحاجة إلى فنيين ومترجمين على دراية باللغات المحلية؟ أم لعلها الرغبةفي إضفاء صبغة إسلامية مشتركة على العملية الأفغانية؟ أم يكون السعي إلى إظهار التضامن الذي يعكسه تلاحم الشعوب السوفياتية جمعاء في مواجهة أي خطر خارجي، أمام العالم الخارجي - الإسلامي والغربي على حد سواء؟ أياً كانت الأسباب، فإنه لا يبدو أن الوحدات السوفياتية التي ضمت نسبة كبيرة من الجنود المسلمين كانت مخصصة لمحاربة المجاهدين الأفغان. إلا أنه عندما اقتضى الأمر إشراك هذه الوحدات في العمليات القمعية، أظهرت عدم فعاليتها على نحو لا يمكن معه التعويل عليها. فالمساعدة في تحرير الأشقاء الأوزبكستانيين أو الطاجيكستانيين من الامبريالية الصينية أو الإسرائيلية أو الأمريكية شيء، أما إطلاق النار على هؤلاء الأشقاء أنفسهم أو، وهو الأسوأ، معاونة الروس على إعدامهم بالرصاص، فشيء آخر لا يمكن لهم قبوله.

وعلى ذلك، فقد اختفى الجنود الذين كانت أصولهم تمتد إلى آسيا الوسطى بشكل يكاد يكون تاماً من أفغانستان في منتصف فبراير ١٩٨٠، حيث تم استبدالهم بوحدات تتألف من الروس وغيرهم من «الأوروبيين» وحدهم. وفي الوقت ذاته، جرى سحب المستشارين الفنيين القلائل الذين ينتسبون إلى آسيا الوسطى من الإدارة الأفغانية، حيث أخلَوا مواقعهم للروس. فماذا حدث إذن في غضون تلك الأسابيع الستة؟ لن يقدر لنا أن نعلم ذلك على وجه اليقين، غير أنه يبدو أنه ثمة اتصالات قد جرت بين الأفغان والتركستانيين السوفيات، وهي الاتصالات التي عجز الروس عن فرض رقابتهم عليها نظراً لجهلهم باللغات المحلية. فقد كانت هناك حالات، لها مدلولاتها رغم قلة عددها، شهدت انتقال بعض الجنود المسلمين السوفيات إلى صفوف المجاهدين؛ بل وربما نشأت لدى بعض المسلمين السوفيات كذلك صحوة في الشعور بتضامن ديني، أكثر منه عرقي، مع الأفغان المناضلين ضد الغزاة «الكفرة». وعلى أية حال، فإن العملية الجادة الوحيدة التي استوجبت استغلال المسلمين السوفيات في أحد البلدان الإسلامية الأجنبية، والتي كان من شأنها أن تحظى بموافقة سلطان غالييف، سرعان ما انتهت بفشل ذريع.

وثمة نتيجة طبيعية يستتبعها استبعاد المسلمين من الغزو الأيديولوجي أو العسكري لآسيا وأفريقيا. إذ لا يزال النموذج الماركسي - اللينيني الروسي بالنسبة لسادة الكرملين، اليوم كما كان منذ نصف قرن مضى، هو النموذج الفريد للشيوعية على وجه القطع. أما التسويات الأيديولوجية، والتحالفات مع رفاق الطريق القوميين، فلا يمكن إلا أن تكون تكتيكية ووقتية.

غير أن أفكار سلطان غالييف قد تغلغلت، رغم إرادة القادة السوفيات فى الاحتفاظ للروس باحتكار الثورة، إلى عالم المستعمرات فى حياته، ولا تزال تواصل انتشارها فيه إلى يومنا هذا عبر قنوات شتى. فقد كانت موسكو سوقاً حقيقية للثورة بالنسبة لجميع الثوار فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، من كافة الأجناس والاتجاهات السياسية، حتى فى حياة سلطان غالييف. ومنذ بداية العشرينات من هذا القرن، قدمت موسكو إلى هؤلاء الراديكاليين الشبان فى عالم المستعمرات رؤية لن يقدر لها استعادتها من جديد، حيث لعب التشدد المذهبى دوراً أقل أهمية من الحماس والتصور الثورى، فضلاً عن كونها ملتقى لتجمع المسلمين فى روسيا جنباً إلى جنب مع إخوتهم فى الدين القادمين من الخارج حيث يتبادلون أكثر النظريات هرطقة فى حرية تامة. وكان مركز هذه الثورة الثقافية هو جامعة عمال الشرق الشيوعية الشهيرة التى افتتُحت فى سبتمبر ١٩٢٠ وأصبحت منبراً بارزاً للكوادر الثورية من جميع أنحاء عالم المستعمرات حتى عام ١٩٢٤. وقد جرى تطهير هيئة التدريس بها للمرة الأولى، وتكرر ذلك عام ١٩٢٧، ثم مرة أخرى عام ١٩٣٠، عندما أصبحت الهرطقة لا تلقى قبولاً لدى قادة الكرملين كما كانت من قبل. ومن بين الأساتذة الدائمين بها نذكر جميع زعماء الشيوعية الوطنية الإسلامية تقريباً، وضحايا ستالين فى المستقبل، وعلى رأسهم سلطان غالييف.

كما نجد ضمن الثوريين الأجانب الذين قاموا بالتدريس فى جامعة KuTva الهندى موبندرا - ناث روى، والهولندى سنيفليبت، والإيرانى سلطان زاد. وقد تبنى أول اثنين منهم فرضيات قريبة من دعاوى سلطان غالييف حول الدور الرئيسى الذى تلعبه الثورة فى الشرق، وذلك خلال المؤتمر الثانى الذى عقدته الأممية الشيوعية فى موسكو فى ربيع عام ١٩٢٠. وأخيراً فإننا نجد بين الطلاب الذين تعاقبوا على جامعة KuTva معظم أولئك الذين صاروا فيما بعد قادة الحركة الشيوعية فى المستعمرات. كما أصبح عدد من هؤلاء الأساتذة والطلبة «ملحدين» فى وقت لاحق. وتعكس نظرياتهم بوضوح تأثير الدراسة المستقلة التى تلقوها فى هذه الجامعة. ومثال ذلك تان ملكة، أو حتى موبندرا - ناث روى ذاته. أما الأول، وهو أحد المجاهدين القدامى فى الحزب القومى سارية الإسلام، فقد درس فى جامعة KuTva عام ١٩٢٢ وأدرك، مثل سلطان غالييف، الضرورة الملحة لتحقيق التحالف بين الإسلام والقومية والماركسية. ومن ثم فقد أعلن، فى المؤتمر الثالث الذى عقدته الأممية الشيوعية فى موسكو عام ١٩٢١، أنه «كان للروح العدائية تجاه الإسلام والجامعة الإسلامية، والتى ظهرت بوضوح فى المؤتمر الثانى الذى

عقدته الأممية الشيوعية فى العام الماضى، نتائجها المدمرة على انتشار الشيوعية فى إندونيسيا». وفى عام ١٩٢٣، اختير تان ملكة رئيساً للحزب الشيوعى الإندونيسى.P.K.I (Partai Kommunis Indonesia)، إلا أن السلطات الهولندية قامت بنفيه فى ذلك العام ذاته، حيث ظل حتى عام ١٩٢٧ يشغل منصب المسؤول الرسمى الأول فى الأممية الشيوعية لعموم جنوب شرقى آسيا. غير أنه انشق على ستالين خلال المؤتمر السادس للأممية الشيوعية، حيث اتهمه بالسعى إلى حمل الحزب الشيوعى الإندونيسى على انتهاج سياسة انتحارية مضادة للإسلام فى بلد تضرب فيه جذور الإسلام بعمق مثل إندونسيا. وقد أسس تان ملكة، الذى تم إقصاؤه من الحزب الشيوعى الإندونيسى بعد توجيه تهمة «التحول عن سياسة الحزب» و «التروتسكوية» (*) إليه، حزباً شيوعياً خاصاً يقع مقره العام فى بانكوك. سعى هذا الحزب الجديد إلى التوفيق بين الماركسية والقومية الآسيوية الجامعة، وسرعان ما أصبح هو المنافس الأقوى نفوذاً للحزب الشيوعى الإندونيسى، الذى ظل من جانبه يمتثل دون قيد أو شرط لتوجيهات موسكو، حتى أقلها نزوعاً إلى الواقعية. وكان تان ملكة قد اعتنق، منذ بدء الأعمال الحربية، اتجاهاً موالياً لليابان. ثم عاد إلى إندونسيا عام ١٩٤٢، حيث تعاون مع قوات الاحتلال اليابانية، وأصبح من جديد أحد الشخصيات البارزة فى اليسار الإندونيسى عام ١٩٤٥. وكانت أفكاره فى ذلك الوقت تجسيداً لمزيج من الأفكار «المؤيدة تماماً للحركة الغاليبفية»، يجمع بين الماركسية والإسلام والقومية. كما قام تان ملكة، بعد الزج به فى السجن عام ١٩٤٦، بإنشاء حزب ثورى جديد أطلق عليه اسم Murba (البروليتاريا)، وبدأ حرب العصابات. إلا أنه ألقى القبض عليه حيث جرى إعدامه فى ١٦ أبريل ١٩٤٩. أما موبندرا – ناث روى، ذلك الثورى الهندى من البنجال وعضو اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية فيما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٨، فقد سارت حياته فى خط موازٍ. إذ اشتبك، مثل تان ملكة، فى صراع مع ستالين إبان انعقاد المؤتمر السادس، حيث جرى إبعاده من الأممية الشيوعية عام ١٩٤٩. وكان قد قام، بعد وصوله إلى الهند عام ١٩٣١، بتأسيس الحزب الراديكالى الديمقراطى الذى يتبنى اتجاهاً موالياً لليابان عام ١٩٤٠.

هذا ويُعتبر خوزيه كارلوس مارياتيجى تجسيداً واضحاً للصلة الغريبة بين نظريات سلطان غاليبف والحركات الثورية فى العالم الثالث. فقد وُلد مارياتيجى فى بيرو عام ١٨٨٤، وأصبح

(*) تروتسكوى (نصير أفكار تروتسكى والأممية الرابعة) (المترجمة).

من أوائل الذين بادروا إلى اعتناق الماركسية من أبناء أمريكا اللاتينية، كما عاش فى أوروبا منذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٢٣، حيث أبدى اهتماماً بالغاً بانتشار الشيوعية فى كل من تركيا والصين. وكان قد تابع المناقشات التى جرت فى مؤتمر باكو بصفة خاصة. وبعد عودته إلى بيرو عام ١٩٢٣، كرس جهده لوضع مذهب ثورى يتواءم مع ظروف أمريكا اللاتينية، أو «الشيوعية على طريقة بيرو»، حيث نجد أوجهاً واضحة للشبه مع أفكار سلطان غالييف وغيره من الشيوعيين الوطنيين المسلمين. فكما اعتقد سلطان غالييف أن أصول «نظريته فى الشيوعية التورانية» إنما تكمن فى تقاليد امبراطورية جنكيز خان المنغولية، استشهد مارياتيجى بنموذج امبراطورية أنكا، حيث رأى فيها «النموذج الأمثل للشيوعية البدائية»، و«أحد التنظيمات الجماعية(*) والاشتراكية المثالية». وكان يسعى بذلك إلى الكشف فى الماضى التقليدى لأبناء بيرو عن الجذور الحية أبداً للاشتراكية «الطبيعية». فقد رفض مارياتيجى، مثله فى ذلك مثل سلطان غالييف والشيوعيين الصينيين فيما بعد، تطبيق وصفات الماركسية الأوروبية على أمريكا اللاتينية بطريقة آلية. «إن نظريتنا فى الاشتراكية، إن لم تتلاءم مع ظروفنا الوطنية، لن تمت إلى بيرو ولا حتى إلى الاشتراكية بصلة.» كما أعلن، على غرار الشيوعيين التتر والكازاخستانيين، أنه يمكن للهنود فى أمريكا الجنوبية أن يصبحوا شيوعيين على نحو أفضل من الأوروبيين. وفى ذلك يقول: «إذا ما قام الهندى بوضع نظريته الخاصة فى الاشتراكية، فإنه سوف يكرس نفسه لهذه القضية، متحلياً بروح النظام والإصرار والعزيمة، وهى صفات قلما يمكن أن تتحقق لغيره من الشعوب البروليتارية.»

غير أنه انتشرت فى أنحاء العالم الثالث، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ونظريات تدفع بأنه يمكن لثورة المستعمرات أن تحقق انتصاراً فى المجتمعات غير الصناعية، دون معاونة أو سيطرة من جانب الروس. وهذه النظريات جميعها تستعيد أفكار سلطان غالييف بدرجة أو بأخرى، إلا أنه لا يمكن الجزم بوجود ارتباط مباشر بين الاثنين. ورغم ذلك، فإن البعض منها، لا سيما فى شمال أفريقيا، يستند صراحة إلى ذلك التترى التنظيرى.

وكان الشيوعيون الصينيون، وعلى رأسهم ماوتسى تونج ذاته، هم أكثر المروجين لأفكار سلطان غالييف حول التعارض بين المدينة، التى تخضع لسيطرة الامبرياليين، من جهة، وبين الريف الثورى من جهة أخرى. ففى عام ١٩٦٥، أعاد لين بياو النظرية التى وضعها سلطان

(*) جماعية (مبدأ اشتراكى قائل بسيطرة الدولة أو الشعب على جميع وسائل الإنتاج والنشاطات الاقتصادية) (المترجمة)

غالييف عام ١٩٢٠ بصورة تكاد تكون حرفية:

«إن الثورة العالمية تمثل فى عصرنا الحالى صورة دائرة من المدن يحيط بها الريف من كل جانب. وفى التحليل الأخير، فإن الثورة العالمية بأكملها تتوقف على الكفاح الثورى لشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى تمثل الأغلبية الساحقة لسكان العالم. وإذا ما نظرنا بعين الاعتبار إلى عالمنا فى مجموعه، فإنه يمكننا أن نطلق على أمريكا الشمالية وأوروبا الوسطى اسم «المدن العالمية»، فى حين تشكل آسيا وأفريقيا وأمريكا «الريف العالمى». («فليحيا انتصار النضال الشعبى»، كتابات ماوتسى تونج ولين بياو فى فترة ما بعد الثورة، نيويورك، ١٩٧٢، ص٣٩٦).

هذا وقد حرص لين بياو على تصنيف اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ضمن «المدن العالمية» حيث ستكتسح الشعوب الثورية فى تيارها الهادر سادتها، «الامبرياليين (الروس)، والرجعيين والمراجعين (*) الخروتشيفيين (...) لتلقى بهم فى سلة مهملات التاريخ». كما حذا بنج تشين، أحد الزعماء الصينيين، حذو سلطان غالييف عندما أعلن فى عام ١٩٦٥ أن «مسؤولية الثورة العالمية قد انتقلت من الحركات العمالية فى بلدان الغرب الصناعية إلى حركات التحرر الوطنى فى بلدان العالم الثالث المتخلفة». إلا أنه من المتعذر القول بما إذا كان الصينيون قد تأثروا تأثراً مباشراً بكتابات سلطان غالييف، أم أن الأمر لا يتعلق سوى باتجاهين مستقلين وإن كانا يسيران فى خط متوازٍ.

غير أنه يمكن توضيح الارتباط بين سلطان غالييف وبعض واضعى نظريات الثورة الجزائرية على نحو محدد. ففى عام ١٩٥٤، أتيحت الفرصة لبن بيللا، زعيم حركة التحرر الوطنى الجزائرى، بعد أن اختطفه الفرنسيون وسجنوه، للتعرف على كتابات سلطان غالييف خلال فترة الأسر. وبعد أن أصبح بن بيللا رئيساً للجمهورية الجزائرية، كان يقتبس منه مراراً وتكراراً، لا سيما فى موضوع «الأممية الاستعمارية». فقد صرح فى حديث صحفى له مع مجلة نيوزويك (١٣ يناير ١٩٦٤، ص٢٨) بأنه «قد تأثر بشدة بأفكار سلطان غالييف». وعلى ذلك فإن بن بيللا كان بمثابة مكبر للصوت ينقل الأصداء البعيدة لمذهب سلطان غالييف وغيره من الشيوعيين الوطنيين المسلمين السوفيات، وهو المذهب الذى حمل لواءه من بعده منافسه وخلفه هوارى بومدين، والعقيد معمر القذافى على وجه الخصوص، فيما وضعاه من نظريات حول

(*) مراجعة (نزعة تدعو إلى إعادة النظر فى أسس نظرية أو دستور) (المترجمة).

التعارض بين الشمال الصناعى الجائرمن جهة، والجنوب الزراعى المظلوم من جهة أخرى. وكما فعل سلطان غاليف، فإن معمر القذافى يحرص على إدراج اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية بين بلدان الشمال الامبريالية.

ورغم التسليم بالماركسية، أو بالأحرى بعض مسلماتها، باعتبارها من العناصر ذات الأهمية النسبية فى أيديولوجية تحرر العالم الثالث، إلا أن هذه الماركسية لا تشترك مع الماركسية الأرثوذكسية سوى فى نقاط قليلة، كما هو الحال بالنسبة للماركسية اللينينية الروسية. كما أن المسألة لا تتعلق إطلاقاً بنوع من الماركسية الموازية. بل لا يعدو الأمر فى الواقع أن بعض عناصر النظريات القومية شديدة التباين قد غُلّفت برداء الماركسية. وهذا هو ما أطلق عليه مكسيم رودنسون (الماركسية والعالم الإسلامى، باريس، ١٩٧٢، ص ٣٨٧) اسم «القومية المتمركسة»، تعبيراً عن هذه النظريات التى تتضمن عناصر تحاكى محاكاة دقيقة بدرجة أو بأخرى أفكار الشيوعيين المسلمين السوفيات فى العشرينات من هذا القرن. غير أنه ثمة رفض مطلق فى أنحاء العالم الثالث، باستثناء البلدان الخاضعة مباشرة لسيطرة الجيش السوفياتى أو أجهزة المخابرات السوفياتية بطبيعة الحال، مثل أفغانستان وأثيوبيا واليمن الجنوبية، لفكرة أن تكون قيادة ثورة المستعمرات من نصيب الروس.

وخلافاً لحقبة العشرينات، فإن الماركسية لم تعد هى البلسم السحرى الكفيل بتحقيق السعادة والتحرر للعالم الثالث، بل ولا حتى أكثر هذه الحلول فاعلية. كما أن الضعف الاقتصادى الذى يحاول اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، موطن الاشتراكية، التخلص منه منذ نصف قرن، ليس بالأمر المستغرب فيه. وعلى ذلك فإن الحركات الثورية أو الإصلاحية داخل العالم الإسلامى فى آسيا أو أفريقيا أصبحت تتجه إلى الإسلام على نحو متزايد، فى محاولة منها للكشف فيه عن وصفات سياسية توافق ظروفها بصورة أفضل من الماركسية. والمحاولة لا تزال مستمرة للتوفيق بين الماركسية والإسلام، ليس عن طريق «مركسة الإسلام» على نحو ما أراد سلطان غاليف ورفاقه، وإنما بالأحرى من خلال «أسلمة الماركسية». وهذه النظريات «الماركسية - الإسلامية»، ذلك التراث الممتد لمذهب سلطان غاليف، تعاود الظهور اليوم فى الاتحاد السوفياتى، لتفتح بذلك فصلاً جديداً على نحو غير متوقع فى العلاقات بين الإسلام السوفياتى والعالم الإسلامى الخارجى.

وحتى يتسنى لنا فهم أفضل لهذه العودة غير المألوفة إلى الوراء، علينا أن نتذكر أن

الاستقرار والنزعة المحافظة اللذين كانا السمة المميزة للشرق الأوسط منذ القرن التاسع عشر، لم يقدما شيئاً للإسلام الروسى فيما يتعلق بالنماذج السياسية. كما ينطبق نفس الشىء على الامبراطورية العثمانية فى القرن التاسع عشر، والحكومة الملكية البهلوية بعد عام ١٩٢٥. وفى المقابل، فإن حالة عدم الاستقرار والغليان الثورى التى سادت الشرق الأوسط، إبان الثورة التركية الناهضة أو الحركة الدستورية الإيرانية عام ١٩٠٨، على سبيل المثال، بدت مصدراً غنياً للإلهام بالراديكالية، أو نموذجاً من شأنه أن يقدم للمسلمين فى روسيا أمثلة للعمل. وقد اجتاحت القلاقل الشرق الأوسط من جديد فى عصرنا الحالى، حيث تهزه بعنف حركات ثورية ذات عواقب لا يمكن التكهن بها. فهل سيقدر لنا أن نشهد «عودة إلى الوراء» لتلك الأحداث التى شهدها دار الإسلام إلى الإسلام السوفياتى بما يترتب على ذلك، كنتيجة نهائية، من فقدان ذلك الأخير لدعائم الاستقرار؟ لا شىء مستحيل، منذ التدخل السوفياتى فى أفغانستان، ومنذ ظهور أشرطة الكاسيت التى أصبحت بعد استخدامها من قبل الخومينى من أكثر وسائل الدعاية فعالية، حيث كان من آثارها الثانوية غير المتوقعة إزاحة الستار الحديدى الفاصل بين آسيا الوسطى وسائر العالم الإسلامى. ومن ثم فإن الأفراد، والمعلومات التى تفلت من الرقابة بكافة أنواعها، والأفكار التخريبية بدرجة أو بأخرى، كل ذلك يمكن أن يعاود انتشاره من جديد.

وقبل محاولة الإجابة على هذا السؤال، ينبغى الإشارة إلى أنه إذا كان العالم الإسلامى يجهل كقاعدة عامة كل ما يدور فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، فإن المثقفين المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز من جانبهم يتابعون عن كثب بقدر الإمكان ما يجرى من تطورات فى الشرق الأوسط. ويمكن إدراك النفوذ المحتمل لهذا الجزء من العالم على الإسلام السوفياتى بأساليب مختلفة:

(١) إذا ما قدر للمقاومة الأفغانية المسلحة الاستمرار، وهو أمر محتمل إلى حد كبير، فإن الدرس المستفاد بالنسبة للإسلام السوفياتى يتمثل فيما يلى:

* إثبات أن الحركات الأصولية الإسلامية يمكن أن تكون أفضل تنظيماً وأكثر فعالية من الحزبين الشيوعيين الأفغانيين، اللذين لم يكن ليقدر لهما البقاء دون وجود جيش سوفياتى، وبعبارة أخرى، أن الإسلام أكثر فتوة وأشد قدرة على التعبئة من الماركسية الهرمة المتداعية.

* أنها تجسيد لنموذج بطولى من نماذج المقاومة الكفيلة بإحياء الذكريات التى لا يمكن أن تنمحى تماماً من الذاكرة حول البسماتشيين فى آسيا الوسطى وشامل فى القوقاز. فهذه المقاومة من شأنها، حتى إذا ما منيت بالهزيمة، أن تضطلع بدور شبيه بالدور الذى لعبته مقاومة أبناء المناطق الجبلية فى القوقاز فى إحياء الحركات القومية فى قلب الامبراطورية القيصرية فى القرن التاسع عشر. وإذا ما قُدر لها البقاء، فإنها سوف تمثل فى نظر المسلمين السوفيات الدليل القاطع على أن «الشقيق الأكبر» يمكن قهره.

* أن المقاومة الأفغانية الممتدة يمكن أن تثير لدى الإنتلجنتسيا المسلمة السوفياتية شعوراً بالتضامن الدينى والعرقى مع «أبناء العمومة» الأفغان الذين يتعرضون للقتل على يد «الشقيق الأكبر» الروسى. وكنتيجة لذلك، فإنه يمكن توقع عودة أيديولوجيات الجامعة الإسلامية والجامعة التركية إلى الظهور من جديد بعد غفوتها، وإن لم تتلاش تماماً. وهكذا فإنه من قبيل التناقضات الغريبة، طالما أن الحركة الغالييفية قد أصبحت، فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، مرادفاً للجامعة التركية والجامعة الإسلامية، أن يبدو سلطان غالييف بعد وفاته رمزا للمقاومة الإسلامية هناك.

(٢) أن تأثير الثورة الإسلامية الإيرانية أكثر تنوعاً، وإن كان يتسم بنفس القدر من الخطورة.

* أن الثورة الإسلامية قد برهنت، من وجهة نظر المسلمين، على أن المؤسسات الدينية التقليدية يمكنها أن تكتسب فعالية ثورية كان البعض ينكرها عليها من قبل، وأن تصبح قوى سياسية أفضل تنظيماً، وأكثر نزوعاً إلى التطرف الراديكالى، بل وأشد قدرة على التعبئة من الحزب الشيوعى.

٥١و. أن الدعوة «المناهضة للامبريالية» التى أطلقتها الثورة الإسلامية والتى وجهت، فى إيران، الإهانة للامبريالية الأمريكية، اعتُبرت تحريضاً على محاربة الوجه الآخر للامبريالية، أى الامبريالية السوفياتية، فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية.

٥١و. أن تمجيد القيم الثقافية والسياسية للإسلام التى تمتدح الشعور الفطرى بالعظمة والتفوق لدى الأتراك السوفيات والقوقازيين يجعل تقاربهم مع «الشقيق الأكبر» أمراً مشكوكاً فيه أكثر من أى وقت مضى كما يبرر، من وجهة نظرهم، البحث عن «طريق إسلامى» نحو اشتراكية لا يتبقى فيها من الماركسية - اللينينية الروسية سوى الشكل الخارجى.

٥١و. وأخيراً، فإنه يمكن اعتبار الدعوة الشعبية للحركة الخومينية بمثابة دعوة إلى استبدال التنظيم الهرم للحزب الشيوعى، أى الأرستقراطية الوظيفية، بجيل جديد من الكوادر غير الشيوعية الشابة ذات يوم.

(٣) من المشكوك فيه إمكانية أن يكون للدول العربية المحافظة تأثير من أى نوع على بقاء الإسلام السوفياتى. وفى المقابل، فإن تزايد الصلات مع العرب الثوريين - سواء كانوا سوريين، أم ليبيين، أم جزائريين، أم فلسطينيين - الذين يزعمون جميعاً إقامة صرح «اشتراكية إسلامية» تجمع عناصر من الماركسية والإسلام، وإن كان الإسلام يمثل الجانب الرئيسى فيها، من شأنه أن ييسر عودة النظريات والأفكار القريبة من تلك التى اعتنقها الشيوعيون المسلمون فى العشرينات من هذا القرن. ولا زالت لهذه النظريات القدرة على الإثارة الثورية الكفيلة ببث الحماس فى الجموع، لا سيما إذا ما قورنت بالنموذج الروسى للاشتراكية البيروقراطية التى تفتقر إلى الفعالية.

(٤) وأخيراً ظهور تأثير الصين، التى شهدت تحولاً كبيراً فى سياستها الإسلامية، والتى تبدو اليوم من وجهة نظر المسلمين السوفيات القوة الشيوعية الوحيدة التى استطاعت، مع احتفاظها بالولاء للماركسية، بالشعارات على الأقل، التخلى عن الإلحاد المتشدد، وتشجيع الانطلاقة الدينية فى سنكيانج، بل والأكثر من ذلك العمل باستمرار على فضح الطابع الامبريالى و «الغربى» للاستعمارية السوفياتية، وتمجيد تضامن الجامعة الآسيوية. وثمة تشابه كبير إلى حد يدعو للدهشة بين الدعاية الصينية الموجهة إلى آسيا الوسطى من جهة، وبين فرضيات سلطان غالييف حول «الأممية الاستعمارية» وثأر المقهورين من الطغاة من جهة أخرى.

كما تجدر الإشارة كذلك إلى أنه بعد عجز الستار الحديدى عن حماية الجمهوريات الإسلامية من العدوى الخارجية (بل إن أجهزة المخابرات السوفياتية ذاتها لا يمكنها وقف انتشار أشرطة الكاسيت. . .)، لم يعد لدى الصفوة المسلمة السوفياتية، التى خضعت على مدى نصف قرن لتأثير الماركسية الروسية المتحجر، ما تقدمه للمسلمين الأجانب فيما يتعلق بالفكر السياسى. بل إنهم، على العكس من ذلك، يبحثون فى الخارج عن مصدر للإلهام السياسى. ولا يزال الإسلام السوفياتى حتى وقتنا هذا تجسيداً للخواء الأيديولوجى الذى يمكنه استقبال كافة الآراء والبرامج السياسية، من التحفظ الدينى فى أكثر صوره نزوعاً إلى

التقليدية وحتى الراديكالية بأشد أشكالها ثورية، واستيعابها فى نهاية الأمر. وعلى ذلك، فإن هذه الراديكالية الأخيرة ليست فى كثير من الأحيان سوى الصيغة الجديدة للنظريات التى وضعها المسلمون السوفيات أنفسهم منذ ما يربو على ستين عاماً.

فما هو المفهوم السائد حول فكر سلطان غالييف فى عصرنا الحالى؟ سؤال صعب ولا شك، إذ لم يتسع وقت ذلك الشورى التترى لعرض ذلك الفكر بوضوح. وهو يبدو اليوم تراثاً خصباً شديد التنوع، وإن كان يغلب عليه اللبس والتناقض إلى حد كبير. ومن ثم فإن بعض نظرياته التى أصبحت لا تتفق مع حقائق العصر قد توارت تماماً فى حيز النسيان، فى حين اتخذ بعضها الآخر شكلاً جديداً، ولا يزال البعض منها يحتفظ بحيويته وجاذبيته فى صورته الأصلية. وقد لقى هذا التراث استقبالاً مختلفاً من جانب المسلمين الأجانب من ناحية، والمسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية من ناحية أخرى.

ففى دار الإسلام كانت نظريات سلطان غالييف، بالنسبة لهؤلاء الذين يرفضون الإسلام الأصولى كأساس وحيد لمجتمعهم ويعتقدون، رغم تناقص عددهم يوماً بعد الآخر، أن الاشتراكية الاستبدادية قادرة، خلال جيل واحد، على تمكين شعوبها من تعويض تأخرها على الغرب، تبشر بإمكانية تحقيق الثورة المضادة للامبريالية وبناء الاشتراكية دونما حاجة إلى الروس، أى إمكانية «تطبيع» الشيوعية. وهكذا كان سلطان غالييف تجسيداً لصورة بطل العالم الثالث، أو ذلك الحر المستقل الذى يحارب على جبهتين فى آنٍ واحد، ضد الامبريالية الغربية من جهة والامبريالية السوفياتية من جهة أخرى، أو البشير الفذ للخومينى و «الإخوان المسلمين». وبقدر القتامة التى ارتسمت على صورة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فى العالم الإسلامى، والوجه القبيح الذى سرعان ما اكتسبه الروس بجدارة فأصبحوا أسوأ من الأوربيين أو الأمريكيين، بقدر ما تعاظمت هيبة سلطان غالييف ونفوذه.

فقد اكتسبت صورة سلطان غالييف فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية أبعاداً أسطورية تماماً، إذ فقدت شكلها الماركسى ولم يتبق منها سوى الجانب القومى والإسلامى. بل إن هذه النظريات قد اكتسبت، مع تعرضها المستمر للهجمات متزايدة الشراسة من جانب إدارة التحريض والدعاية، إغراء الثمرة المحرمة، على النحو الذى جعل منه هو ذاته نموذجاً للمسلم المنشق الذى تناسى الجميع مذهبه ولم يعد أحد يذكر إلا معارضته لستالين. غير أنه إذا ما حكمنا عليه على ضوء موضوعات الدعاية السوفياتية المناوئة للتيارات القومية الحالية فى

الجمهوريات الإسلامية، لوجدنا أن سلطان غالييف لا يصلح هو أو رفاقه الشيوعيون القوميون مرجعاً أو نموذجاً يُحتذى من جانب أولئك الذين يسعون من المثقفين المسلمين الشبان إلى التحرر من سلطة المذهب الرسمى، وإنما هم بالأحرى أولئك المحافظون المتشددون، «المتعصبون»، الذين نبذوا دون تردد، بدءاً من شامل وانتهاءً بالبسماتشيين، مروراً بأذن حاج وأتباعه من مناضلى الجهاد القوقازى عام ١٩٢٠-١٩٢١، أى تفكير فى التورط مع الروس والشيوعيين.

وهكذا أصبح سلطان غالييف، فى نظر العديد من المثقفين المسلمين، لا سيما أولئك الذين استطاعوا الوقوف على نظرياته الحقيقية، رمزاً للنصير الأمثل للجامعة التركية، ولوحدة العالم التركى والإسلامى السوفياتى التى تأبى «الانقسام» إلى قوميات صغيرة على نحو يعرضها للاستيعاب. وأخيراً، فإنه ثمة جانب ثالث فى مذهبه يجتذب الجيل الصاعد من المسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، لا سيما أولئك الذين يرغبون الحفاظ على تكامل النظام السوفياتى بدرجة أو بأخرى، لأنهم لا يعرفون غيره. فقد كان سلطان غالييف من وجهة نظرهم جميعاً أول من بادر إلى البحث فى الماضى التركى - المنغولى والإسلامى عن الجذور البعيدة للشيوعية التى يعتنقونها، ومحاولة إيجاد نوع من التعايش بين تيمور ولينين، ولكن مع إخضاع الأخير للأول. إلا أن الجزء المحورى فى مذهبه، وهو محاولة خلق اتحاد وثيق بين الماركسية والإسلام، لم يعد يغرى المثقفين فى الجمهوريات الشرقية داخل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. أو لعلهم «رجال سوفيات»، وشيوعيون مؤمنون، مُرَوَّسون تماماً بدرجة أو بأخرى ومن ثم فإنه لم يكن بوسعهم سوى أن يجعلوا من الإسلام، أو أن يتجهوا إلى الإسلام بعد نفورهم من الماركسية على الطريقة الروسية، ديناً، وتراثاً تاريخياً، وثقافة ونمطاً للحياة، مما يجعل اتحاده مع الماركسية تشويهاً لذلك التراث الجليل الذى ورثوه عن أسلافهم البواسل.



تذییل

تذييل

يحظى سلطان غاليف، الذى لم يكن معروفاً فى الاتحاد السوفياتى بدرجة كبيرة فى حياته خارج نطاق رفاقه المسلمين ومجموعة من المعاونين المقربين لستالين فى مفوضية الشعب لشؤون القوميات، فى حين كان مجهولاً تماماً خارج حدود اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، بشهرة لا تضارى فى عصرنا الحالى. فقد تناول العديد من زعماء الدول الإسلامية، ومن بينهم بن بيللا وهوارى بومدين، نظرياته بشأن العالم الثالث، بل إن الكاتب الجزائرى المعروف حبيب تنغور قد خصص له مؤخراً رواية بعنوان (سلطان غاليف). غير أن سلطان غاليف لا يزال بالفعل «مجهولاً فى ذاكرة التاريخ»، والشواهد مؤكدة على أنه سيظل كذلك لعدة أعوام قادمة. وواقع الأمر أن الشهرة التى حظى بها بعد وفاته لم تسهم إلا فى إلقاء مزيد من الظل على شخصيته الحقيقية وجعلها أكثر غموضاً. ومن ثم فقد أصبح سلطان غاليف أسطورة، وكما يحدث كثيراً فى مثل هذه الحالة، فإن صورته الأسطورية لا الحقيقية هى التى تمثل رمزاً للتطلعات الأكثر تبايناً، بل والبعيدة تماماً عن أفكاره الأصلية فى كثير من الأحيان.

وعلى ذلك فإن سلطان غاليف، على نحو ما جرت به الأسطورة، هو أول ثائر يهب لمواجهة الامبرياليين جميعاً، بما فى ذلك الامبريالية الروسية - السوفياتية بصفة جوهرية، وهو الرائد الذى وجد فيه الفلسطينيون والمجاهدون الأفغان والعقيد القذافى أنفسهم، كما أنه ذلك المفكر الذى أتاحت نظرياته «العقلانية»، وهى ليست بشيوعية ولا رأسمالية، للشعوب المقهورة فى عالم المستعمرات التحرر بوسائلها الخاصة ودون مساعدة أى من القوى الأجنبية، وهو كذلك رائد جميع القوى «غير المنحازة» فى الماضى والحاضر.

ويفضل البعض فى الوقت الراهن تجاهل أفكاره المضطرمة والمضطربة فى آنٍ واحد حول انتزاع الجوانب الروحية من الإسلام، وإمكانية التعايش بين الماركسية والدين الإسلامى. إلا أن هذا الرجل الذى كان ملحداً على الأرجح قد أصبح، فى تطور مثير للدهشة، نموذجاً لنصير الإسلام المدافع عنه فى مواجهة المادية المناهضة للدين والمستوردة من الخارج. ولكن هل ثمة تناقض حقيقى فى ذلك؟ إن سلطان غاليف لم يبادر إطلاقاً - حتى إبان فترة اعتناقه للماركسية - إلى الجهر بالإعلان عن ارتداده، أو رغبته فى الخروج من زمرة المؤمنين. بل إنه كان طوال حياته وظل، بعد وفاته بخمسين عاماً، فرداً من أفراد الأمة فى الواقع.

غير أن سيرة حياته قد طواها النسيان حالياً، فى الاتحاد السوفياتى كما فى سائر العالم الإسلامى، ولازالت كلماته التى كتبها ذات يوم عام ١٩١٧ تتردد أصداؤها: «أتيت إلى البلشفية مدفوعاً بحب جارف يخفق به قلبى تجاه شعبى».

تحليل نقدى للمصادر

تحليل نقدى للمصادر

أولاً: كتابات سلطان غالييف:

كان مير سيد سلطان غالييف فى المقام الأول رجلاً يفيض بالنشاط، ومسؤولاً تنظيميا يتمتع بموهبة فريدة وطاقة لا تنضب - أو هو ما نطلق عليه بلغة العصر اسم "aparachik"، ولكنه كان فوق ذلك من المثقفين ذوى الإنتاج الغزير. إلا أنه من بين كتاباته المنشورة قبل إقالته فى عام ١٩٢٣، لا نجد إلا قلة منها للأسف متاحة للباحثين فى وقتنا الحالى؛ وتتضمن الصحف الراديكالية الصادرة فى قازان العديد من كتاباته فى فترة ما قبل الثورة، ومن بينهاQoyash («الشمس»)، و Ang(«الضمير»)، وغيرها، إلا أنه لم يتبق منها شيء. بل إن المطبوعات الدورية التى صدرت فى أعوام الثورة والحرب الأهلية غير متوفرة للقراء (حيث تتضمن، على سبيل المثال - ويا للعجب!، مقالات موقعة باسم تروتسكى). أما فيما يتعلق بالمكتبات الغربية، فإن أياً منها لا يضم مجموعات الصحف المنشورة فى قازان باللغة الروسية أو التترية، والتى اشترك فيها سلطان غالييف كما هو معروف. هذا وتُعتبر المجموعة الخاصة بجهاز مفوضية الشعب لشؤون القوميات، المعروفة باسم Fizn 'Natsional' nostey والتى كانت تصدر فى موسكو، ويشغل سلطان غالييف منصب نائب رئيس تحريرها، هى المجموعة الوحيدة التى تم الاحتفاظ بها فى الغرب. وهكذا فإن كل ما تبقى لنا من كتاباته عشرة مقالات، يتناول معظمها أحداث الساعة ولا تلقى الضوء على أفكاره السياسية بالقدر الكافى، باستثناء تلك الدراسة المهمة التى تنقسم إلى ثلاثة أجزاء، بعنوان (الثورة الاجتماعية والشرق)، والتى لم يقدر للجزء الختامى منها أن يجد طريقه إلى النشر، حيث صادرته الرقابة للأسف، ربما على يد ستالين نفسه. وهذه المقالات بيانها كالتالى:

- "Batum i Armeniia"(باتوم وأرمينيا)، العدد ١٨ (٧٠)، ١٩٢٠/٦/٩.
- "Vosem 'desiat vliiatelnykh printsev, sultanov i potentatov"(أربعة وعشرون من الأمراء والسلاطين والسادة ذوى النفوذ)، العدد ٣٩، ١٩٢٠/١٢/٨.
- "Kob'iavleniiu Azerbaidjanskoï Sovetskoi Respubliki"(فى مناسبة إعلان جمهورية أذربيجان السوفياتية)، العدد ١٨ (٧٠)، ١٩٢٠/٦/٩.
- "Metody antireligioznoï propagandy sredi musulman""(أساليب الدعاية

المضـادة للدين بين المسلمين) ، العـدد ٢٩ (١٢٧) ، ١٩٢١/١٢/١٤ و ٣٠ (١٢٨) ، ١٩٢١/١٢/٢٣ . صدرت فى صورة كتيب بموسكو عام ١٩٢٢.

– "Mustafa Subhi i ego rabota"(مصطفى صبحى وأعماله)، العدد ١٤ (١١٢)، ١٩٢١/٧/٦.

– "Otnositel'no periodicheskoï literatury na turetskih narechiiakh"(حول أدب الدوريات باللهجات التركية) ، العدد ٢٣ (١٢١) ، ١٩٢١/١٠/٢٥.

– "Polojenie Turtsii v poslednee vremia"(الوضع فى تركيـا فى الوقت الراهن) ، العدد ١٤ (٧١) ، ١٩٢٠/٥/١٦ و ١٥ (٧٢) ، ١٩٢٠/٥/٢٣.

– "Sotsial'naia revolutsiia i Vostok"(الثورة الاجتماعية والشرق) ، العدد ٣٨ (٤٦) ، ١٩١٩/١٠/٥ ، ٣٩ (٤٧) ، ١٩١٩/١٠/١٢ و ٤٢ (٥٠) ، ١٩١٩/١١/٢.

– "Tatarskaïa Avtonomnaïa Respublika"(الجمهورية التترية المستقلة) ، العدد ١ ، يناير ١٩٢٣ ، ص ص ٢٥-٣٩.

– "Tatary i Oktiabr,skaïa Revolutssiia"(التتـر وثورة أكتـوبر) ، العـدد ٢١ (١٢٢) ، ١٩٢١/١١/٥.

وقـد كتـب سلطان غـاليـيف مـؤلفـات عديدة بعد عـام ١٩٢٣ على مـا يبدو ، وذلك خـلال الأعـوام التى كـان فـيـهـا شبـه مُقـال وحتى اعـتقـاله للمرة الثـانيـة عـام ١٩٢٨ . والـواقـع أن لدينا العـديد من المراجع حـول (البـرنامج) الذى وضـعـه والذى انـتـشر بين أنصـاره بالتـأكـيـد، سـواء بصـورته المخطوطة أو المنسـوخـة. ورغـم أننا لم ننجح فى العـثـور على هذا النـص المهـم، إلا أن أفكاره الأسـاسـيـة وردت فى (برنامج حزبErk) ، الذى أمكننا اكـتـشـاف نسـخـة مـخطوطة منه بمحض المصادفة.

ويجدر بنا أن نضيف إلى تلك المعطيـات المباشرة كتابات رفاق سلطان غـاليـيف من التتر، على قلة عـددهم، التى صـدرت قـبل إقـالتـه. وبعض هذه الكـتـابات مـحـفـوظ لحسن الحظ فى المجموعات الغـربيـة، العـامة منهـا والخاصة على حد سواء، لا سيـمـا فـى مكتبات تركيـا. وهى تقدم معلومات تكميلية تتيح التعرف عن كثب على أفكار زعيمهم القائد. ونذكر من أهمهم:

– فـتـحى برناش، "Sharg Gülleri" («أزاهير الـشرق») ، قـازان، ١٩١٨ ، (باللغـة التـترية) ، مجموعة قصائد تعبر عن بعض الأفكار الثـورية المؤيدة للجامعة الإسلاميـة والقريبـة

من أفكار سلطان غالييف.

- إنبايف "Natsional'naiia Politika RKP(b)"(السياسة الوطنية للحزب الشيوعى (ب) الروسى)، Izvestiia Tatarskogo Tsentral'nogo Ispolnitel'nogo Komiteta, قازان، العدد ١٤٣، الصادر فى ٢٥ يونية ١٩٢٢.

- إسحاق كازاكوف، قازان – Tsentr Voljsko-Kamskoï Oblasti، «قازان – مركز إقليم الفولجا – كاما»، قازان، ١٩٢٣.

- كشاف مختاروف (رئيس اللجنة المركزية التنفيذية للجمهورية التترية)، "Iz Proïdennogo"(«مذكرات»)، Izvestiia Tatarskogo Tsentral'nogo Ispolnitel'nogo Komiteta, قازان، ٢٥ يونية ١٩٢٢.

ثانياً: الوثائق الرسمية المتعلقة باعتقال سلطان غالييف مرتين:

تناول العديد من الوثائق الرسمية المنشورة فى كل من موسكو وقازان المرتين اللتين جرى فيهما اعتقال سلطان غالييف عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٩ باستفاضة شديدة. وتُعد هذه الوثائق من أكثر المصادر السوفياتية المتعلقة بالنشاط «الثورى المضاد» لسلطان غالييف ورفاقه إثارة للاهتمام.

والوثيقة الرئيسية فى هذا الصدد هى خطاب ستالين المخصص لسلطان غالييف على وجه الخصوص، والذى ألقاه أمام المؤتمر الرابع للجنة المركزية للحزب الشيوعى (ب) الروسى مع القيادات العمالية للجمهوريات والأقاليم الوطنية، الذى انعقد فى موسكو فى الفترة من ٥ إلى ١٢ يونية ١٩٢٣، بعد اعتقال سلطان غالييف للمرة الأولى مباشرة. ويرد النص الروسى لهذا الخطاب فى الجزء الخامس من (الأعمال الكاملة لستالين)، موسكو، ١٩٥٢، ص ص٣٠١-٣١٢. أما الترجمة الفرنسية فقد قمنا بنشرها، فى (الحركات الوطنية بين المسلمين فى روسيا؛ الجزء الأول: (الحركة الغالييفية فى تترستان، باريس – لاهاى، موتون وشركاه، ١٩٦٠، ص ص٢٣٩-٢٤٥.

ورغم أنه لم يقدر للتقارير الموجزة عن مناقشات المؤتمر المعقود فى يونية ١٩٢٣ أن تجد طريقها إلى النشر، إلا أن «القرار المتخذ بشأن الحركة الغالييفية» من جانب المؤتمر قد ظهر بعد ذلك بعشرة أعوام فى مجلة Revolutsiia i Natsional'nosti الصادرة فى موسكو، العدد

١١، ١٩٣٣، ص ص١٠٧-١٠٨، (الترجمة الفرنسية فى (الحركات الوطنية....)، المرجع نفسه، ص ص٢٤٦-٢٤٨).

هذا وقد تعرضت جميع الاجتماعات تقريباً التى عقدتها الحكومة والحزب الشيوعى للجمهورية التترية فيما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٢٨ لمناقشة اعتقال سلطان غالييف للمرة الأولى. ولدينا العديد من النصوص الرسمية المتعلقة بهذه الاجتماعات والتى تم نشرها فى قازان على النحو التالى:

- Biulleten' IV-go S'ezda sovetov Tatarskoï Sotsialistitcheskoï Sovetskoï Respubliki, 17-24 dekabriia 1923 goda-Stenografitcheskii otch-et(نشرة المؤتمر الرابع لمجالس السوفيات فى الجمهورية الاشتراكية السوفياتية التترية، ١٧-٢٤ ديسمبر ١٩٢٣. التقرير الموجز)، قازان، ١٩٢٣.
- Otchet o deiatelnosti Ts.I.K.i S.N.K. Tatarskoï Organizatsii. R.K.P.(b) (التقرير الموجز للمؤتمر الإقليمى التاسع للتنظيم التترى للحزب الشيوعى (ب) الروسى، قازان، ١٩٢٤.
- Stenogra fitcheskii Otchet Zasedanii XII-oi Oblastnoï Partiinoï Konfe-rentsii(التقرير الموجز لجلسات المؤتمر الإقليمى الثانى عشر للحزب، قازان، ١٩٢٧.
- Sedmoï Sêzd Sovetov A.T.S.S.R. - 15-21 marta 1927 goda(المؤتمر السابع لمجالس السوفيات فى الجمهورية الاشتراكية السوفياتية المستقلة التترية - ١٥-٢١ مارس ١٩٢٧)، قازان، ١٩٢٧، التقرير الموجز.
- Vtoraia Sessiia Ts.I.K. 5-go sozyva Priourotchennaia k 5-letnemou iubileiu T.S.S.R., 25 Iunia 1925 goda-Stenogra fitcheskii Otchet(الجلسة العاشرة للجنة المركزية التنفيذية بمناسبة الدورة الخامسة لانعقادها التى توافق الذكرى السنوية الخامسة لإنشاء الجمهورية الاشتراكية السوفياتية التترية، ٢٥ يونية ١٩٢٥. التقرير الموجز)، قازان، ١٩٢٥.

وقد قدم م. رازوموف؛ السكرتير الأول للجنة المنطقة التترية، تفسيراً رسمياً لإدانة سلطان غالييف للمرة الثانية عام ١٩٢٩، وذلك فى تقرير رسمى قدمه فى قازان يوم ١٢ أكتوبر ١٩٢٩ أمام ممثل الحزب الشيوعى عن دائرة قازان، ثم طرحه مرة ثانية أمام المؤتمر

الإقليمى الخامس عشر للحزب الشيوعى. وتم نشر هذين التقريرين باللغة التترية:

- الأول فى مجموعة المقالات التى تشهر بسلطان غالييف ورفاقه:

Kontr-Rïvolütsion Soltang äliefchelekkä qarshy

(فى مواجهة الحركة الغالييفية الثورية المضادة)، قازان، ١٩٢٩، ص ص٣-١١.

والأول فى صورة كتيب يحمل عنوان

V.K.P. (b)-nyng XV-ndje Tatarstan ölkä Konfirinsiäse Otchoty

(تقرير المؤتمر الإقليمى الخامس عشر للحزب الشيوعى (ب) الروسى فى تترستان)، قازان، ١٩٣٠.

وقد أتاحت حملة تطهير رفاق سلطان غالييف، بدورها، الفرصة لظهور العديد من الوثائق الرسمية التى بحوزتنا. ومن أهمها قرار اللجنة المركزية الحاكمة للحزب الشيوعى (ب) الروسى، غير المؤرخ (فى أكتوبر ١٩٢٩ على الأرجح) بشأن «أنصار الحركة الغالييفية» مختاروف، ومنصوروف، وإنباييف، وصابروف، ودران-إيرلى، وفيرديف، والذى ورد نصه التترى فى المجموعة المعنونة، المرجع نفسه، ص ٨٧؛ وكذلك قرار مكتب اللجنة الإقليمية للحزب الشيوعى فى تترستان بشأن «الحركة الغالييفية»، أكتوبر ١٩٢٩. ويرد نص هذا القرار فى المجموعة ذاتها، ....Kontr-Rivolütsion ص ص٨٨-٩١.

هذا وقد جرى نشر نصين هامين آخرين فى الكتيب وهما:

Ölke Komitetinining III Plinumda Milli Mäsälä

(المسألة الوطنية أمام الجلسة الثالثة العامة للجنة الإقليمية)، قازان، ١٩٣٠، التقرير الموجز.

Leninskaïa natsionalnaïa politika v rekonstrouktivnyi period

(السياسة الوطنية اللينينية خلال فترة إعادة البناء)، قازان، ١٩٣٣. نص التقرير المقدم إلى الجلسة العامة للجنة الإقليمية للحزب الشيوعى فى تترستان المعقودة فى فبراير ١٩٣٣.

ثالثا: الأدب المناهض «للحركة الغالييفية»:

إن هذا الأدب الذى ظهر بغزارة فيما بين عامى ١٩٢٨ و ١٩٣٩، والزاخر بما يقدمه من معلومات، يسد إلى حد ما فجواتنا المعرفية فيما يتعلق بتأثير أفكار سلطان غالييف على

الحركة الشيوعية فى الجمهوريات الإسلامية داخل الاتحاد السوفياتى.

فقد بدأت الهجمات الأولى ضد هذه الحركة منذ اعتقال ذلك القائد التترى للمرة الثانية عام ١٩٢٩، واستمرت الحملة المعادية لنظرياته السياسية حتى وقتنا الحالى، وعلى مدى أكثر من نصف قرن، مما يبرهن على مدى أهمية «الحركة الغاليبيفية» بالنسبة لترابط الاتحاد السوفياتى واستقراره. إذ لم يسبق أن تعرض أى من «المنشقين» الآخرين، ولا حتى تروتسكى ذاته، لمثل هذا الهجوم الشرس والمتواصل من قبل إدارة التحريض والدعاية. ولا تتضمن قائمة المؤلفات المناهضة للحركة الغاليبيفية والتى نوردها فيما يلى سوى أهم أعمال ذلك الأدب المثير للجدل، المكرسة بصفة خاصة لسلطان غالييف شخصياً أو لرفاقه. كما يجدر بنا أن نضيف إلى هذه المؤلفات تلك الإشارات التى لا حصر لها، والتى تمثل أهمية بالغة فى بعض الأحيان، على نحو ما ورد فى فصول كاملة تتناول سلطان غالييف وحركته، وذلك فى المؤلفات التى تتعرض بصفة عامة لتاريخ الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفياتى:

- أ. أجيتشيف: Journal Sugushchan Allasyzlar (مجلة الملحدين المجاهدين)، Revoliutsiia i Natsional'nosti العدد ٨ لعام ١٩٣٥. نقد لإحدى المجلات التترية المناهضة للدين، والمتهمة بتهمة «القومية البورجوازية» و«الغاليبيفية».
- Arjanov: "Bourjuaznyi Natsionalizm, Oroudie podgotovki antisovets-kikh interventor" (القومية البورجوازية كأداة لإعداد التدخليين(*) المعارضين للسوفيات)، Revoliutsia i Natsional 'nosti العدد ٨ لعام ١٩٣٤، ص ص ٢٢-٣٢، حول تطهير «أنصار الحركة الغاليبيفية» فى تترستان.
- أ. أرشاروني: "Antireligioznaia Propaganda na SovetskomVostoke" (الدعاية المناهضة للدين فى الشرق السوفياتى) موسكو، العدد ١، ١٩٣٠-٣١.
- عيد: "Ideologiia Sultangalievshchiny" (أيديولوجية الحركة الغاليبيفية)، Antireligioznik، موسكو، ١٩٣٠-٣٥.
- أ. بيلين: "Byt 'bditel'nym i zorkim" (اليقظة وحدّة الذهن)، Revoliustiia i Natsional 'nosti، ١٩٣٠-٣٩، حول مقاومة «الحركة الغاليبيفية» فى تترستان بعد عام

(*) تدخلية (سياسة التدخل فى القطاعات الخاصة ضمن الدولة، أو التدخل فى تنازع الدول الأخرى) (المترجمة).

.١٩٢٨

- أ.ك. بوتشاغوف: 'Milli Firka, Simferopol'، ١٩٣٠؛ حول ملى فرقة، الحزب السياسى فى كريميه، وثيق الصلة «بالحركة الغاليفية».

- ج. دافلتشان: -"Klassovaïa bor'ba v Bachkïrskoï Khoudojestvennoï Litera ture" (الصراع الطبقى فى الأدب البشكيرى)، Literatura i Iskoustro، موسكو، العدد ٢-٣، ١٩٣١، ص ص١٣٦-١٥١. حول القضاء على المجموعة الأدبية المعروفة باسمDjidigan ، المستوحاة من «الحركة الغاليفية».

- س. دافيدوف، أ. دين محمدوف، س. محمودوف، ن. فتحوف:-"Ozdorovit' Tatars kouiou Literatourou" (تطهير الأدب التترى»، Revoliutsiia i Natsional 'nosti موسكو، العدد ٥، ١٩٣١، ص ص ١٠١-١٠٦؛ حول مقاومة التحول القومى و«الغاليفى» فى الأدب التترى.

- ف. إلاغان: -"Natsionalistitcheskie illiuzii Krymskikh Tatar v revoliutsion nye gody" (الأوهام القومية للتتر فى كريميه خلال أعوام الثورة)، Novyi Vostok، موسكو، العدد ٥، ص ص ١٩٠-٢١٦ والعدد ٦، ١٩٢٤، ص ص ٢٠٥-٢٢٥؛ حول التحولات القومية للقادة الكريميين لحزب ملى فرقة، من رفاق سلطان غاليف وأصدقائه.

- جيمرانوف: Yapazitsiege qarshy - Faktlar häm Sanlar (حقائق وأرقام فى مواجهة المعارضة)، قازان، ١٩٢٧ (باللغة التترية)؛ حول مقاومة المعارضة اليمينية («الغاليفية») واليسارية فى تترستان.

- ن. خيروف"Pobednyi put' latinizatsii v Tatarii" (المسيرة المظفرة لإضفاء الطابع اللاتينى على تترستان)، Revoliutsiia i Natsional 'nosti العدد ٧، ١٩٣٣، ص ص ٦٦-٧٠؛ حول تخليص القوميين «الغاليفيين» المشايعين من سيطرة الأبجدية العربية.

- م.أ. حسنوف: "Koul 'tournoie stroitel'stvo v Tatarii za 15 let" (البنيان الثقافى فى تترستان خلال الأعوام الخمسة عشر الأخيرة)، Revoliutsiia i Natsional 'nosti١٩٣٥-٣٦، ص ص ٣٧-٤٢.

- عيد "Tatariia v bor'be za Leninskouiou natsional 'nouiou politikou" (تتريا وتنازع السياسة الوطنية اللينينية)، Revoliutsiia i Natsional 'nosti ١٩٣٣-١١، ص ص ٣٠-٣٦. وقد كُرِّست الدراستان اللتان قدمهما حسنوف لغرض تطهير «أنصار الحركة الغاليفية» فى جهاز الحزب وحكومة تترستان.
- Istoriia Tatarii v dokoumentakh i materialakh (تاريخ تتريا فى الوثائق والمواد)، موسكو، ١٩٣٧.
- Itogi razrecheniia natsional 'nogo voprosa v S.S.R. (الحساب الختامى لحل المشكلة الوطنية فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية)، موسكو، ١٩٣٦. مجموعة وثائق تحت إشراف ديمانستاين.
- ك. قاسموف: Otcherki po religioznomou i antire ligioznomou dvijeniu sredi Tatar do i posle revoliutsii نظرة إجمالية للحركة الدينية والمضادة للدين عند التتر قبل الثورة وبعدها)، قازان، ١٩٣٢.
- عيد: Pantiurkistskaïa kontrrevoliutsiia i eia agentoura Sultangalievshchi-na (الثورة المضادة للجامعة الإسلامية وربيبتها الحركة الغاليفية)، قازان، ١٩٣١. وتُعد دراسات قاسموف أحد مصادرنا الرئيسية حول القضاء على «الحركة الغاليفية».
- ل. كليموفيتش: "Religioznoe dvijenie v Tatarskoï respoublike" (الحركة الدينية فى الجمهورية التترية)، Antireligioznik، ١٩٢٧-٣٤.
- م.كويتسكى، "Sultangalievshchina kak apologiia Islama" (الحركة الغاليفية دفاعاً عن الإسلام)، Antireligioznik، العدد ١، ١٩٣٠.
- Kontr - Rivolütsion Soltangäliefchelekkä qarshy (فى مواجهةالحركة الغاليفية المضادة للثورة)، قازان، ١٩٣٠، (باللغة التترية). مجموعة من ٢١ مقالة تُعتبر من المصادر الرئيسية حول سلطان غالييف وحركته.
- ك. نجمى: "O Tatarskoï khoudojestvennoï Literature" (حول موضوع الأدب التترى)، Revoliutssia i Natsional 'nosti ١٩٣٤-٣٩، ص ص ٧٣-٨١. نص التقرير المقدم إلى المؤتمر الأول للكتّاب السوفيات فى موسكو. هجوم عنيف على التيارات القومية فى الأدب التترى.

- Otcherki po izoutcheniou mestnogo kraiia (نظرة إجمالية لدراسة الإقليم الوطنى)، قازان، ١٩٣٠. مجموعة مقالات يتناول العديد منها الحياة السياسية فى تترستان فى فترة تصفية أنصار سلطان غالييف.
- محمد بارزان: Yash Lenintchiler (اللينينيون الشبان)، قازان، ١٩٤٢. دراسة لتنظيم الشبيبة الشيوعية التترى والتيارات القومية المحركة له.
- Protiv Sultangalievshchiny i Samoderjaviia (فى مواجهة الحركة الغالييفية وامبريالية القوة العظمى)، قازان، ١٩٢٩. مجموعة من المقالات.
- ل. روبنشتاين: V bor 'be za leninskouiou natsional 'nouiou politikou (تنازع السياسة الوطنية اللينينية)، قازان، ١٩٣٠. تحليل دقيق وتفصيلى «للحركة الغالييفية». أحد المصادر بالغة القيمة.
- أ. تاراسوف: "Kontrrevolutsionnaia avantura Tatarskoï bourjouazii v 1918" (المغامرة الثورية المضادة للبورجوازية التترية عام ١٩١٨)، Istorik Mark-sist موسكو، ١٩٤٠-٤٧، ص ص ٩٣-١٠٠.
- عيد: Razgrom kontrrevolutsionnoï avantury tatarskoï bourjouazii v natchale 1918 goda (هزيمة المغامرة الثورية المضادة للبورجوازية التترية فى بداية عام ١٩١٨)، قازان، ١٩٤٠.
- عيد: "Oustanovlenie sovetskoï vlasti v kazani" (إقرار السلطة السوفياتية فى قازان)، Istoritcheskii Journal، موسكو، ١٩٤٠-١١.
- Tatarskaia Sotsialistitcheskaia Sovetskaia Respoublika za piat'let ١٩٢٠-١٩٢٥ (الجمهورية الاشتراكية السوفياتية التترية خلال الأعوام الخمسة الأخيرة، ١٩٢٠-١٩٢٥)، قازان، ١٩٢٥.
- ش. تيبيف: K istorii natsional 'nogo dvijeniia v Sovetskoï Bachkirii (فى معرض الحركة الوطنية فى بشكيريا السوفياتية)، أوفا، ١٩٢٩؛ حول «الحركة الغالييفية» فى بشكيريا.
- عيد: Millät, Milli kultura (الأمة والثقافة الوطنية)، موسكو، ١٩٢٩ (باللغة التترية).

- أ. أوخانوف: Sotsialistitcheskoe nastouplenie i religiia (الهجوم الاشتراكى والدين) ، قازان، ١٩٣٢. حول «الحركة الغاليفية» والإسلام.

ولا تزال الانتقادات الموجهة إلى «الحركة الغاليفية» ، والتى أصبحت منذ ذلك الوقت فصاعداً مرادفاً لكراهية الأجانب المضادة للروس وللقومية بجميع أشكالها ، أحد الموضوعات الدائمة للأدب السياسى التترى. وتُعد الدراسات العديدة التى كُرِّست مؤخراً لسلطان غاليف، فى قازان وموسكو على حد سواء ، خير شاهد على ذلك. ولكثرة هذه المطبوعات، فإنه يتعذر حصرها فى قائمة واحدة. ومن أهمها ما يلى:

- م. عبد اللين وباتييف: "Soltangäliefcheläk häm any bourjuaz yaklauchylar" («الحركة الغاليفية» وأنصارها البورجوازيون)، Tatarstan Kommunisty، قازان؛ أولاً - ١٩٧٥، ص ص ٦٧-٧٥. وقد وردت أسماؤنا على رأس هؤلاء «الأنصار البورجوازيين». كما ظهرت نسخة روسية موسعة من هذا المقال تحت نفس العنوان: "Sultangalievshchina i ee bourjouaznye zashchitniki" فى عمل لنفس المؤلفين: Tatarskaia A.S.S.R. Real'nost' i bourjouazne mify (الجمهورية التترية الاشتراكية السوفياتية المستقلة. الحقائق والخرافات البورجوازية)، قازان، ١٩٧٧، ص ص ١٢٣-١٣٨.
- م. عبد اللين: Tatarstanda Oktiabr ' Rivolütsiäse häm any falsifikatsii- aläüchelär , Sovet Mäktäbe (ثورة أكتوبر فى تترستان والمزيفون)، فى قازان، حادى عشر - ١٩٧٥، ص ص ٥٣-٥٨ (باللغة التترية). وقد وردت أسماؤنا للمرة الثانية فى مكان بارز بين هؤلاء «المزيفين».
- م.ر. بولاتوف: Bor'ba troudiashchikhsia Tatarii za pobedou Sotsialistitches- koï Revolutsii (كفاح تتريا من أجل انتصار الثورة الاشتراكية، قازان، ١٩٥٧.)
- أ.ج. جيزاتوللين: Zashchishchaia zavoevaniia Oktiabria. Tsentral 'naia Mu- sul'manskaia Voennaia Kollegiia (دفاعاً عن فتوحات أكتوبر. المجمع المركزى العسكرى الإسلامى)، موسكو، ١٩٧٩، ص ص ٢٦-٣٠، حول دور سلطان غاليف.
- ن. مانسفيتوف: "Velikaia Oktiabr'skaia Sotsialistitcheskaia Revoliutsia i sozdanie Narodnogo Kommissariata po delam natsional'nostei"

(ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى وإنشاء مفوضية الشعب لشؤون القوميات)، Voprosy Istorii، موسكو، ١٩٤٩-٨.
- س. محمدوف وم. محرياموف: "Musul'manskii Sotsialistitcheskii komitet" , (اللجنة الاشتراكية الإسلامية) Sovetskaïa Tatariia، قازان، ٢، حادى عشر - ١٩٥٧.
- م. محرياموف: Iz istorii innostrannoi interventsii i grajdanskoi voiny v Ta-tarii (صفحات من تاريخ التدخل الأجنبى والحرب الأهلية فى تتريا)، قازان، ١٩٥٤.
- عيد: Oktiabr 'i natsional 'nyi vopros v Tatarii Oktiabr ' 1917 - Iul' 1918; ١٩١٨ (أكتوبر والمشكلة الوطنية فى تتريا - أكتوبر ١٩١٧ - يولية ١٩١٨)، قازان، ١٩٥٨.
- ن. ناصروف: "Tatarstanda Sovet vlastenen urnashtyn häm nygytüochen Köräsh tarihynan" (صفحات من تاريخ النضال من أجل إرساء ودعم السلطة السوفياتية فى تترستان)، Sovet Adäbiyaty، قازان، ١٩٥٧-١٢ (باللغة التترية).
- يو أ. سميكوف، Molodej Tatarii v bor'be za viast' Sovetov (شبان تتريا وتنازع سلطة السوفيات)، قازان، ١٩٥٨.

رابعا: مؤلفات المهاجرين التتر:

فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، قام عدد من المهاجرين التتر والبشكيريين، من أسرى الحرب القدامى فى ألمانيا، بنشر مذكراتهم حول أعوام العشرينات والثلاثينات فى الغرب. وتتضمن هذه المذكرات معلومات متفرقة، وإن كانت قيّمة فى كثير من الأحيان، إن لم يكن عن سلطان غالييف ذاته، فعلى الأقل حول حملات التطهير التى اجتاحت بلاد التتر والبشكيريين فيما بين عامى ١٩٢٨ و ١٩٣٩:

- ت، دولتشان: الحياة الثقافية فى الجمهورية التترية، نيويورك، برنامج أبحاث حول اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، ١٩٥٣.
- عيد: ، Sovetskii Tatarstan لندن، ١٩٧٤.

- ج. فيظ اللين: "Motivy razkhojdeniia Sultan Galieva s Partiei" (أسباب الخلاف بين سلطان غاليف والحزب)، Vestnik Instituta po Izucheniu Istorii i Kul'tury S.S.S.R., ميونيخ، ١٩٤٥-٥ (١٢)، ص ص ٥٨-٦٥.
- م. كريمى: "Kreml'i Tatarskie Kommunisty", Azat Vatan، ميونيخ، ١٩٥٢-٧، ص٦.
- ر. موساباى: «الأدب التترى المعاصر»، East Turkik Review، ميونيخ، ١٩٥٨-١، ص ص٥٩-٦٩.
- "Pravda o Sultan Galieve"، (حقيقة سلطان غاليف)، Azat Vatan، ميونيخ، ١٩٥٢-٥، ص ص ٧-٨.

خامساً: الدراسات الأجنبية:

أولى عدد قليل للغاية من المؤرخين الغربيين اهتمامهم لسلطان غاليف وللشيوعية الوطنية للمسلمين فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. وكان الرائد فى هذا المجال المؤرخ الألمانى جيرار فون مند الذى يتناول سلطان غاليف باستفاضة فى مؤلفه المهم بعنوان Der Nationale Kampf der Russlands Türken، برلين، ١٩٣٦.

كما تصدى المؤرخ الأمريكى ريتشارد بايبس الذى يعمل بجامعة هارفارد لمشكلة سلطان غاليف، وإن كان ذلك بإيجاز، فى مؤلفه المعنون (إنشاء الإتحاد السوفياتى)، كامبريدج، مطابع جامعة هارفارد، ١٩٤٥، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.

أما فى فرنسا، فقد خصص مؤلفو هذا العمل العديد من الدراسات لسلطان غاليف، ومن أبرزها:

- أ. بنجسين وش. كالكيجيه: "Der Sultangalievismus und die nationalistischen Abweichungen in der Tatarischen Autonomen Sowjetrepublik", Forschungen zur Osteuropaischen Geschichte، برلين، ١٩٥٩-٨، ص ص ٣٢٣-٣٩٦.
- أ. بنيجسين وش. كالكيجيه: (الحركات الوطنية بين المسلمين فى روسيا. الحركة الغاليفية

فى تترستان)، باريس – لاهاى، ١٩٦٠. تمت ترجمة هذا العمل باللغة التركية Sultan Galiyev vc Sovyet Müsülmanlari، إسطنبول، Hür Yayin, ١٩٨١.

- أ. بنيجسين وس. أ. ويمبوش: (الشيوعية الوطنية الإسلامية فى الاتحاد السوفياتى. استراتيجية ثورية لعالم المستعمرات، شيكاغو – لندن، مطابع جامعة شيكاغو، ١٩٧٩.

كما تجدر الإشارة فى فرنسا كذلك إلى التحليل المتعمق الذى قدمه مكسيم رودنسون لنظريات سلطان غاليف بعنوان «الشيوعية والعالم الثالث. حول أحد الرواد المنسيين»، العصور الحديثة، باريس، العدد ١٧٧، ديسمبر ١٩٦٠ - يناير ١٩٦١؛ بالإضافة إلى دراسة حديثة أعدتها شانتال ليمرسييه - كالكيجيه، بعنوان «الأقليات القومية الإسلامية فى الثورة والحرب الأهلية» فى (القوميات السوفياتية بمنظور استراتيجى)، طبعة س. إندرز ويمبوش، لندن، ١٩٨٥، ص ص ٣٦-٦١، تتضمن تحليلاً للأعمال العسكرية لسلطان غاليف بصفة خاصة.

ونشير فى النهاية، من قبيل المعرفة بالشىء، إلى إحدى الدراسات التى ظهرت فى بولونيا، والتى لم نتمكن من الرجوع إليها؛ من إعداد آدم كروسزيك، بعنوان "Sultan Galie-jew po 50-uv Iatach", Kultura, العدد ٩، ١٩٧٣، ص ص ٧٨-٨٨.

أما أحدث الأعمال الأدبية المستوحاة من عملنا فهى:

- حبيب طنغور: سلطان غاليف، باريس، سنباب، ١٩٨٥، مجموعة «المكتبة العربية».

أعمال لنفس المؤلفين

من تأليف ألكسندر بنيجسون وشانتال ليمرسييه- كاليكيجيه

- الحركات القومية لمسلمى روسيا.
- الحركات الغاليبيفية فى تترستان، باريس- لاهاى، موتون، ١٩٦٠.
- الصحافة والحركة القومية لمسلمى روسيا قبل عام ١٩٢٠، باريس- لاهاى، موتون، ١٩٦٤.
- الإسلام فى الاتحاد السوفياتى، لندن - نيويورك، بول مول وبرايجر، ١٩٦٧. ترجمة فرنسية، باريس، بايوه، ١٩٦٨، الإسلام فى الاتحاد السوفياتى.
- خان «كريميه» فى المحفوظات العثمانية (توب كابيه)، باريس، مدرسة الدراسات العليا، ١٩٧٨ (بالاشتراك مع ب. بوراتاف ود. ديسيف).
- مسلمون فى طى النسيان. الإسلام فى الإتحاد السوفياتى، باريس، ماسبيرو، ١٩٨١.

أعمال من تأليف ألكسندر بيننجسون

- الروس والصينيون قبل عام ١٩١٧، باريس، فلاماريون، ١٩٧٤.
- فارس ملكى فى موسكو- الكابتن جاك مارجريه: مذكرات عن الثورة الروسية الأولى، ١٦٠٤-١٦١٤ باريس ، الاكتشاف/ماسبيرو، ١٩٨٣

أعمال من تأليف شانتال ليمرسييه-كالكيجيه

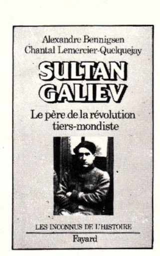
السلام فى منغوليا- عبودية التتر أم السلام المنغولى؟ باريس، فلاماريون، ١٩٧٠.

الفهرس

رقم الايداع
٩٢/١٠٢٧٥

الترقيم الدولى
177 - 5222 - 05 - 2





ماذا يريد المسلمون الثوريون ؟ هذا مايتحدث عنه الكسندر بينيجسن وشانتال لومبرسييه ـ كيلكجى وهما متخصصان فى الدراسات الاسلامية والتركية وكانا أول من أعاد اكتشاف الدور الرئيسى الذى لعبه سلطان غالييف المعلم والصحفى التترى فى ظهور أفكار هؤلاء المسلمين الثوريين . وذلك منذ بداية ثورة أكتوبر حتى نهاية عام ١٩٢٨ عندما تخلص منه ستالين .

سلطان غالييف هو أب لثورة العالم الثالث ، فهو الذى وضع نظرية « الشيوعية الوطنية الاسلامية » ، وهى اشتراكية يقيمها الكادحون المسلمون ولا تفرضها البروليتاريا الأوروبية ، وتفترض تحرير الأرض التى احتلتها الامبراطورية القيصرية القديمة من الاستعمار .

وإن قادة العالم الثالث مثل عبد الناصر أو بن بللا أو القذافى يعتبرونه مبادرا وملهما لأفكار الثورة ضد الاستعمار الذى سيطر على أفريقيا وآسيا .

ان سلطان غالييف ، الذى هاجمه أو « تناساه » التاريخ السوفييتى باعتباره « التروتسكى المسلم » ، وهو الذى ثار ضد كل الامبرياليين . يعتبر ـ بدرجة ما ـ نبى معارك التحرر التى لازالت تخوضها قوى التحرر فى العالم الثالث .

وتطرح حياته ـ فى قلب هذه المعارك ـ مسألة أساسية :

هى التعايش بين الماركسية والاسلام .

والمؤلفان اثنان من المتخصصين فى شئون الاتحاد السوفييتى وشئون المسلمين فى آسيا . الأول هو الكسندر بينيجسن أستاذ التاريخ القديم فى جامعة شيكاغو والثانى شانتال ليمرسييه ـ كيلكجى وهو متخصص فى الدراسات . ومن مؤلفاتهم الأساسية : الحركات القومية عند المسلمين فى روسيا ، والاسلام فى الاتحاد السوفييتى ، والمسلمون المنسيون . مجموعة « المنسيون فى التاريخ » بقيادة جان مونتالبيتى .



دار العالم الثالث

٢٢ (أ) شارع حسين حجازى ، القاهرة
تليفون ٣٥٥٥٥٠٢ / ٣٩٢٢٨٨٠ فاكس ٣٥٥٠٨٧١

كتاب العالم الثالث

تصميم الغلاف: محيي الدين اللباد

